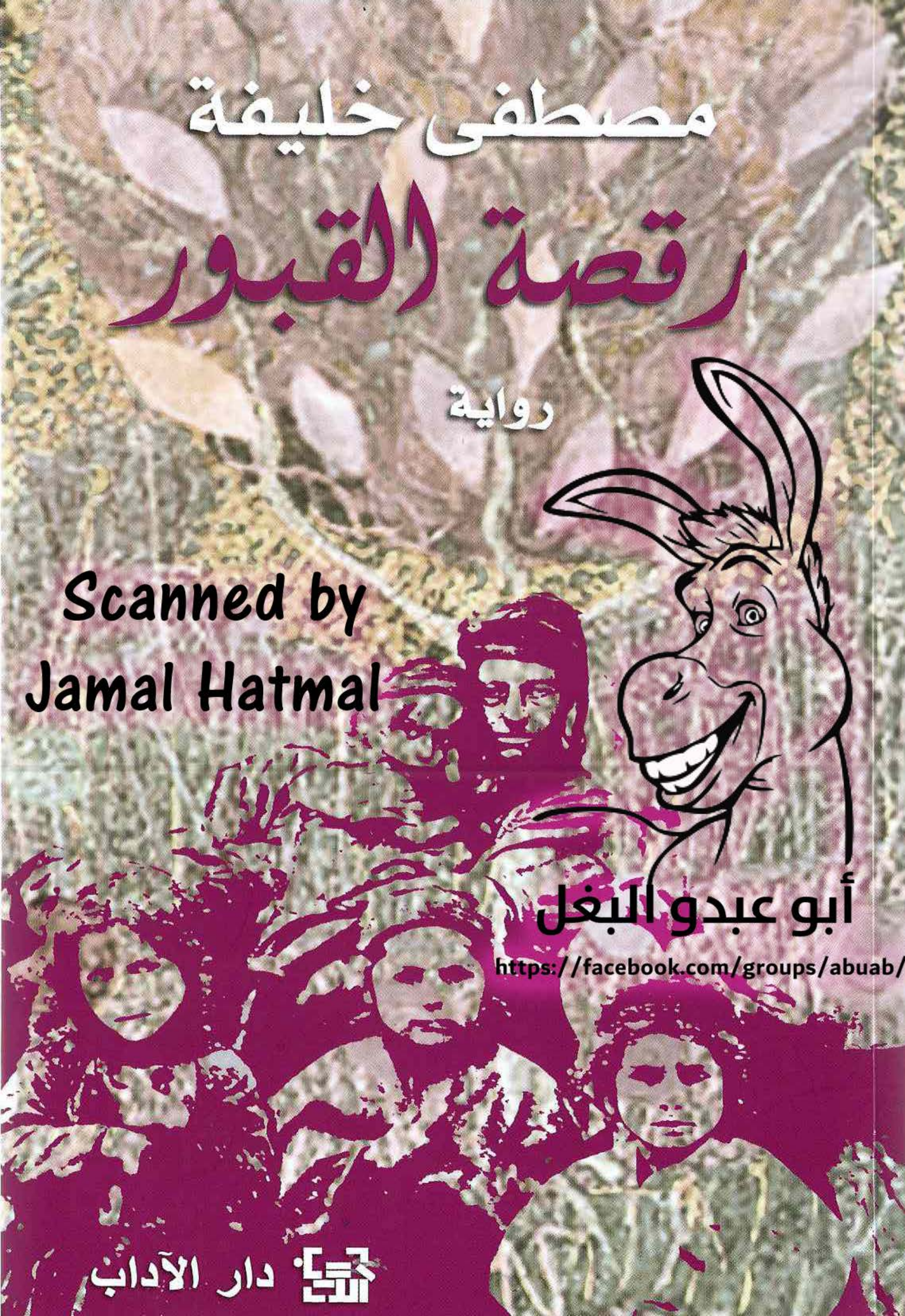

مصطفى خليفة
رقصة القبور
رواية
Scanned by
Jamal Hatmal
أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/
دار الآداب

رقصة القبور

السرداب

مصطفى خليفة

# رقصة القبور

## السرداب

رواية

دار الآداب ـ بيروت

رقصة القبور / السرداب

مصطفى خليفة / كاتب سوري

الطبعة الأولى عام 2016

ISBN 978-9953-89-517-8





دار الآداب للنشر والتوزيع

ساقية الجنزير ـ بناية بيهم

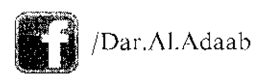
بيروت ـ لبنان

هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)

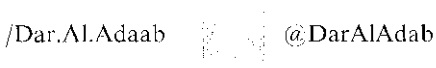
فاكس: 009611861633

e-mail: rana@daraladab.com

info@daraladab.com



/Dar.Al.Adaab



@DarAlAdab



daraladab.com

# حكاية هذا العمل

**أوّلًا:**

تشكَّلتْ فكرةُ الرواية هذه على وقع صوتين: صوت السياط وهي تنهال على أجساد البشر، وصوت هؤلاء البشر وهم يصرخون ألمًا عندما تنهال عليهم السياط. وكان ذلك خلال سنتين قضيتُهما في سجن المخابرات العامَّة في حيّ كفر سوسة بدمشق.

بعدها، وخلال عدَّة سنوات في سجن تدمر، اكتملتْ «في الذهن» الخطوطُ العامّةُ لها، وكذلك الكثير من التفاصيل.

ليس التعذيب في حدّ ذاته هو ما كان المحفِّز، إنّما الإخلاص والتفاني و«الحقد» في ممارسة هذا التعذيب من قِبل بعض الجلّادين، بحيث تبدو المسألة وكأنَّها شخصيَّة: فالجلَّاد ليس مجرَّد موظَّف يؤدِّي عمله» لقاء أجر، وإنَّما صاحب قضيّة، لا بل صاحب ثأر!

بُعَيْد منتصف العام ١٩٨٧ نُقِلْنا إلى سجن صيدنايا العسكريّ، وتوفَّرتْ لدينا الأوراق والأقلام في هذا السجن.

الصديق جمال سعيد شرع في كتابة رواية فورًا. وكان هناك تباينٌ

في وجهات النظر بيننا حول مسألة الكتابة بشكل عامّ، وفي السجن بشكل خاصّ. ولكنْ أخيرًا وبعد عدّة شهور ـ وفي جوٍّ من الاسترخاء النسبيّ ـ اقتنعتُ بوجهة نظره، وبدأتُ كتابةَ الفصل الأوّل من هذه الرواية سرًّا، حتى عن جمال.

في بداية العام ١٩٨٨ أنهيتُ الفصلَ الأوّل من هذه الرواية، وأزعم ـ كما هو متوقَّع ـ أنّه كان أفضل من هذا الذي كتبتُه الآن. وفكَّرتُ أن أخبر جمال، متخيِّلًا نفسي أناوله الأوراقَ المكتوبة «باحتفاليّة وزهو»؛ وتخيَّلتُ كذلك فرحته. ولكنَّه سبقني وأخبرني أنَّ روايته قد انتهت. فرحنا لذلك، ولكنْ أصبح من اللائق أن أؤجِّل «خبري» المفرح قليلًا.

غير أنَّ فرصةَ إخبار جمال لم تسنح أبدًا. فبعد يوم أو يومَيْن، ملأت الشرطةُ العسكريَّةُ جناحَنا في السجن. أخرجتنا من المهاجع بثيابنا فقط، وعاثت في المهاجع طوال عدَّة ساعات. صادرتْ كلّ شيء، خصوصًا الأقلام والأوراق والدفاتر، وكذلك رواية جمال و... فصلي الأوّلَ: الفصلَ الذي ظلّ يتيمًا.

في الأيّام الثلاثة التالية كان جمال «كأب مفجوع» يقف على باب الجناح ذي القضبان الحديديّة السوداء، يقبض بيده اليسرى على أحد قضبان الباب، ويدُه اليمنى جاهزةٌ لتؤشِّر لأيِّ شرطيّ يمرّ قريبًا من باب الجناح، وهو يصرخ طالبًا من الشرطيّ «مع الرجاء طبعًا» أن يقول لـ «المساعد محمد»: إنّ جمال «من الجناح آ أوَّل سفلي» يريد مقابلته لأمر مهمّ.

وخلال الأيّام الثلاثة تلك، حضر المساعد محمَّد عدَّة مرَّات بناءً على طلب جمال، وكان من منطقة جمال نفسها. وفي كلِّ مرَّة يشرح جمال للمساعد: الدفتر، حجمه، لونه... وعلى الغلاف الخارجيّ

صورة الرئيس حافظ الأسد (وكلّ دفاتر سوريا في تلك المرحلة عليها صورة حافظ الأسد).

لا نعرف إذا كان المساعدُ جدِّيًا في البحث عن دفتر جمال؛ وأعتقد أنَّه ليس كذلك، لأنَّ البحث في الدفاتر المصادرة قد يحتاج إلى بضعة أيّام.

المساعد محمَّد في اليوم الثالث، وقد ضاق ذرعًا من إلحاح جمال رغم كلّ الاعتبارات، سأله وفي صوته بعضُ الحدّة:

ـ طيِّب ولشو كلّ هالشي الدفتر مهمّ عندك؟ شو في بهالدفتر؟

فردّ جمال وكأنَّ بعضًا من روحه يخرج مع الكلام:

ـ يا أخي بهالدفتر في كتابة، يعني كتاب... أنا كتبته.

ـ أنت كتبت هادا الكتاب!؟

ـ نعم أنا كتبته، أنا ألّفته.

ـ يعني كلّ هالكتاب من عقلك؟ ما نقلته من شي محلّ؟

ـ من عقلي.. نعم.. ما نقلته من أيّ محلّ.

وردّ المساعد بكلمة تعبِّر عن التعجُّب والاستنكار عند أبناء الطائفة العلويّة في سوريا:

ـ قرررد .. طيّب ما دام من عقلك ارجع اكتبه مرَّة ثانية!!

لحظتها لا يمكن وصفُ ما ارتسم على وجه جمال.

والآن لا أعتقد ـ أو لم أسمع ـ وبعد أكثر من خمسة وعشرين عامًا على الحدث أنّ جمال قد أعاد كتابةَ روايته، من عقله مرَّةً ثانية، وكنت أظنّني لن أفعل أيضًا.. أيْ أن أُعيد كتابة «الفصل الأوَّل».

ولكنْ في المنفى ـ ولم يكن لديّ ما أفعلُه ـ استذكرتُ روايتي، وكتبتُها خلال سنةٍ واحدةٍ تقريبًا. وكما يفعل الجميع عرضتُها بدايةً على

الأصدقاء لسماع ملاحظاتهم، حيث كان حولي ثلاثةٌ من الأصدقاء قلَّما يتوفَّر مثيلُهم لأحد آخر: فاروق مردم بك، والكاتبة السوريّة سمر يزبك، والدكتورة رانية سمارة... وعبر التراسل الصديقة إيناس حرفوش.

استمعتُ إلى ملاحظاتهم، إضافةً وحذفًا، ولكنّني رفضتُ الأخذَ ولو بملاحظة واحدة، لأنّ هذه الملاحظة كانت ستؤثّر في السياق العامّ، أو الجوّ العامّ، لو أخذتُ بها.

وتسلَّحتُ بكلِّ عنادي لأرفض الأخذَ بها. والدافعُ الأساسُ لي كان: أنّ هذا النصّ تكوّن تحت ضغط السجن بكلّ مفاعيله، تحت ضغط كلّ «حرمانات» السجن. ورغبةً منّي في الحفاظ على الحدّ الأدنى من هذا الجوّ، ومن هذه الحرمانات، آثرتُ أن أحافظ على النصّ كما فكّرتُ فيه وأنا داخل السجن.

وليتوضَّحْ هذا الأمرُ أكثر، أريد أن أذكر شيئًا قد يساعد في فهم هذا العناد:

يلجأ السجناء في بعض الحالات في صراعهم مع إدارة السجن، أو مع النظام، إلى سلاح الإضراب عن الطعام. وقد شاركتُ مع رفاقي في بعض هذه «التجارب»، وكان أطولَها و«أقساها» إضرابٌ استمرّ حوالى خمسة وثلاثين يومًا، واستمرّت الحياة طوال هذه الفترة على الماء فقط، يُضاف إليها غرامٌ أو غرامان من ملح الطعام. وبصراحة شديدة، كلّ هذه المدّة كنتُ أحلم بالطعام، أحلامًا حقيقيّة عندما أكون نائمًا، وأحلامَ يقظةٍ أثناء النهار. أحلم بطعام أمّي، أحلم بطاولاتٍ مليئةٍ بشتّى المآكل الشهيّة في بعض المطاعم الفاخرة التي سبق أن دخلتُها (وهي للحقيقة قليلة جدًّا). أرى نفسي واقفًا على رصيفٍ ما في إحدى المدن السوريّة، وبيدي سندويشةُ فلافل، أقضم

أعلاها بفمي، وبيدي اليسرى أحاول منعَ تسرُّب سائل الطحينة من أسفلها.

أقول: حينها لو طُلب إليَّ أن أكتب شيئًا ما، فلن أكتب إلّا عن الطعام، وسأطيل وأطيل. وسأكتب عن العديد من وصفات الطعام التي «اخترعتُها». وعندما يقرأ صديقٌ ما بعد ذلك ما كتبتُ، فإنَّه حتمًا سيقول: «لقد أطلتَ وبالغتَ!» وسيكون رأيُ هذا الصديق ـ الذي أجلُّ وأحترم ـ صائبًا تمامًا، ولكنّني سأعتذر منه وأقول:

ـ هذا ما كنتُ أحسّ به. ولكي أكون صادقًا، فسأتركُه كما هو.

## ثانيًا:

وهو في الحقيقة تنويه:

كثيرةٌ هي الأعمال التي تستند إلى التاريخ، حتى تلك التي تحكي عن الواقع الراهن اليوم، هذا الواقع الذي سيصبح تاريخًا غدًا.

وفي هذا النصّ الكثيرُ من التاريخ البعيد والقريب، ولكنْ ليس التاريخ كما حدث فعلًا، أو كما كُتب. فإلى جانب هذا، سمح النصُّ لنفسه بأن يتحدّث عن التاريخ لا كما حدث فقط، وإنّما كما كان يمكن أن يحدث أيضًا!

حادثةٌ ما، صغيرةً أمْ كبيرة، كأنْ يستغرقَ في النوم أحدُ الضبّاط المتآمرين للقيام بانقلاب عسكريّ صبيحةَ موعد تنفيذ الانقلاب، فيَفشل الانقلابْ، قد تؤدّي إلى تغيير مسار التاريخ «كما حدث».

وللحديث عن التاريخ كما كان يمكن أن يحدث، لا بدّ من استخدام العبارة التي تصوغ كلَّ سؤالٍ افتراضيّ: «ماذا لو». وأعتقد أنّه يحقّ لكلِّ إنسانٍ أن يطرح هذا السؤالَ الافتراضيّ، وأن يجيبَ عليه أيضًا.

ماذا لو مات هتلر، لسببٍ ما، قبل نشوب الحرب العالميّة، أو ماذا لو لم يوجد أصلًا؟ كيف سيكون العالمُ في هذه الحالة؟

في العام ١٩٣٠، وهي السنة التي قيل إنّ حافظ الأسد وُلد فيها، كان نصفُ أطفال سوريا يموتون نتيجة الفقر والجهل وانعدام الرعاية الصحِّيَّة. إذًا ماذا لو مات حافظ الأسد، لأيّ سبب من الأسباب التي كانت تقتل أطفالَ سوريا؟ أو ماذا لو أنّ أمّه لم تلدْه أصلًا؟ أعتقد أنّه في الحالتين سيكون العالم أجمل، وستكون سوريا أجمل.

هذا النصّ ليس تأريخًا، بل لعب الخيالُ فيه دورًا أساسيًّا، وسمح لنفسه بأن يستخدم السؤال: ماذا لو؟

**مصطفى خليفة**

# (١)

في الأيّام التي كنتُ أقدِّم فيها أوراقي للتسجيل في الجامعة بعد نيلي الشهادةَ الثانويّة، انفجر الوضعُ بيني وبين أبي بطريقةٍ لم تحدث من قبل، إذ نعتُّه بالفاشل والكاذب والمدّعي. صفعني صفعةً مدوّية. عندها بصقتُ عليه. فأمسكني من رقبتي وجرّني إلى باب البيت. وضع رجله في ظهري وقذفني خارجًا، متوعِّدًا إيّاي ـ إنْ عدتُ ـ بالقتل!

أنا الابنُ الأكبرُ في العائلة، هذه العائلة التي بدأتُ أعتبرها، وأنا في السادسة عشرة والسابعة عشرة، مجموعةً من الكاذبين والمنافقين.

وبدأتْ أكره والدي ثم والدتي. لم نكن نشبع من الطعام إلّا بصعوبة، ولكنّنا كنّا نعيش بيقينٍ حاسم: أنَّ الدماء التي تجري في عروقنا هي دماءٌ زرقاء، وأنّنا ننتمي بنسبنا إلى الرسول الأعظم، ولكنْ ـ وككلّ الحكايات المشابهة ـ آمنّا بأنّ أحد جدودنا أضاع الثروةَ بطريقةٍ ما، وأنّ هؤلاء الذين يملكون الآن القصورَ والسيّارات والنقودَ قد كانوا في نظرنا خدمًا عندنا.

ولكنْ ليست قصّةُ حياتي ومسيرةُ عائلتي ما أودُّ كتابتَه، بل قصّة رجلٍ آخر وسيرة عائلةٍ أخرى. ولنبدأ من نقطةٍ ما.

كانت السلطات العسكريّة الحاكمة التي جاءت بعد آخر انقلاب

عسكريّ قد قرّرتْ توجيهَ إنذار عمليّ إلى حزبنا بعد أن ارتفعتْ حدّةُ النقد في صحيفة الحزب لحكم العسكر. فكانت أن اتّخذتْ قرارًا تحذيريًّا باعتقال عدد محدود من أعضاء الحزب؛ وفي الوقت ذاته فإنّ محدوديّة عدد المعتقلين لا توحي بأنَّ السلطات في وارد فتح مواجهةٍ شاملةٍ مع الحزب.

كنتُ واحدًا من هؤلاء المعتقلين. وبعد خمسة عشر يومًا من وجودي في الزنزانة الانفراديَّة فُتح البابُ وقال السجَّان بلهجة هادئة: أخرجْ.

بعد أن أصبحتُ في الممرّ بين الزنازين المفتوحة الأبواب رأيتُ الكثير من الشباب، الزائغي النظرات، الشعثي الشعور، قد خرجوا مثلي.

جمعونا في غرفة كبيرة بعد أن مررنا على مسؤول الأمانات الذي سلّمنا نقودَنا وأغراضَنا الشخصيّة، وكانوا قد أخذوها منّا في اليوم الأوّل. ومن خلال الكلمات المتناثرة هنا وهناك فهمنا أنَّنا ذاهبون إلى سجن المزّة العسكريّ.

كنّا حوالى خمسة عشر رجلًا. تصفّحتُ الوجوهَ فلم أعرف أحدًا منهم؛ فنحن في الحقيقة حزبٌ سرِّيّ. في الزاوية، وخلف أحد الأشخاص، لمحتُ شابًّا منكمشًا على نفسه. ومن دون أن أراه تملّكني إحساسٌ بأنّني أعرفه. مع الحركة تقدّمتُ ببطءٍ صوبه. وكانت تلك هي المرَّةَ الثانيةَ التي أرى فيها عبد السلام.

كان يبدو عليه المرضُ الشديد، وكان أصفر الوجه، ويستند بكتفه وظهره إلى الزاوية، ويحاول جاهدًا الوقوف والتماسك. اقتربتُ منه وأمسكتُ ذراعه. وبصوتٍ خافتٍ قلت له:

ـ مرحبًا.

رفع رأسه ونظر إليّ بعينين متعبتين وتمتم:

ـ أهلين.

لم يبدُ عليه أنَّه تذكَّرني. وضعتُ ذراعه حول رقبتي وطلبتُ إليه الاستنادَ إليّ، ممسكًا إيّاه من خصره. تنهَّد ونظر إليّ مرّةً أُخرى نظرةً واهنةً ومستفسرة، فاختصرتُ الأمر وذكَّرتُه بنفسي: «أنت الرفيق مسؤول منظَّمة الشباب، ولقد اجتمعنا سابقًا في مقرّ جريدة الحزب. أنا الرفيق المسؤول عن تحرير الجريدة. هل تذكَّرتني؟»

أرخى جسده عليّ معبِّرًا عن ارتياحه:

ـ نعم... نعم تذكّرتُك.

وانبثقتْ في مخيّلتي صورُ الماضي القريب.

إنَّها الساعة العاشرة من صباح يومٍ كانونيّ بارد. كان قد مضى حوالى ثماني سنوات على انتسابي إلى منظَّمة شباب الحزب، التي أمضيتُ فيها أكثرَ من سنة ونصف، انتقلتُ بعدها لأصبح عضوًا كاملَ العضويّة في الحزب. تزامن ذلك مع دخولي كلِّيَّةَ الآداب في الجامعة، حيث أمضيتُ أربعَ سنوات، لأتخرَّج بعدها. ثم عملتُ لأقلّ من سنة في مؤسّسةٍ صحفيّةٍ حكوميّة، في الوقت الذي كنت أكتب فيه مقالاتٍ أسبوعيّةً لجريدة الحزب، أسلّمُها إلى مسؤولي الحزبيّ، الذي يسلّمها إلى مسؤوله الحزبيّ، الذي بدوره يسلّمها إلى مسؤوله الحزبيّ، لأراها بعد أسبوع أو أسبوعين منشورةً في الجريدة السرِّيَّة للحزب.

«بعد غدٍ لديكَ موعد في الساعة العاشرة صباحًا»، هذا ما قاله لي المسؤولُ الحزبيّ المباشر عنِّي. وبعد أن زوَّدني بالتعليمات ذهب ولم أره بعد ذلك أبدًا.

الثلج يغطِّي الطرقات وأنا أقف في المكان المحدَّد للموعد، حاملًا في يدي اليمنى كتابًا، وفي اليد اليسرى جريدةً وفقًا للتعليمات.

تتخدَّر قدماي من البرد، وأحاول تحريكهما. وبعد تأخير دام عشر دقائق يَحْضر شخص لا تَظهر منه إلَّا عيناه، يحمل كتابًا باليمنى وجريدةً باليسرى، ينطق كلمةَ التعارف وكلمةَ السرّ فأجيبه. يطلب إليَّ، بل يأمرني، بالمسير، من دون أن يعتذر عن التأخير.

على الثلج المتَّسخ والمتجمِّد نمشي حوالى ثلاث دقائق. نصل إلى بناية في وسط المدينة. يمسك يدي ويدلف بي إلى داخل البناية. ننزل إلى قبو البناية، فيواجهنا بابٌ وحيدٌ، ثُبِّتتْ عليه لوحةٌ بيضاء صغيرة كُتبتْ عليها عبارة «شركة التضامن».

خلف لوحة شركة التضامن، الكائنة في قبو البناية المؤلّفة من أربعة طوابق، والتي تُعتبر مركزًا للعديد من الشركات، مقرٌّ جريدة أكبر حزب معارض في البلاد. وطبعًا لا أحد يعرف النشاطَ «التجاريّ» لشركة التضامن!

في القبو الدافئ، وبعد أن تخفّفنا من أغطية الرأس والمعاطف، خرجتْ من الغرفة الداخليّة صبيّةٌ جميلةٌ وعلى وجهها ابتسامة:

ـ صباح الخير.

تقدَّمتْ وصافحتنا. كانت تلبس تنُورةً من المخمل الأسود، وكنزة سوداء سميكة. عرَّفني الرفيق أبو خالد إليها قائلًا:

ـ لميس... رفيقتك الوحيدة في العمل.

شربنا الشاي الساخن الذي أعدَّته لميس. أخذ أبو خالد ـ الذي عرفتُ من خلال الحديث أنّه عضوُ القيادة العليا والمسؤولُ عن الإعلام في الحزب ـ يشرح لي طبيعةَ العمل في الجريدة. ثم أراني المطبعة الصغيرة الموجودة في إحدى الغرف. وبعد كلّ مقطع من حديثه يعود فيؤكِّد:

ـ مقرّ الجريدة هذا سرِّيّ جدًّا، ولا يعرفه إلَّا ثلاثتنا؛ حتى الرفاق

في القيادة لا يعرفونه. يجب أن نحافظ على هذه السرِّيَّة من أجل أمننا وأمن الحزب، لأنَّ انكشافه سيوصلنا إلى كارثةٍ لا أحد يعرف نتائجها.

غادرنا أبو خالد مودِّعًا بعد أن أوصانا بالحرص والحذر. وقبل أن نجلس سألتني لميس:

ـ هل تريد كأسًا أخرى من الشاي؟

ـ نعم، شكرًا لك.

فيما كنت أشرب الكأسَ الثانية من الشاي وأدخِّن سيجارةً ممتعة، مضت لميس تحدِّثني بتلقائيّةٍ وبساطةٍ عن العمل المشترك الذي سنقوم به معًا.

ومضت الأيّام.

ووقعتُ في الغرام! إذ بعد حوالى أسبوعين أحسستُ أنّني من دون لميس لا أستطيع تكملة الحياة. كلَّ يوم وبعد انتهاء العمل ـ وكنّا نعمل بحسب دوام الشركات التجاريّة ـ أحسّ بالضياع لأنّني سأذهب إلى شقّتي الباردة ولن أرى لميس حتى صباح الغد. وفي المساء لا أستطيع ممارسةَ عادتي في القراءة والكتابة؛ كلُّ ما أستطيع القيام به هو التفكير بلميس. وفي الليل أعقد العزمَ على مصارحتها بحبّي وحاجتي إليها. أنام وأنا مليء بالإصرار، ويمضي الغدُ دون أن أجرؤ على التفوُّه بحرف واحد.

بعد أسبوعين آخرين، وكنّا منهمكيْن في وضع اللمسات الأخيرة على العدد الجديد من الجريدة الذي سيصدر في اليوم التالي، وضعتُ جانبًا ما كان بين يديّ، ووقفتُ متخشِّبًا وأنا أنظر إليها. استمرّ وقوفي أكثر من دقيقتين. انتبهتْ ونظرتْ إليّ مستفسرةً بعينيها الباسمتيْن، ودفعةً واحدةً قلتُ لها:

ـ لميس... هل تتزوّجينني؟

التفتتْ بكامل جسدها نحوي، وابتسامتُها العاديّة الصغيرة تكبر رويدًا رويدًا، ثم انطلقتْ بضحكةٍ مزلزلةٍ ارتجّ لها جسدُها الرشيق، وأخذت تتلوّى ضاحكةً وقد زمَّت عينيها. رفعتْ يدها اليمنى بإشارة تطلب فيها إليّ الانتظارَ قليلًا. وقبل أن تهدأ ضحكتُها تمامًا، قالت:

ـ اسمحْ لي بأن أدخل إلى الحمّام لأنّني أحسّ بأنّني سأتبوّل في ثيابي!

شعرتُ بإحباط وانزعاج شديديْن. إهانة لا تُغتفر! ونزّ جسدي عرقًا باردًا لزجًا. همدتُ على الكرسيّ كخرقةٍ بالية: ما هو المضحك في الأمر؟! أقول لها إنّني سأتزوّجك فتقول لي أريد أن أتبوّل؟! أليس من المعيب وقلَّة الذوق أن تقول امرأة إنّني أريد أن أتبوّل بالطريقة السوقيّة التي قالتها؟!

تأخَّرتْ كثيرًا في الحمّام، وأنا جالس على الكرسيّ مطرقَ الرأس أحسّ بارتخاء مفاصلي وعضلاتي. وبعد دقائق خلتُها طويلةً جدًّا فُتح بابُ الحمّام وسمعتُها تخرج. بقي رأسي بين كفّيَّ، ونظري مطرقًا إلى الأرض، ولكنْ بطرف عيني لمحتُها عندما اقتربتْ منّي، ولأوَّل مرَّة لاحظتُ أنَّ ابتسامتها قد خفتتْ. انتظرتْ قليلًا وسألتْ بلهجة المخطئ الذي يريد أن يعتذر:

ـ هل أنت مزعوج منّي؟

لم أجب بشيء، وخرجتْ منّي زفرةٌ لم أستطع منعها. رفعتُ رأسي ببطءٍ نحوها، ونظرتُ إليها نظرةً أعتقد أنّها كانت مليئةً بالمشاعر المتناقضة.

مشت قليلًا حتى أصبحت خلفي. وفجأةً شعرتُ بيديْها تتخلّلان شعري، فتسحبان رأسي إلى الوراء وتُسندانه إلى بطنها.

انقلبتْ مشاعري تمامًا: من الإحباط والبلادة والإحساس بثِقَل

الأعضاء، إلى الإحساس بالخفّة والطيران وانعدام الوزن. رفعتُ يديّ وأمسكتُ يديْها. قرّبتُهما إلى وجهي وأخذتُ أقبّلهما بالتناوب.

سحبتْ يديْها بهدوء ودارت لتجلس قبالتي. نظرتْ إليّ مبتسمةً لبضع ثوانٍ، ثم انفجرتْ بضحكةٍ صاخبة. انتظرتُ إلى أنْ هدأتْ تمامًا. وقبل أن أبادرها بالسؤال عن سبب كلّ هذا الضحك، قالت:

ـ لا تسألني شيئًا الآن؛ لدينا الكثير من الوقت لنتحدّث بكلّ شيء. دعنا الآن نعمل لأنّ الجريدة يجب أن تصدر غدًا، وبعدها نتفرّغ بعضنا لبعض!

بعد أربع ساعات من العمل الجادّ والصامت أصبحت الجريدة جاهزة.

ـ هل يمكن الآن أن تدعوني إلى السهرة والعشاء عندك؟

أغلقنا شركةَ التضامن وذهبنا إلى شقّتي الباردة، بعد أن اشترينا دجاجةً مشويّةً وزجاجةً كبيرةً من العرق.

لم نأكل ولم نشرب شيئًا. فبعد دخولنا إلى الشقّة وضعنا ما نحمل على الطاولة وغرقنا في قبلةٍ طويلة.

في الطريق إلى السرير ونحن متلاحمان ونعرّي بعضنا بعضًا في الوقت نفسه، تناثرتْ ثيابُنا في أرجاء البيت الصغير، إلى درجة أنّنا بعد ما يقارب الساعة، وعندما انتهينا وقد عضّنا الجوعُ، بدأتْ رحلةُ العودة والبحث عن الثياب. غير أنّها لم تستطع أن تعثر على حمّالة صدرها ـ وقد وجدتُها بالمصادفة بعد شهرين خلف المكتبة.

بعد أن بلغنا الذروة اجتاحني الإحساسُ بالنقاء والطهر، وتفجّرتُ حبًّا ودهشةً وسموًّا. أحببتُ العالم كلّه.

خلال تناولنا الطعام تكلّمنا كثيرًا. قالت إنّها لا تريد أن تتزوّج، وخصوصًا من رجلٍ مثلي. ضحكتْ بصخب وأردفتْ مازحةً:

- طموحي أكبر من نماذج كهذه.

وأشارت بإصبعها نحوي. وبشيء من الجدِّيَّة أفهمتني أنّها من حيث المبدأ لا تؤمن بالزواج لأنّه «مملّ ويقتل كلَّ الأحاسيس الجميلة...» ولذلك فإنّها إذا اضطرّت إلى الزواج فهي منذ الآن مصمّمة على خيانة زوجها، ولا تريد أن أكون الزوجَ المخدوع. وعن سؤالي عن ضحكها عندما طلبتُ إليها الزواجَ أجابت:

- لأنّ الفكرة مضحكة، ولأنّني أحبّ الضحك، ولأنّ منظرك كان «يفرّط» من الضحك.

الضحك والفرح والمزاح أشياء أساسيّة في شخصيّة لميس. فهي تحبّ الحياة وتُقْبل عليها بصدق ومن دون ادّعاءات كاذبة. ولكنّني دائمًا وأبدًا لا أعرف متى تكون جادّةً ومتى تكون مازحة.

- ألا يكفينا كلُّ ما يحيط بنا من غمٍّ وهمّ؟! دعنا نعشْ عمرَنا القصير ونحن فَرِحان.

كانت لميس حرّةً في حياتها، وكنتُ أنا أيضًا حرًّا. هي ابنةُ واحد من روّاد الفكر الاشتراكيّ في البلاد. في مرحلة شبابه أَسَرَتْه شخصيّةُ روزا لوكسمبورغ، وحاول أن يجعل من ابنته روزا أخرى، فعاشت معه في البيت، ولم تكن مسؤولةً أمام أحد عن أيّ شيء. أمّا أنا فقد وصلتُ إلى قطيعةٍ تامّةٍ مع أهلي قبل ذلك ببضع سنوات، فأقمتُ عند أحد الأصدقاء لفترة، إلى أن أصبح لديّ دخلٌ ماليّ أتاح لي استئجارَ هذه الشقّة الصغيرة.

تحوَّل العملُ في الجريدة إلى متعة يوميَّة. كنَّا وحدنا في القبو الذي لا يعرفه أحدٌ سوى «أبو خالد» الذي لا يزورنا أسبوعيًّا إلَّا مرّةً واحدةً للاتّفاق على مقالات العدد الجديد.

أخبرَنا أبو خالد في موعده الأسبوعيّ، وبعد أن انتهينا من

العمل، أنّه سيعود غدًا بصحبة الرفيق مسؤولِ منظّمةِ الشباب في الحزب لمناقشة بعض الأمور المتعلّقة بالجريدة.

دخل أبو خالد وبصحبته شابٌّ في مثل سنّي تقريبًا، وكانت المرّة الأولى التي أرى فيها عبد السلام آل الشيخ. صافحنا بهدوء وخجل، فرأيتُ حمرةً خفيفةً على خدَّيه، ولم أستطع تحويلَ أنظاري عن عينيه! فرغم صوته الهادئ المؤدَّب، فإنَّ عينيه كانتا مليئتين بالثقة والقوّة. وأمَّا جمالهما فلا أعتقد أنَّ رجلًا يملك مثلهما: عينان عربيَّتان أصيلتان، واسعتان من دون جحوظ، بياضُهما حليبيّ ناصع، وسوادُهما كالليل الداكن، يؤطّر كلَّ واحدةٍ صفّان من الرموش السوداء الطويلة المعكوفة النهايات، يعلوهما حاجبان مرسومان بدقّةٍ تحسده عليهما أجملُ الفتيات.

بضعُ ثوانٍ هي مدّةُ مصافحتنا وتعارفنا. وبصعوبةٍ أمسكتُ سؤالًا كاد يفلت منّي! كنتُ سأسأله إنْ كانت أهدابه وحاجباه طبيعيّةً أم لا. ولم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير: إذا كنت أنا الرجل قد فُتنتُ به إلى هذه الدرجة وأحسستُ نفسي أسبح في بحر عيْنيْه، فكيف حالُ النساء؟!

جلسنا. وبعد بضعة أسئلة تقليديّة عن الصحّة والعمل، أخرج من جيب سترته الداخليّ بضعَ أوراق مطويّة قام بفردها، وانطلق يقدِّم اقتراحاته المتعلِّقة بتحسين الجريدة على صعيدَي الشكل والمضمون. كانت كلُّ الاقتراحات جيِّدة، ما عدا اقتراحًا أو اثنين يتعذَّر الأخذُ بهما لعدم توفُّر الوسائل الفنِّيَّة اللازمة.

استغرقت الجلسةُ قرابة الساعة، وقد انتبهتُ عند نهايتها إلى أنَّ لميس تابعت الحديث وهي واقفة. وعندما أشرتُ لها بأن تجلس نظرتْ إليّ وتنهَّدتْ بقوّة ثم جلستْ على طرف الكرسيّ بحذر.

ودّعناهما حتى الباب. التفتُّ إلى لميس فرأيتُها تقضم أظافرها ونظرها إلى الأرض، وهي الحالة التي أعرف من التجربة والمعاشرة أنّها تكون حينها في قمّة توتّرها وجدِّيَّتها:

ـ ما بكِ؟

لم تجب. لم تنظر إليّ. مشت بخطوات بطيئة نحو الصالة من دون أن تكفّ عن قضم أظافرها، وانحطّت مرّةً واحدةً على الكرسيّ. رفعتْ رأسها نحوي بعد أن سحبتْ أصابعها من فمها ونظرتْ إليّ، فرأيتُ ظلّ ابتسامة في عينيها. ضحكتْ ضحكةً خفيفةً وقالت بهدوء باسم:

ـ الرجل المغناطيس هو الوحيد الذي سأوافق على الزواج منه. وإذا رضي أن يتزوّجني فلن أفكّر في الخيانة.

قلتُ باستغراب:

ـ ومن هو الرجل المغناطيس؟

ـ هذا الذي كان مع أبي خالد هنا.

ـ ولماذا سمّيتِهِ الرجلَ المغناطيس؟

ـ لأنَّه قادر على جذب أيَ امرأةٍ يريد.

نظرتُ إليها مليًّا وبعضٌ من مشاعر الغيرة اللاإراديّة تنتابني. ثم سألتُها:

ـ وهل جذبكِ إلى هذه الدرجة؟

ضحكتْ حتى دمعت عيناها وقالت بلهجة مازحة:

ـ كان هناك شيء بين فخذيّ لم يتوقّف عن الارتجاف وكأنّه يريد أن يقفز إلى حضنه.

سكتتْ وسكتُّ. وبعد قليل وقفتْ واقتربتْ منّي. التصقتْ بي

وقبّلتني على خدّي، ثم قالت وهي تبتعد:

ـ أرجو أن لا تغار! وفي كلِّ الأحوال هو لن يرضى بواحدة مثلي! ألم تلاحظ أنَّه لم يتنازل بإلقاء نظرة واحدة نحوي؟ لا تكن غبيًّا.

في الأيَّام التالية أصبح الموضوع مادَّةً للتندُّر بيني وبين لميس، وبخاصّةٍ بعد مجيء أبي خالد في اليوم الثاني للزيارة. وبعد حديث استمرّ أكثر من ساعة أصبحت الاقتراحاتُ التي قدَّمها عبد السلام هي من بنات أفكار أبي خالد، الذي أسرّ لنا بأنّ مسؤول الشباب في الحزب هو عبد السلام آل الشيخ. لم يكن الاسم يعني لنا شيئًا، لكنَّه أردف:

ـ هذا الشابّ ينتظره مستقبلٌ كبيرٌ في الحزب.

هززنا الرؤوسَ مجاملةً.

* * *

أحاول أن أسند عبدَ السلام، الذي يزداد ارتخاءً وثقلًا. أنظرُ إلى وجهه الناحل المصفرّ وهو مغمضُ العينين، وأحاول أن أقارنه بالصورة الأولى له عندما رأيتُه أوَّلَ مرَّة وحاولتْ لميس إثارةَ غيرتي وغيظي آنذاك؛ فما عدا الرموش السوداء المعكوفة النهايات فليس هناك أيُّ وجه شبه.

ساقونا إلى خارج البناء حيث تقف حافلةٌ عسكريّة. بعد بضع خطوات تَهالَكَ عبد السلام تمامًا، فاضطررتُ إلى حمله على ظهري كما يُحمل طفلٌ صغير. كان خفيفَ الوزن على نحو مدهش.

أجلسونا في منتصف الحافلة. خلفَنا وأمامَنا وعلى الأبواب جنودٌ مسلَّحون بالبنادق الآليّة. انطلقت الحافلة مخترقةً شوارعَ العاصمة. كان

الصباح نديًّا. أوراقُ الأشجار التي مررنا بجانبها تلمع خضرةً. بعد ربع ساعة تقريبًا من انطلاق الحافلة أخذتْ تصعد تلًّا بعيدًا عن العمران. على قمّة التلّة المنبسطة يقبع ثقيلًا سجنُ المزّة العسكريّ، الذي يعرفه كلُّ الناس ويخافونه أيضًا.

دارت الحافلة ربعَ دورة ووقفتْ أمام بوّابة السجن السوداء الكبيرة. نزل جنودُ المقدِّمة. تبعناهم ومن خلفنا الجنودُ الذين كانوا يجلسون في المقاعد الخلفيّة. أنا، وعبد السلام محمولًا على ظهري، كنّا آخرَ مَنْ ولج البوّابةَ. أحاط بنا عناصرُ الشرطة العسكريّة، الذين طلبوا منّا الوقوفَ في صفّ واحد. ومن إحدى الغرف التي تحيط بالساحة الصغيرة خرج مساعدٌ في الشرطة العسكريّة يحمل ورقةً، واقترب من صفّنا. بدا مخمورًا وعيناه جاحظتيْن. وقف أمامنا بجثّته الضخمة متمليًّا كلًّا منّا من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه. وبلهجةٍ مليئةٍ بالسخرية والاستهزاء، قال:

ـ أهلًا وسهلًا بالمناضلين الأشاوس.

تمشّى أمامنا بضع خطوات بشكل جانبيّ. وقف وطفق يلقي علينا التعليمات التي من الواجب التقيُّدُ بها في السجن. وفي النهاية رفع صوته وزأر:

ـ أمّا مَنْ يخالف هذه التعليمات... فسيَعرف عندها مَنْ هو المساعد أبو عماد.

ثم رفع يده ونظر في الورقة وسأل:

ـ من منكم عبد السلام آل الشيخ؟

تقدَّمتُ خطوةً ورفعتُ يدي لأتكلَّم. فبادرني:

ـ هل أنت عبد السلام الزفت؟

أجبتُه وأنا ألهث من جرّاء الحِمْل على ظهري:

ـ لا . . . ولكنْ هذا هو عبد السلام.

وأشرتُ بيدي نحوه. ثم أردفتُ:

ـ إنّه مريض وفاقدُ الوعي.

صمت المساعد قليلًا وهو ينظر نحوي. بدا وكأنَّه يلحظ لأوَّل مرَّة أنّ هناك شخصين يحمل أحدُهما الآخر. فكَّر قليلًا ثم التفت إلى عناصر الشرطة العسكريّة وأمرهم:

ـ خذوا الجميعَ إلى مهجع أوَّل سفلي، واتركوا المريض ومَن يحمله فقط.

بقيتُ واقفًا وحدي بعد أن ذهب الجميع. دخل المساعد إلى إحدى الغرف في زاوية الساحة البعيدة، وبعد خمس دقائق خرج ومعه شخص يلبس رداءً عسكريًّا أنيقًا. عندما اقتربا تبيَّنتُ أنَّه ضابط برتبة رائد. سألني بعد أن نظر إلى عبد السلام مليًّا:

ـ ما به؟ مِمَّ يشكو؟

ـ لا أعرف.

سكت ونظر إلى المساعد ثم التفت إليّ وسأل:

ـ هل أنت صديقه؟

ـ نعم.

ـ وهل أنت مستعدّ للعناية به إلى أن يشفى ثم ننقلك إلى المهجع ونضعك مع رفاقك؟ بصراحة، لدينا أوامر بوضعه في الزنزانة الانفراديّة.

ـ نعم.

التفت الرائدُ الأنيق نحو المساعد وقال:

ـ ضع الاثنين في السيلول رقم عشرة، وأَرسلِ الطبيبَ ليفحص المريض.

صرّ المفتاحُ في قفل الباب السميك للسيلول رقم عشرة، ومن دون أيّة كلمة أشار إليّ الجنديُّ بالدخول. دخلتُ، فأغلق الباب وذهب.

نظرتُ حولي في المكان الذي مساحته أربعة أمتار مربّعة تقريبًا، فرأيتُ في الزاوية كومةً من البطّانيّات العسكريّة الرماديّة. اقتربتُ منها، ووضعتُ عبد السلام على الأرض بهدوء. فرشتُ ثلاث بطّانيّات ثم حملتُه من جديد ومددتُه فوقها. فتح عينيه قليلًا. نظر إليّ ثم أغمضهما. جلستُ إلى جانبه وتفحّصتُ الزنزانة. في الزاوية الأخرى مصطبةٌ إسمنتيّةٌ يبلغ ارتفاعُها عشرين سنتيمترًا تقريبًا، في وسطها حفرةُ مرحاض، وإلى جانبها حنفيّةُ ماءٍ مثبّتة إلى الحائط.

جاء طبيبٌ شابّ يرتدي زيّ الشرطة العسكريّة ويضع شارةَ ملازم. فَحَصَ عبد السلام بهدوء ورسميّة. إلى جانبه طوال الوقت رقيبٌ يحمل كدسةً من المفاتيح الضخمة.

التفت الطبيبُ نحوي وشرح لي أنْ لا خطر في حال عبد السلام، وأنّه سيرسل لي نوعين من الأدوية وسيكتب عليهما طريقةَ الاستعمال. وأكّد ضرورةَ أن أسقيه الكثيرَ من السوائل لأنّه على وشك أن يُصاب بالجفاف. نظرتُ حولي في الزنزانة وسألته:

ـ ولكنْ كيف سأسقيه؟

التفت نحو الرقيب وطلب إليه إحضارَ كأس.

عندما ذهب الرقيب التفت الطبيبُ نحوي وسأل بسرعةٍ كمن يريد جوابًا سريعًا أيضًا:

ـ ما اسمُ هذا الشابّ المريض؟

ـ عبد السلام آل الشيخ.

كان يجلس القرفصاء إلى جانب عبد السلام. عندما سمع الاسم

هبَّ منتصبًا ووقف إلى جانب الباب، ثم أشار إليّ بإصبعه طالبًا منّي السكوتَ.

ناولني الرقيبُ الكأسَ البلاستيكيَّة، وأغلق الباب. سمعتُ صوت خطواتهما وهما يبتعدان. ولكنْ بعد حوالى ربع ساعة فُتح البابُ مجدَّدًا ودخلا السيلول. كان الرقيب يحمل العمودَ المعدنيّ الذي تُعلَّق عليه محفظةُ «السيروم». خلال عشر دقائق تقريبًا أخذ السائلُ ينساب في عروق عبد السلام، وبيدي علبتا دواءٍ مكتوب عليهما طريقة الاستعمال.

عند الظهر فُتح البابُ مجدَّدًا وظهر الطبيبُ، ومعه رقيبٌ آخر، وجنديٌّ يحمل قصعتين وضعهما على الأرض: في الأولى كمِّيّة من الأرزّ فوقها قطعتا دجاج، وفي الثانية مرقُ دجاجٍ أبيض. ثم وضع على إحدى البطّانيّات رغيفين من الخبز العسكريّ وبرتقالتين. انشغل الطبيب بالسيروم وفحص المريض. انسحب الجنديُّ خارجًا، بينما وقف الرقيبُ على الباب. قال لي الطبيب:

ـ انتبهْ جيِّدًا! عندما يبقى ما يساوي سنتيمترًا واحدًا في السيروم، عليكَ أن تدقّ البابَ وتطلب إلى الشرطة إبلاغي بالأمر. وإلى ذلك الحين حاولْ أن تطعمه بعضًا من مرق الدجاج هذا. ولا تنسَ أن تعطيه الدواءَ في مواعيده كما هو مكتوب، حتى لو اضطررتَ إلى أن تفتح فمه بالقوّة.

بعد ذلك أخرج محقانًا طبّيًّا «سيرنغ» وأدار عبد السلام على جنبه وحقنه الدواءَ.

استمرَّت غيبوبةُ عبد السلام ثلاثةَ أيَّام. الطبيب يزوره عدَّة مرَّات في اليوم. كنتُ أُسقيه ماءً ومرقًا بصعوبةٍ بالغة، والأصعب هو جعلُه يبتلع الدواء. غير أنَّني لم أضطرّ إلى تنظيفه مطلقًا ـ فهو لم يتبوَّلْ أو

يتبرَّزْ طوال الغيبوبة. وقد فسَّر الطبيبُ ذلك بأنَّ جسده خالٍ من المأكولات أو المشروبات.

في اليوم الثالث اختار عبد السلام الاستيقاظَ من غيبوبته في لحظة محرجة، إذ كنت أقرفص على المرحاض المكشوف، بعد مغص ومعاناة شديدة نتيجةً للعشاء الذي تناولتُه في الليلة الماضية ـ شوربة العدس. وفجأةً بدأت الانفجاراتُ والروائحُ تملأُ السيلول. لحظتَها فَتح عبد السلام عينيه ونظر إليّ ببلاهة. فاجأتني نظرته، فكتمتُ لاإراديًّا أنفاسي وانفجاراتي، آملًا أن يغمض عينيه ثانيةً. لكنَّه بدأ يرفع رأسه قليلًا قليلًا والنظرةُ البلهاءُ نفسُها مرتسمةٌ على وجهه! لم أعد أستطيع الاحتمال. خرجتْ من صدري زفرةٌ قويّةٌ وأفرغتُ ما في أمعائي دفعةً واحدة. عندها سأل:

ـ أين أنا؟ ومن أنت؟

كنتُ محرجًا ومغتاظًا في آن. أشرتُ بيديّ إليه، وإلى عضوي التناسلي المتدلّي بين فخذيّ فوق حجر المرحاض وفي مواجهته تمامًا، وقلتُ بحدّة:

ـ هل ترى هذا الوضع مناسبًا للأسئلة والحوار؟!

نظر في عينيّ لبضع ثوانٍ ثم رفع يده راسمًا نصف دائرة في الهواء دلالةً على عدم الاهتمام. وببطء شديد أشاح بوجهه عنّي بعد أن رأيتُ شبحَ ابتسامةٍ في زاوية فمه الجافّ.

جلستُ إلى جانبه بعد أن انتهيتُ واغتسلتُ. اعتدل في جلسته وساعدتُه على إسناد ظهره إلى حائط السيلول، وابتدأ الحديث.

ذكَّرتُه بنفسي مجدَّدًا، ورويتُ له رحلتنا القصيرة من مركز الأمن إلى هذا السيلول في سجن المزَّة العسكريّ؛ قصّة مرضه وغيبوبته، واضطرار مدير السجن إلى وضعي معه في السيلول نفسه من أجل

الاعتناء به أو كما قال مدير السجن:

ـ إذا مات فسيقولون إنّنا نحن الذين قتلناه!

عندها نظر إليّ مباشرةً، وبوهن شديد قال:

ـ هذا يعني أنّك قد أنقذتَ حياتي. شكرًا لك.

بعد ثلاثة أيّام من صحوته استعاد صحّته وأصبح يأكل بشكل عاديّ. لم يعد طبيب السجن إلى زيارتنا. وأوّل مشكلة واجهتنا كانت مشكلة المرحاض؛ فالسيلول مخصّص في الأصل لشخص واحد، ولا يُستخدم إلّا لغرض عزل السجين عن رفاقه عقابًا أو خشيةً من تأثيره في الباقين. ولكنْ أن يكون اثنان داخل السيلول فهذا يعني أنَّ على كلٍّ منهما أن يقوم بأكثر الأشياء سرّيّةً وحميميّةً أمام أنظار الآخر، وأن ينشر روائحَه تحت أنفه أيضًا. وقد علّق عبد السلام على هذا الأمر ضاحكًا:

ـ حتى الزوج والزوجة، عندما يدخل أحدهما المرحاضَ يغلق الباب دون الآخر؛ فالمرحاض مكانٌ للاختلاء بالنفس.

واتّفقنا على أن يدير كلٌّ منّا ظهرَه للمرحاض حتى ينتهي الآخرُ من عمليّة إفراغ أحشائه.

استمرَّ وجودُنا في الزنزانة أربعة أشهر وثلاثة عشر يومًا، لم نفعل خلالها سوى الكلام. وبعد أسبوع أو أكثر بدأنا نتكلّم حتى أثناء وجود أحدنا فوق المرحاض. في بعض المرّات كان الكلام يجرفنا وينسى مَنْ على المرحاض أنّه قد انتهى منذ زمن.

حدَّثتُه عن حياتي، عن لميس، وعن أهلي، وعن دراستي وتخرُّجي، عن انتسابي إلى حزب، وعن طموحي أن أكون الصحفيَّ الأوَّل فيه، عن حلمي في كتابة رواية واحدة على الأقلّ. وحدَّثني عن أهله ـ وإنْ باقتضاب كما سوف أكتشف لاحقًا ـ وعن الفتاة ذات

الشخصيّة الخارقة والجمال المذهل ـ كما قال؛ كان يعشقها، وأحسستُ أنَّه كان يتلذّذ في وصفها. وحدّثني باختصار عن الفتاة اليوغسلافيّة، التي هي ابنةُ عمِّه بشكلٍ ما، وكيف أنّه اكتشف معها سرَّ الجنس ودهشتَه.

بعد شهر تقريبًا من تعافي عبد السلام من مرضه عاد إلى وضعه الطبيعيّ، وإلى الشكل الذي جعل لميس في ذلك اليوم البعيد تُغرم به. حينها غفرتُ للميس كلَّ كلامها، الذي ظننتُ أنّها تريد به إثارةَ غيرتي وإغاظتي؛ فلقد أُغرمتُ به أنا أيضًا.

ولأنّه لا أسرار مطلقًا بين سجينين توطّدتْ أواصرُ الصداقة بينهما، فقد حكينا أدقَّ خصوصيّاتنا الشخصيّة والعائليّة. وعندما حدَّثتُه عن إعجاب لميس به يوم زارنا، وعن إعجابي به أنا أيضًا، تحوّل الأمرُ كلّه إلى مزاح: قهقه بصخبٍ، وأمسكني من كتفي، ثم نظر إليّ وبقايا الضحك عالقةٌ في عينيه وفمه. قال:

ـ أن تعجب لميس برجل فهذا أمر طبيعيّ، أمّا أن تعجب أنتَ برجل فهذا غيرُ مفهوم لي! هل أنت شاذّ؟

ابتدأتُ أضحك بدوري وأجبتُه بالنفي. أخذ يمسّد شاربيْه بأصابع يده اليمنى، ثم رفع يده عنهما وزفر زفرةً طويلة. والتفت إليّ وأخذ يتكلّم بهدوء شديد:

ـ لقد سبق أن أخبرتكَ أنّني الابنُ الأكبر للشيخ عبد الهادي آل الشيخ. ولأنّني كذلك فقد عشتُ تقريبًا من دون أيِّ صديق، إذ كان يتمّ إعدادي لأكون خليفتَه، بحسب ما جرت العادةُ من مئات السنين. ولكنْ عندما صرتُ في الخامسة عشرتْ أمّي على طفل نائم على قارعة الطريق المؤدّي إلى الحمّام التركيّ الخاصّ بنساء آل الشيخ، فأيقظتْه وسألتْه عن سبب نومه هناك وابن مَن يكون... لكنّه لم يردّ عليها.

ظنّت أنّه أخرس، ولكنْ تبيَّن لاحقًا أنّه لا يتكلّم العربيّة لأنّه تركيُّ الأصل. وقد حاول والدي في الشهور اللاحقة العثورَ على عائلته في المدينة التركيّة التي تبعد عنّا بضعة كيلومترات، ولكنْ ذهبتْ جهودُه عبثًا. هذا الطفل، الذي اسمُه أصلان، تربَّى وترعرع بيننا، وكان صديقي الوحيد في الحياة، ولكنَّه بالنسبة إليّ أخٌ أكثر منه صديقًا. أمّا الآن، وخلال هذين الشهرين اللذين عشناهما معًا، فقد عرفتُ معنى أن يكون لديك رفيق أو صديق حقيقيّ.

سكت قليلًا وكأنَّه أحسّ أنّه قد أفرط في إبداء مكنونات نفسه العاطفيّة. استأنف حديثه بلهجة باسمة:

ـ اسمعْ! لأوَّل مرّة في حياتي أقترب من شخص إلى هذه الدرجة. أعتقد أنَّنا صديقان وسنبقى صديقين بعد خروجنا من هذا السجن اللعين. ومادمتَ مقاطعًا عائلَتَك فإنّني أقترح أن تسافر معي صوب الشمال. قد أستطيع أن أساعدك قليلًا في تحقيق بعض أمنيات حياتك! فما رأيك؟

ـ موافق، ولكنْ بعد أن ألتقي لميس.

وتعاهدنا على الصداقة كما يتعاهد شابّان في العشرينيّات من عمرهما.

وتشعَّب الحديثُ بيننا عن المستقبل ومخطَّطاتنا لهذا المستقبل، وعن حبيبته، أو الفتاة الخارقة الجمال والذكاء كما يسمِّيها، وهي فتاة أرمينيّة الأصل هاجر أجدادُها إلى هنا بعد المذابح الشهيرة التي حلَّت بالشعب الأرمينيّ في بدايات القرن العشرين. وتحدَّثتُ عن الحياة البائسة التي عشتُها فترةً من الزمن نتيجةً للعوز الماليّ، وكيف اضطررتُ إلى العمل ليلًا في غسل الصحون داخل نادٍ ليليّ من أجل إكمالِ دراستي والذهاب إلى الجامعة نهارًا. هنا أمسكني من يدي وقال:

ـ ليكن المالُ آخرَ همومك. لو تعلم كمِّيَّة الأموال التي لدينا لذُهلتَ. أستطيع أن أطمركَ بالمال!

قال هذا بحماسةٍ لم أعهدْها به، ولكنْ لم يكن فيها أيُّ أثرٍ للتشوُّف.

مدير السجن يبدو أنَّه قد نسي كلامه بشأن نقلي إلى المهجع الجماعيّ فور شفاء عبد السلام من مرضه، وأنا أيضًا لم أشأ أن أذكّر أحدًا بذلك. ولذلك بقينا معًا أربعة أشهر وثلاثة عشر يومًا. في اليوم الأخير، وبينما كنت مستغرقًا في النوم بُعَيْد منتصف الليل، استيقظتُ على صوت حديث يجري بين رجلين، ففتحتُ عينيّ قليلًا. رأيتُ شيخًا وقورًا ذا لحيةٍ مائلةٍ إلى البياض ومشذَّبة بعناية، يرتدي ثيابًا بيضاء، ويضع على كتفيه عباءةً سوداء. كان الشيخ يتحدَّث إلى عبد السلام بهدوء شديد. نظرتُ في وجهه فرأيتُ عينيه العميقتين اللتين تشبهان كثيرًا عينيْ عبد السلام. وما إن اعتدلتُ قليلًا في جلستي حتى رفع يده ووضعها على رأسي وقال بما يشبه الهمس:

ـ ارجع إلى النوم يا ولدي لأنَّكم ستخرجون من السجن غدًا إنْ شاء الله.

غرقتُ في نوم عميق؛ فقد كان ليده مفعولُ السحر.

عندما استيقظتُ صباحًا وجدتُ عبد السلام صاحيًا، فبادرتُه فورًا:

ـ مَن الشيخ الذي كان هنا في الليل، وكيف دخل؟

نظر إليّ باستغراب حقيقيّ، وردّ متعجّبًا:

ـ عن أيّ شيء تتكلَّم؟

ـ الشيخ ذو الثياب البيضاء الذي كنت تتحدَّث إليه البارحة ليلًا!

ضحك قليلًا وقال متسائلًا:

ـ أأنت جادّ أمْ تمزح؟

سردتُ عليه ما رأيته البارحة. إلّا أنّه لوّح بيده في الهواء وقال:

ـ إنّها أضغاثُ أحلام يا صديقي.

كنت أريد متابعة الحديث لأنّني متأكّد ممّا رأيتُ وسمعتُ. ولكنّ باب الزنزانة فُتح وأطلّ المساعد أبو عماد. نظر إلينا لثوانٍ وقال:

ـ اجلبا أغراضَكما وتعالا.

مشى أبو عماد أمامنا عبر ممرّات السجن، إلى أن وصلنا إلى الساحة الرئيسة التي تحتوي على بعض الأشجار والنباتات. هناك رأينا الكثيرَ من السجناء وقد تجمّعوا في القسم البعيد من الساحة، فانضممنا إليهم ووقفنا ننتظر. عشرات من السجناء انضمُّوا إلينا خلال ساعة من الانتظار. وبعد أن توقّف ورُودُ السجناء تقدّم نحونا عناصر من الشرطة العسكريّة ووقفوا أمامنا باصطفافٍ عسكريّ.

فُتح بابُ إحدى الغرف في الجهة المقابلة وخرج شخصٌ طويلٌ. اتّجه نحونا، يتبعه مديرُ السجن وبعضُ الضبّاط. عندما اقترب منّا، سرى همسٌ بين السجناء:

ـ إنّه الرئيس. . . إنّه رئيس الجمهوريّة!

وقف أمامنا على بعد بضعة أمتار وأخذ يُجيل بصرَه على وجوه السجناء. كان يرتدي بزّةً عسكريّةً رماديّة، وقد أرخى السترة فوق البنطال. تبدو البزّة أنيقةً على جسده الأقرب إلى النحافة. لم يكن يرتدي حذاءً إنّما صندلًا بإصبع. شعرُه أبيض تمامًا، وقد صُفِّف بعناية. زمّ عينيْه قليلًا من وهج الشمس، ثم رفع يده اليمنى ورسم دائرةً كبيرةً، شاملًا بالإشارة هذه جميعَ السجناء الواقفين أمامه. وبصوتٍ عالٍ قال:

ـ هل أنتم مَنْ يريد إسقاط سلطتنا؟!

سكت قليلًا وبدت لهجةُ السؤال الذي طرحه أقربَ إلى الاستهزاء. تابع بالنبرة نفسها:

ـ نحن لا نخاف منكم. الآن سنَفتح لكم الأبوابَ ونطلق سراحكم. اذهبوا إلى بيوتكم وعائلاتكم، وإيّاكم أن تعودوا إلى لعب الأولاد هذا. سلطتنا قويّة وباقية إلى الأبد، ولن تستطيع شراذمُ صغيرةٌ مثلكم أن تهزّها أو تؤثّر فيها.

سكتَ لفترة، حتى بدا كأنَّه انتهى. لكنَّه عاد إلى رفع يده اليمنى وقال:

ـ أُعيد وأُكرِّر... إنّنا لا نخاف منكم. ومن يريد منكم أن يقتلني فإنّني سأطلب من مدير السجن أن يعطيه بندقيّة الآن ولينتظرني في أسفل الطريق ويقتلني عند عودتي.

ثم التفت قليلًا نحو مدير السجن وقال له:

ـ مَنْ يطلب منك بندقيّةً أعطِه. والآن افتحوا الأبوابَ وليذهبْ جميعُ هؤلاء إلى أهاليهم.

فُتحت البوّابةُ السوداءُ الكبيرة وبدأ السجناءُ بالخروج. وقد سَمع مَن كان منهم في الصفوف الخلفيّة مديرَ السجن يقول لمعاونه:

ـ هذا أغربُ إخلاءِ سبيلٍ رأيتُه في حياتي!

## (٢)

غرقنا في أفكارنا ونحن ننزل المرتفعَ الذي يقبع فوقه السجن. كان طريقًا ملتويًا قليلًا. وبعد قرابة عشر دقائق وصلنا إلى أوّل شارع من شوارع دمشق. التفت إليّ عبد السلام وقال:

ـ علينا أن ننجز بعضَ الأمور، ثم نرى كيف سنبحث عن لميس.

وافقتُه وتوغّلنا في الشوارع، إلى أن رأينا سيّارة أجرة، فأشار إليها بالتوقُّف. صعدنا في المقعد الخلفيّ وأعطى السائق اسم قرية قريبة جدًّا من العاصمة. استغرقت الرحلة أكثر من نصف ساعة. عندما وصلنا أشار عبد السلام إلى منزل كبير يقع في آخر الشارع، ومن خلفه بساتين وأشجارٌ كبيرة.

نزلنا أمام المنزل وقادني إلى غرفة كبيرة تقع إلى جانبه ومستقلّة عنه. كان باب الغرفة مفتوحًا على مصراعيْه. دفعني بهدوء لأدخل قبله، فدخلتُ بعد أن مررتُ فوق عشرات الأحذية المصفوفة أمام الباب. خلال ثانية واحدة شملتُ الغرفةَ كلّها ببصري: الأرض ممدودة بالسجّاد، وعشراتُ الرجال الذين يرتدون الثيابَ البيضاءَ يجلسون على الأرض بمحاذاة الجدران ويستندون على الوسائد. في صدر الغرفة مصطبةٌ مرتفعةٌ قليلًا، وقد مُدّ فوقها فراشٌ سميك، يجلس عليه شيخٌ

ذو مهابة، يشبه قليلًا الشيخَ الذي رأيتُه في السيلول، لكنّ لحيته ما زال يغلب عليها الشعرُ الأسود. كان يتكلّم عندما دخلتُ، ثم سكتَ عندما رآني وتطلّعتْ إليّ كلُّ العيون.

أحسستُ بيد عبد السلام تدفعني جانبًا لأنّني قد سددتُ البابَ عليه بجسدي. انحرفتُ إلى اليسار قليلًا، فدخل بخفّة. وبصوتٍ عالٍ قال:

ـ السلام عليكم.

هبّ الجميع واقفين عندما رأوه. توجّه فورًا نحو الشيخ الجالس على المصطبة. تعانقا وقبّل كلٌّ منهما رأسَ الآخر. عندما أفلته الشيخُ استدار وأخذ يسلّم على الرجال فردًا فردًا. كان الجميع، بعد أن يصافحوه، ينحنون ويقبّلون يده. وبعد برهة، وهو يتنقّل من رجل إلى آخر، أصبح بجانبي حيث تسمّرتُ منذ لحظة دخولي، ومن بين أسنانه قال لي:

ـ اتبعني وسلّمْ على الناس.

مشيتُ خلفه وابتدأتُ أسلّم على الرجال، حتى وصلنا إلى الشيخ مرّةً ثانيةً فصافحتُه، وعرّف الشيخ بي وهو يضع يده على كتفي:

ـ هذا يا شيخ أخي الجديد.

رحّب بي الشيخُ كثيرًا، وأجلسنا إلى جانبيْه، ومضى يسأل عن الظروف التي عشناها في السجن، فيُجيبه عبد السلام إجاباتٍ عامّة. وبعد أقلّ من ساعة شربنا خلالها القهوة العربيّة أربعَ مرّات، مال عبد السلام صوب الشيخ وهمس في أذنه شيئًا. ابتسم الشيخ ومدّ يده إلى تحت الفِراش الذي يجلس عليه، فأخرج رزمةً من الأوراق النقديّة وأعطاها عبد السلام، ثم التفت إلى أحد الجالسين وأشار إليه بيده ـ كان شابًّا في مثل عمرنا تقريبًا. هبّ الشابّ واقفًا واقترب من الشيخ

الذي بادره بالقول:

ـ هاتِ الشيڤروليه.

انطلق الشابّ كالسهم. بعد دقائق عاد وأعطى الشيخَ مفاتيحَ السيّارة، فأعطاها بدوره عبدَ السلام، الذي نهض، فنهض كلُّ مَنْ في المجلس. استأذن بالانصراف وودّعناهم. عند خروجنا رأيتُ سيّارة شيڤروليه حمراء. صعد إليها عبد السلام وجلس خلف المقود، وانطلقنا مرَّةً أخرى نحو دمشق، بعد أن لوَّح الرجال الذين خرجوا جميعًا لوداعنا.

عشرات الأسئلة كانت تدور في رأسي فيما السيّارة منطلقة صوب المدينة. لم أكن أعرف إنْ كان يجب أن أسألها أمْ لا. لكنّه استدار نحوي وسألني:

ـ فيمَ تفكِّر؟

ـ أفكِّر في ما أراه. مَنْ هم هؤلاء الرجال؟ مَنْ هو هذا الشيخ الملتحي؟ لماذا قبّل الجميعُ يدك عندما سلَّموا عليك؟ وهناك ألف سؤال أيضًا أرجو أن تجيبني عنها بصراحة.

ضحك ضحكةً رنّانةً وقال بصوت واثق ومرح:

ـ يا أخي، لقد سبق أن أخبرتك أنّني ابن الشيخ عبد الهادي آل الشيخ، وأنّني خليفته. وهذا الشيخ الملتحي هو ابن عمّ والدي، والرجال هم أقرباؤه أو من مريديه وتلاميذه.

ـ ولكنْ هناك آلافُ المشايخ ورجال الدين، ولم أرَ أحدًا يقبِّل الأيدي مثلما قبّلوا يَدَك.

أمسك كتفي وهزّني بودّ قليلًا ثم قال بهدوء:

ـ يا سيِّدي، نحن أحفاد الصحابيّ خالد بن الوليد «سيف الله

المسلول». والآن، بعد أن ننتهي من قصّة لميس، سنذهب إلى حلب وأقصّ عليك خلال الطريق بعضًا من تاريخنا المليء بالمذابح والمآسي.

وبلامبالاة مدّ يده إلى مذياع السيّارة وأخذ يتنقل بين المحطّات، إلى أن استقرّ على محطّة الإذاعة البريطانيّة ـ لندن، واستمعنا إلى نشرة الأخبار.

دخلتِ السيّارةُ شارعًا في أحد الأحياء الشعبيّة المتربة. فتح الباب ونزل.

ـ لن أتأخّر.

ذهب إلى الجهة المقابلة من الشارع وطرق أحد الأبواب. صافح الشخص الذي فتح له. غاب حوالى ربع ساعة، ثم عاد وجلس خلف المقود. التفت نحوي وسأل:

ـ هل أنت متأكّد أنَّ اسمها لميس؟ ألا يمكن أن يكون هذا اسمًا حركيًّا؟ لأنَّهم ببساطة لا يعرفون واحدة اسمها لميس!

سكتُّ. لم يخطر في بالي هذا الأمر، مع أنّه من الطبيعيّ جدًّا أن يتعارف أعضاءُ الحزب بالأسماء الحركيّة. ولكنْ، هل هذا معقول؟ أن أعيش قصّةَ حبٍّ مع امرأة طوال هذه المدّة وأنا لا أعرف اسمَها الحقيقيّ!؟

كان ينتظر جوابي وهو يحدِّق بي، فأشرتُ له بيدي أنّني لا أعرف. أدار محرِّكَ السيّارة وانطلق بها عائدًا من الطريق الذي جئنا منه. قال:

ـ مشوارنا طويل قد يستغرق ساعة، ولكن أعتقد أنَّه سيكون مجديًا.

بعد أكثر من نصف ساعة توقّف أمام بناية من أربعة طوابق، ومثلَ

المرَّة السابقة قال إنّه لن يتأخّر. ثم عاد والابتسامة تملأ وجهه. جلس خلف المقود. اقترب منّي بكامل جذعه، وقال:

ـ نعم يا سيِّدي، اسمُها الحقيقيّ لميس. لكنَّها سافرتْ. فبعد اعتقالك مباشرةً، ومن باب الحيطة، قرّر الحزبُ أن يرسلها للدراسة في موسكو. هي الآن هناك يا صديقي، وهذا يعني أربعَ سنوات أو خمسًا. فهل تستطيع الانتظار كلّ هذه المدّة؟

سكتنا قليلًا. سألني بصوت خافت إنْ كنتُ حزينًا؟ لا أعرف مشاعري الحقيقيّة! أردت فقط أن تنطلق السيّارة. التفتُّ إليه وقلت:

ـ ألن نذهب إلى حلب؟

ضحك وشغَّل المحرِّك وانطلقت السيّارة ونحن ساكتان.

لم يكن النهار قد انتصف بعد. نصف نهار مليء ومرهق. قلت لنفسي: من زمن الزنزانة الرتيب والهادئ إلى الساعات الفائتة بما حملتْه من أحداثٍ وخضّاتٍ قويّةٍ ومشاهدَ غريبةٍ أنتظر أجوبةً عليها.

بطرف عيني نظرتُ إلى صديقي الذي عرَّفني إلى ابن عمِّه على أنّني أخوه الجديد. كان منهمكًا في قيادة السيّارة التي بدأتْ بمغادرة المدينة إلى عاصمة الشمال: حلب.

ـ أمامنا أربع ساعات أو خمس من السفر. هل سنسكت طوال الطريق؟

بهدوء شديد، أجبتُه:

ـ طبعًا لا، فنحن لم نفعل شيئًا منذ تعارفنا غيرَ الكلام، ومن المستحيل أن نسكت الآن. ولكنْ أنتظرُ أن تحدِّثني عنك وعن عائلتك، أن تجيبني عن الأسئلة التي وعدتني بالإجابة عنها. تقول إنَّكم أحفادُ خالد بن الوليد. ولكنْ حسب علمي لم تبق لخالد ذرِّيّة.

خفَّف قليلًا من سرعة السيّارة والتفت إليّ نصفَ التفاتة. قال:

ـ هل تركيزك على هذا الموضوع دافعُه فضولُ الكتّاب والصحفيين، أمْ كونك صديقي وتريد أن تعرف المزيدَ عنِّي؟

ـ افترض أنّهما الأمران معًا.

ضحك ونظر في عينيّ نظرة خاطفة. ثم سأل بلهجة أقرب إلى الاستغراب:

ـ هل تريد أن تجعل من عائلتي موضوعًا لروايتك التي تحلم بكتابتها؟

ـ الحقيقة أنّني لم أفكِّر هكذا. ولكنْ إذا كان الموضوع ملائمًا ويستحقّ العناء، فلا أعتقد أنّك ستمانع.

لقد جاء كلامُه عن الرواية عفويًّا، ولكنِّي وجدتُها فكرةً عظيمة. لِمَ لا؟!

قطع الصمتَ بقوله:

ـ ألست جائعًا؟ نحن لم نأكل شيئًا منذ الصباح. أعرف مطعمًا على الطريق يقدِّم طعامًا جيِّدًا. نحتاج إلى ربع ساعة حتى نبلغه. ما رأيك في أن نتحدَّث عنك أنت الآن، ونؤجِّل حديث التاريخ والعائلة؟

ـ ولكنَّك تعرف عنِّي كلّ شيء.

ـ لا أريد أن أتحدَّث عن الماضي ـ فهذا أعرفه. أريد أن أتحدَّث عن المستقبل. ماذا ستعمل؟ كيف ستعيش؟ هل أنت جادٌّ في أنّك تريد أن تصبح كاتبًا؟

كانت هذه بالتحديد الأسئلةَ التي أحاول ألّا أطرحها على نفسي. ولذلك أجبته بلهجة قاطعة:

ـ لا أعرف. لا أعرف.

استغرق في تفكير عميق. بعد دقيقتين أو ثلاث، وبأكثر الأساليب لباقةً ونعومةً، قدّم إليّ عرضَه الكبير: أن أتفرَّغ للكتابة والصحافة، على أن يتكفَّل بتغطية جميع حاجاتي.

كان عرضًا مفاجئًا ومغريًا، إذ طالما حلمتُ أن أتحرّر من العمل تحت ضغط الحاجة الماديّة وأن أعيش الحياة حتى أستطيع أن أكتب عنها. سألتُه:

ـ لماذا تقدّم لي هذا العرض الأكثر من كريم؟

ـ لسببين: الأوّل لأنّك صديقي الوحيد... أو أخي الجديد. والثاني لأنّ ما سأقدّمه إليك يُعتبر غيرَ ذي قيمة قياسًا بما نملك.

ـ ولكنْ لا أستطيع قبولَ العرض. شكرًا لك على كلّ حال.

كنّا قد وصلنا أمام المطعم. أوقف السيّارةَ ولم ينزل. استدار نحوي وأخذ يحاول إقناعي. لم يتركني إلّا بعد أن وعدته بأن أفكّر بالموضوع جدّيًّا.

جلسنا إلى طاولة في المطعم الصغير، وعلى وجهه ابتسامةٌ ودودةٌ وهو يحدّق بي. وبعد أن طلبنا لحمًا مشويًّا استند بظهره إلى الكرسيّ وعقد يديه على صدره. كبرت الابتسامة عندما قال:

ـ والآن يا صديقي ماذا تريد أن تعرف؟

أجبتُه بحماسٍ وفضول:

ـ كلّ شي عنك وعن عائلتك.

ـ يا إلٰهي! هذا موضوع كبير عمرُه أربعة عشر قرنًا، وكلّ قرن يحتاج الحديثُ عنه إلى سنة.

ضحك بصخب واستأنف:

ـ إنّ أفضلَ من يتحدَّث عن هذا الموضوع هو والدي الشيخ عبد

الهادي. والدي الآن عمره قرابة الستّين عامًا، وقد درس في مصر، وحاز شهادتيْ دكتوراة: واحدة في الفقه الإسلاميّ، والأخرى في التاريخ العربيّ الإسلاميّ. وقد أمضى تسع سنوات في الخلوة يدرس ويتأمّل.

ـ وما هي الخلوة؟

ـ ستراها عندما نصل إلى الديار. هي صومعة تبدو صغيرةً من الخارج، ولكنّها واسعة من الداخل. مفتاحها خاصّ جدًّا، ويكون دائمًا عند الشيخ الكبير أو خليفته. وهي مخصّصة لهما فقط؛ إذا أراد أيٌّ منهما الدخولَ للاختلاء بالنفس والتأمّل، فإنّه يدخل ويغلق البابَ على نفسه من الداخل، ولا يخرج قبل انقضاء عام كامل على الأغلب.

ـ عام كامل؟ وماذا يأكل أو يشرب؟

ـ داخل الخلوة نبعُ ماءٍ صغير، يخرج من تحت أحد الجدران الحجريّة، لا يعرف أحدٌ من أين يأتي أو إلى أين يذهب. والطعام؟ لا يأكل إلّا التمر، أربع تمرات في كلّ وجبة. ودائمًا يوجد في الخلوة ما يكفي عامًا كاملًا من التمر.

ـ هذا تجويع! تعذيب للنفس!

لم يجب إلّا بالابتسام؛ فقد جلب لنا عاملُ المطعم ما طلبناه من طعام. أشار عبد السلام بيده إلى اللحم المشويّ وقال لي:

ـ لنأكل الآن، هذه أول وجبة لنا خارج السجن، أوّل وجبة حقيقيّة منذ مائة وثلاثة وثلاثين يومًا.

شربنا الشاي بعد الطعام وتحرّكت السيّارةُ صوب الشمال. أحسستُ بالارتخاء قليلًا بعد هذه الوجبة. لكنّ عبد السلام، وكأنّه يحدّث نفسه، قال:

ـ والدي قليل الكلام عمومًا، ولكنّني تعلَّمتُ منه الكثير. قال لي مرَّةً: إنّ تسمية الفترة التي سبقت الإسلامَ في مجتمع شبه الجزيرة العربيّة بـ «الجاهليّة» خطأٌ كبير، لأنّ هذا المجتمع كان قد بلغ درجةً متقدِّمةً من الحضارة والرقيّ، وكان لا بدّ من قيام الدولة لأنّ جميع مكوِّناتها قد تهيَّأتْ.

قاطعتُه سائلًا:

ـ هل هذا يعني أنَّ الدولة في شبه الجزيرة العربيّة كانت ستقوم وإنْ لم تكن هناك دعوة إسلاميّة؟

ـ نعم... وهو يقول إنّ ما أخَّر قيامَ الدولة هو التنافس الشديد بين زعامات قريش، خصوصًا بين العائلات الثلاث، بني هاشم وبني أُميّة وبني مخزوم؛ فكلٌّ طرفٍ كان يطمح إلى الملْك والسيادة. وكان الأوفر حظًّا ـ من وجهة نظري ـ هو جدِّي الوليد بن المغيرة المخزومي، وهو والدُ خالد بن الوليد؛ فقد كان يُعتبر سيِّدَ قريش والأكثرَ مالًا وذرِّيَّةً ـ وهما عماد القوّة في مجتمعٍ كهذا. وكان يُسمّى «ريحانة قريش»، وقد استنكر نزولَ الدعوة على محمّد بدلًا منه، لأنَّه رأى نفسَه أحقَّ بالدعوة من ذلك اليتيم الفقير الذي يعيش على أموال زوجته والمدعوّ محمّد بن عبد الله.

التفت إليّ التفاتةً سريعةً وعلى وجهه أماراتُ الجدِّيّة. قال:

ـ مرَّة قال لي والدي إنّ كلّ الصراعات التي جرت بين العرب والمسلمين امتدادٌ لذلك الصراع في قريش قبل مجيء الإسلام. وقال إنَّ تاريخنا مليء بالدم والغدر والخيانة، وإنّ المذابح التي تعرَّض لها أبناءُ خالد بن الوليد على يد الطرفيْن الآخريْن أخرجتْهم من الصراع، وبقي هذا الصراع إلى الآن بين الأمويين والهاشميين. والآن دعنا من هذه الأحاديث المكربة ولنتحدَّثْ عن النساء! إنّني بشوق عارم لرؤية

«مارال». إذا وصلنا مبكّرًا إلى حلب فسوف نذهب معًا لأعرِّفك إليها.

ومضى يحدِّثني عن مارال ومدى حبّه لها، والحديث أكثرُه سبق أن سمعتُه منه عندما كنّا في الزنزانة. ولذلك، عندما لاحظ عدمَ مشاركتي إيّاه في الحديث، سكت. وبعد دقائق أخذ النعاسُ يداعب جفنيّ، ثم نمتُ.

أيقظني بهزّ كتفي. السيّارة متوقِّفة. نزل من السيّارة. نزلتُ أيضًا. سألته:

ـ أين نحن الآن؟

أشار بيده إلى المدينة التي نشرف عليها من مكان وقوفنا المرتفع:

ـ هذه حمص.

وقف ساهمًا وكأنّه ينظر إلى نقطةٍ في الأفق. قال كمن يستأنف حديثًا انقطع للتوّ:

ـ هنا استقرّ جدُّنا خالد بن الوليد. يقولون إنّه مدفون في جامع خالد. أنا لا أعتقد هذا. هو مدفون في قريته التي كان يملكها. وهنا، في هذه المدينة وما حولها، نُفِّذتْ أوّلُ مذبحةٍ في حقّ أبناء خالد وأحفاده، ولم ينجُ من هذه المذبحة إلّا واحد فقط... وله الفضلُ في وجودي معك الآن.

صعد إلى السيّارة. انطلقنا مجدّدًا صوب الشمال. وبعد ما يزيد على ساعتين، دخلنا مدينة حلب من الجهة الغربيّة، حيث يتوسّط مدخَلَها دوّارٌ كبيرٌ، في منتصفه مجسّمٌ حجريٌّ للكرة الأرضيّة. قال:

ـ هذا الدوّار يُسمّى دوّار الكرة الأرضيّة، كأنّ مَنْ وضعه أراد أن يقول إنَّ حلب أقدمُ مدينةٍ في التاريخ، وإنَّ كلّ البشريّة مرَّت من هنا.

ـ أو أنّه بعنجهيّةٍ يقول إنّ حلب قادرةٌ على احتواء الكرة الأرضيّة

في واحدة من ساحاتها فقط.

ـ نعم، أرجّح تفسيرَكَ لأنّ أهل حلب معروفون باعتزازهم الكبير بمدينتهم. على كلٍّ لقد وصلنا.

أوقف السيّارةَ في شارع نظيف وجميل، على جانبيه مجموعةٌ من القصور المتفاوتة الأحجام. نزلنا أمام قصر حجريّ من طابقين، لونُه مائلٌ إلى الصفار، مبنيٌّ بالحجر السوريّ، يتوسّط حديقةً كبيرةً. الوقت قُبَيل الغروب. الظلال تمنح القصرَ مهابةً وفخامةً. نظر إليّ، فرأى أماراتِ الاستغراب على وجهي. بادرني مازحًا:

ـ لماذا تفتح فمك كالأبله؟ هذا بيتنا، نأتي إليه عندما يزور أحدُنا مدينةَ حلب لعملٍ ما أو يقيم فيه من يدرس في الجامعة. هل صدّقتَ الآن أنّنا أثرياء جدًّا؟

دفعني برفقٍ تجاه باب الحديقة الحديديّ الأسود المزركش برسوم ذهبيّة. ضغط على زرّ الجرس طويلًا. لحظات وفُتح بابُ القصر ليخرج رجل طويل لم أستطع تبيّنَ ملامحه عن بعد. رآنا على باب الحديقة الخارجيّ فمشى نحونا. كان زنجيًّا. وفي الوقت نفسه تبيّن هو شكلنا، فركض نحونا، وأخذ يصيح بصوتٍ عال:

ـ عمّي سلام... عمّي سلام... عمّي سلام.

فتح بابَ الحديقة وجثا على ركبتيه أمام عبد السلام بعد أن أمسك بيده اليمنى، يقبّلها ويبكي.

احتضنه عبد السلام وقبّل رأسه، ثم أنهضه من على الأرض. دخلنا من باب القصر بعد اجتيازنا للحديقة. بعد الباب موزِّع صغير له بابان، أشار إليّ عبد السلام بسلوك الجهة اليمنى. بقي معيوف ـ وهو اسمُ الشابّ الأسود ـ واقفًا بينما جلسنا في البهو الواسع على أرائك ضخمة ومريحة.

حديث قصير استفسر فيه سلام - كما يناديه معيوف - عن الموجودين في القصر، فأخبره أنَّ الشيخة الكبيرة فقط ومعها أمّ معيوف موجودتان هنا.

نصف ساعة وأنا غائص في أفكاري وفي الأريكة الوثيرة أنتظر لحظةً أنفرد فيها بسلام لأطرح عليه سؤالًا واحدًا فقط: أيُّ ريحٍ هي التي قذفتْ بواحدٍ مثله، يَنْعم بكلِّ هذا الثراء وما زال يعيش مرحلة العبوديّة من خلال خادمه الأسود، إلى حزبٍ يحارب أمثالَه ولا ينتسب إليه إلّا الفقراءُ الحالمون بالعدالة؟! لكنّ معيوف كان كظلِّه لا يتركه لحظةً واحدة. يغادران القاعة التي نجلس فيها ويغيبان بضع دقائق ثم يعودان. يسألني سلام إنْ كنتُ بحاجة إلى شيء ما، ودون أن ينتظر جوابي يغادر مجدّدًا وخلفه معيوف، قبل أن يعود ويقول:

- اسمعْ! طلبتُ إلى والدتي أن تأتي للسلام عليك، ولكنّها رفضتْ. ولعلمك فهي لم تكشفْ وجهَها لأيّ رجل غير إخوتها وأبيها وزوجها وأولادها. ورغم أنّني قلت لها إنّك أخي، وإنّك الشخص الذي أنقذ حياتي يومَ مرضي، فقد ظلّت ترفض. وفي النهاية رضيتْ أن تأتي لتحيّتك. . . شرط أن نتآخى!

- وكيف يمكن أن نتآخى؟!

تقدَّم معيوف إلينا وهو ممسكٌ بشفرة حلاقة جديدة. نزع غلافها، طالبًا إلينا مَدَّ يدينا إلى الأمام. وبسرعة وخفّة بعد أن أمسك إصبعي أحدث جرحًا صغيرًا فيه، وكذلك فعل بإصبع سلام. انبثقتْ بضعُ قطرات من الدم من كلّ جرح. لعقتُ دم سلام، وكذلك فعل بدمي بناءً على تعليمات معيوف، الذي قال بعد انتهاء المراسم:

- صرتما أخويْن بعهد الله.

ضحكنا أنا وسلام، الذي تمتم معلِّقًا:

ـ صرنا مصّاصيْ دماء وأخويْن أيضًا.

أشار إلى معيوف بأن يُحْضر أمّه. بعد فترة قصيرة دخلتْ، وخلفها أمّ معيوف. حيّتني بمودّة وهدوء وهي تدعوني بـ: «يا بني». كانت لا تزال تحتفظ بجمالٍ واضح، رغم تقدُّمها في السنّ وميلها إلى البدانة. وبعد المجاملات المعتادة استأذنتْ وعادت إلى جناح النساء في القصر، تتبعها أمُّ معيوف.

طلب سلام إلى معيوف أن يذهب ليملأ السيّارة وقودًا. وعندما صرنا وحدنا، قال:

ـ لقد أصبحتَ الآن فردًا من العائلة. لا تقل لي أيّ شيء عن الإيمان والإلحاد، وإنّ علينا ألّا نؤمن بكلّ هذه الخزعبلات. هذه الأسطوانة أعرفُها جيِّدًا. ولكنْ هناك أشياء في الحياة يجب أن نقبلها أو نتواطأ معها رغم معرفتنا بعدم صحّتها، وذلك لكي تستمرّ الحياةُ ذاتُها. فمن فضلك، وفِّرْ فلسفتَكَ لنفسك!

قال الجملة الأخيرة بودّ ظاهر، ثم سحبني من يدي وهو يقول:

ـ تعال لأدلَّك على غرفتك.

في الطابق الثاني، وفي غرفة واسعة ومؤثَّثة بفرش فاخر، وتطلّ نافذتُها على الحديقة الخلفيّة، طلب إليَّ سلام أن أرتاح «ساعةً من الزمن» بعد هذا اليوم الحافل «لأنَّ لدينا سهرةً في بيت مارال».

وصلنا إلى بيت مارال. بيت شعبيّ متهالك، الأبواب والنوافذ مخلَّعة، الأرضيّات إسمنتيّة متشقِّقة ومكسورة في أماكن كثيرة، الأثاث قليل وقديم. جلسنا على كراسٍ حديديّة قديمة موضوعة حول طاولة خشبيّة تهتزّ كلّما لمستَها أو وضعتَ عليها شيئًا. ولكنْ، ضمن هذا البيت، فتاةٌ لم يخطئ سلام عندما قال إنّها ذاتُ جمالٍ مذهل.

قابلونا بودّ وترحاب كبيريْن. العائلة كلّها كانت موجودة: الأب ـ

ويناديه سلام بـ «العمّ مهران» ـ والأمّ «الخالة نازليك» والأخ «كيڤورك» وطبعًا مارال الأخّاذة.

مارال تتكلّم اللغة العربيّة بطلاقة، وكذلك الأمرُ، إلى حدٍّ ما، بالنسبة إلى الأب والأخ. أمّا الأمّ فتتكلّمها بصعوبة وبلهجة مكسّرة.

وصلنا بينما هم يتهيّأون لتناول العشاء. الطعام على الطاولة تفوح منه روائحُ مختلف أنواع التوابل. شعرتُ بالجوع. وبعد التحيّات المغلّفة بحفاوة كبيرة، إذ عانق الجميعُ سلام، عدا مارال التي اكتفت بمصافحته، عرّفني بهم: «هذا أخي الجديد»، فرحّبوا بي. وقال مهران:

ـ إذا حضر الطعام بطل الكلام.

كان العشاء على بساطته لذيذًا وممتعًا. وتكشّف العمّ مهران عن متحدّث بارع ولبق وقويّ الشخصيّة، ينتقل بيسر من موضوع إلى آخر، ويحاول أن يُشرك الجميعَ في الحديث. استأذنني: «هل تنزعج إذا شربنا كأسًا من العرق البلديّ مع العشاء؟» طبعًا لا، قلت، وأضفتُ أنّني أشرب أيضًا.

تحدّث العمّ مهران في السياسة، واكتشفتُ أنّها شغفُه الأكبر. واسعُ الاطّلاع، وحريصٌ على إحاطة الموضوع الذي يتحدّث فيه بتحليلٍ شاملٍ ذكّرني بالمقالات الافتتاحيّة في جريدة حزبنا. وقد آثر أن يتحدّث عن السجن من خلال حديث السياسة، فكان يوجّه أسئلةً صغيرةً إليّ وإلى سلام عن الحياة التي عشناها داخل السجن ومدى تحمّلنا للمعاناة النفسيّة والجسديّة داخله.

سكت العمّ مهران قليلًا. رفع كأسه وكان قد تبقّى فيها القليل. نظر إليها مليًّا. وضعها على الطاولة وهو لا يزال يحدّق فيها. وبصوت أكثر انخفاضًا من صوته المعتاد طوال السهرة قال:

ـ لقد وجَّهت الكنيسةُ إليّ إنذارًا قاطعًا بالحرمان إذا بقيتُ مصرًّا على تزويج ابنتي من شابّ مسلم!

رفع كأسه مجدّدًا وحدّق في عينيْ عبد السلام، الذي أحسستُ أنّ جسده قد تصلّب واعتدل في جلسته بعد أن نظر نظرةً خاطفةً صوب مارال التي أطرقتْ رأسها. ثوانٍ بدت لي، وحتمًا لسلام، طويلةً جدًّا. العمّ مهران وسلام يحدِّقان واحدهما في الآخر دون أن يرمش لهما جفن. نهضت الأمّ وأخذتْ تُشغل نفسَها بلا شيء. فجأةً رفع العمّ مهران يده ولوَّح بها، وبحدّة قال:

ـ ليذهبوا هم وكنيستُهم إلى جهنّم وبئسَ المصير!

تنفَّس سلام بعمق وكأنّه أزاح حملًا ثقيلًا عن ظهره. وقف واتّجه صوب العمّ مهران الذي بدا منتشيًا كثيرًا، لا أدري أبسبب المشروب أمْ بسبب رضاه عن نفسه نتيجةً لاتّخاذ هذا الموقف الشجاع بتحدِّي الكنيسة. اقترب سلام منه وقبّل رأسه. شعرتُ أنَّ السهرة قد انتهت، فوقفتُ أيضًا.

ودّعونا عند الباب الخارجيّ الذي يحشرج عند الفتح والإغلاق. في الشارع الضعيف الإنارة وقف سلام بعد أن ابتعدنا عن البيت قليلًا. أمسك يدي وأخذ يهزّها وهو يقول:

ـ أنا سعيد... أنا مسرور، هنّئني يا صديقي هنّئني! كنّا أنا ومارال خائفيْن كثيرًا من موقف الكنيسة هذا. العمّ مهران بطل! هكذا تكون الرجال! هكذا يكون أصحابُ المبادئ الحقيقيُّون! أنا أطير فرحًا... دعنا نتمشَّ قليلًا في الشوارع. ليست لديّ رغبةٌ في النوم.

مشينا متمهّليْن في الشوارع، وهو يردِّد الكلام نفسه عن سعادته. اغتنمتُ الفرصة وسألته:

ـ ولكنْ مَنْ هو العمّ مهران، وماذا يعمل؟

نظر إليّ باستغرابٍ حقيقيّ وكأنَّه يلومني على جهلي. لكنّه سرعان ما استدرك وانطلق يتكلَّم:

ـ العمّ مهران، بالإضافة إلى كونه والدَ مارال، أستاذي وأبي الروحيّ. هو من أوائل الناس الذين أدخلوا الفكرَ الاشتراكيّ إلى هذه البلاد. وهو حزبيٌّ ملتزم، ويحتلّ في الحزب مكانةً جيِّدة. أمّا عمله فهو إسكافيّ.

قاطعته ضاحكًا:

ـ إسكافيّ؟! هل هذا يعني إعادةً للحكاية الرومنسيّة عندما يحبّ الأميرُ الفتاةَ الفقيرة؟

ـ لا يا صديقي... لا، الأمور هنا مختلفة، مختلفة جدًّا.

ولم يشرحْ لي سببَ اختلاف الأمور هنا. وبقي يحدِّثني عن مارال والعمّ مهران طوال طريق العودة، وأثناء صعودنا إلى الطابق الثاني، بل حتى بعد أن أصبحتُ في السرير، وأنا أشعر أنّ تعب العالم كلّه قد حلّ في جسدي. إلى أن قلت له:

ـ اسمع، أنت إنسان غارق في العشق، وأنا رأيت اليوم ما يكفي. من فضلك هل تريد أن تتركني أنام؟

ضحك وأطفأ نورَ الغرفة.

غرقتُ فورًا في نوم عميق.

## (٣)

صباحًا جلبتْ لنا خادمتان طعامَ الإفطار حيث نجلس في البهو الكبير المخصَّص للرجال. كان معيوف واقفًا على خدمتنا بانتظار أيّ إشارةٍ من سلام. بعد الإفطار وقف سلام، وفي طريقه إلى الحمّام ألقى على معيوف مجموعةً من الأوامر:

السيّارة الشيفروليه تجب إعادتُها إلى دمشق. إخراج السيّارة الكاديلاك البيضاء من المرأب وتجهيزها للسفر إلى الخالديّة. ستبقى الشيخة الكبيرة أمّ سلام مع أمّ معيوف هنا في حلب يومين، وسيعيدهما السائقُ إلى الخالديّة... وهكذا. ومعيوف كلَّما سمع أمرًا ردَّد بشكلٍ آليّ:

ـ أمرك يا عمِّي. أمرك يا عمِّي.

انطلقنا بالكاديلاك البيضاء التي تشبه الحمامة قبل الظهر بساعتين تقريبًا. الطريق ضيِّق وسيِّئ في أقسام عديدة، لكنّ سلام كان يقود بمهارة ويقظة. بعد حوالى الساعتين ونصف الساعة أوقف السيّارة على مرتفع من الطريق وأشار بيده قائلًا:

ـ انظر.. تلك هي الخالديّة.

بدت لي الخالديّة مجموعةً من البيوت التي أُقيمت على أرض

جرداء، هي عبارة عن هضبة مسطّحة تحيط بها سهولٌ واسعةٌ. عندما وصلنا إليها تبيَّن لي أنَّ البلدة ثلاثُ مجموعاتٍ من الأبينة، تفصل بين الواحدة والأخرى مسافة قرابة الألف متر، وتتوسّطها جميعَها ساحةٌ كبيرةٌ ليس فيها إلّا الطريق ذو الفروع الثلاثة.

انعطفت السيّارةُ نحو اليمين، ومن هذه المسافة بانت مجموعة كبيرة من الأبنية المتنوِّعة الأحجام. قاد سلام السيّارة نحو أقصى اليمين وأوقفها أمام قصرٍ من طابقين، مسوّر بسور عال، وإلى جانبه قصر أكبر من ثلاثة طوابق، يليه قصرٌ بحجم القصر الذي وقفنا أمامه. وعلى مبعدة من القصور الثلاثة بناءٌ من طابق واحد غير مسوّر، وله نوافذ زجاجيّة كبيرة محميّة بشبك من الحديد. وأبعدَ من الجميع بناءٌ يبدو صغيرًا أمام هذه القصور، قال لي سلام إنَّه الخلوة أو الصومعة.

باب القصر كتيم، عرضه حوالى ثلاثة أمتار. في جانب منه بابٌ صغيرٌ لدخول الناس، قام سلام بفتحه ودخلنا. أخبرني أنّنا قد نرى «أصلان» في الداخل، أصلان الفتى الصغيرَ الذي عثرتْ عليه أمُّ سلام عند عودتها مع الحاشية من حمّام النساء. حين أصبحتُ في الداخل أذهلني منظرُ الحديقة المحيطة بالقصر. كنت قد قرأت عن الفرق بين الحديقة الإنكليزيّة والحديقة الفرنسيّة، ولا بدّ أن يكون مَن صمَّم وأَنجز هذه الحديقةَ فرنسيًّا أبًا عن جدّ؛ إنّها مرسومة بالقلم والمسطرة: مساكب متناظرة تحتوي على شتّى أنواع الورود والأزهار. على كلّ جانب من جوانب القصر شجرتان من الصفصاف المستحي المتهدِّل الأغصان. أمام الصفصاف عرائشُ يتسلَّق عليها الياسمينُ الدمشقيّ والليلك، تحيط بها مساكبُ من البنفسج. وفي الوسط فسحةٌ مستديرةٌ تحت عرائش الياسمين، فيها بركةُ ماءٍ ونافورة، وحول البركة طاولةٌ وبضعةُ مقاعد مريحة.

في الممرّ المبلَّط الواصل بين باب السور وباب القصر سار سلام وأنا خلفه. انحرف في مسيره وذهبنا ضمن الحديقة خلف القصر. ثمَّة منزلان صغيران ملاصقان للسور الخلفيّ، قرع أحدَ الأبواب بينما وقفتُ بعيدًا عنه. خرج رجل في منتصف العمر، ومعه امرأة تبدو وكأنّها زوجته. قبّلا يد سلام، وهرول الرجلُ أمامنا صوب باب القصر.

دخلنا وجلسنا في القاعة السفليّة. الرجل وزوجته واقفان. انفتح الباب ودخلت امرأة سوداء شابّة طويلة، أسرعتْ في مشيتها قليلًا وانحنت لتقبيل يد سلام الذي أعطاها إيّاها من دون أن يتحرّك. عرّفني إليها: «زوجة معيوف»، وعرّفني كذلك إلى البستاني وزوجته التي تعمل في المطبخ. أصدر تعليماته بترتيب جناحه وجناحي وتهيئة الطعام، فصعدتْ زوجةُ معيوف إلى الطابق الثاني ودخلتْ زوجة البستاني إلى المطبخ، بينما خرج الرجل. التفت سلام إليّ وعيناه تضحكان:

ـ أنا أعرف هذه التعابيرَ المرسومةَ على وجهك. أنت الآن تريد أن تسأل، أو أن تحتجّ. صحيح؟

ـ نعم صحيح. قل لي كيف ترضى أن يقبّل الناسُ يدَكَ بالطريقة هذه؟ ألا ترى أنّها إهانة للناس؟ ألا تتعارض مع المبادئ التي تناضل من أجلها؟

هزّ كتفيه وقال:

ـ الحقيقة لا أدري إذا كانت إهانةً أمْ لا، ولكنْ منذ أنْ كنت طفلًا والناس يقبّلون يدي. الآن أحسّ أنّه أمر طبيعيّ. ويا صديقي، لو حاولتُ أن أمنعهم فلن يقبلوا.

نهض عن الأريكة واتّجه نحو النافذة. أزاح الستارة فدخلت كمّيّةٌ من نور النهار. نظر إلى الخارج قليلًا، ثم التفت نحوي قائلًا:

- يجب أن يكون أوَّل ما نفعله هو السلام على والدي. لكنَّه لن يستقبلنا قبل العصر عندما يستيقظ من قيلولة الغداء.

شعرتُ أنّه يريد تغييرَ الحديث، ولذلك جاريتُه في الأمر وسألته:

- ولكنْ مَنْ يقيم معك هنا؟ ولماذا لا تقيم مع العائلة؟

دعاني إلى الاقتراب منه. وقفتُ إلى جانبه، وبدا منظرُ حديقة القصر أمامي. من أعلى السور يظهر الجزءُ العلويّ من القصر الكبير. أشار بيده إليه وقال:

- لدينا هنا نظامٌ صارمٌ توارثناه عن أجدادنا. هذا القصر الكبير هو مكان إقامة الشيخ الكبير، الذي هو والدي الآن، يقيم فيه مع نسائه، إذا كان لديه أكثرُ من امرأة، ومع أولاده فقط. أمّا القصر الذي نحن فيه، فهو للابن الأكبر، ينتقل إليه عندما يبلغ الثامنة عشرة؛ أيْ إنّني هنا وحدي منذ أن تجاوزتُ الثامنة عشرة. وهناك قصر ثالث مثل هذا، تُقيم فيه نساءُ الشيخ الكبير وأولادُه عندما يتوفّى. ولكي تفهم الأمر جيِّدًا فقد كان والدي يُقيم هنا عندما كان أبوه حيًّا، ثم انتقل إلى القصر الكبير بعد وفاته، وانتقلتْ جدّتي أمُّ أبي مع ضرائرها لأنّ جدّي كانت لديه أربعُ نساء إلى القصر الثالث.

- وأبوك، كم امرأةً لديه؟

- واحدة فقط، أمّي، التي أصبحتْ أمَّكَ أيضًا. وبعد القصر الثالث بناءٌ هو عبارة عن مكتبة تحتوي آلافَ الكتب والمخطوطات. وثمَّة الخلوة كنتُ قد أريتك إيّاها أثناء دخولنا. هذه الأبنية الخمسة لا يقترب منها أحد أبدًا، لا من أهالي البلدة ولا من ضيوفنا، وهم أحيانًا بالآلاف.

- وهل لديكم حرَّاس لكي يمنعوا الناسَ من الاقتراب؟!

ضربني بقبضة يده على صدري وهو يضحك:

ـ هل أنت مجنون؟ لا يا أخي. هذا الأمر مثل تقبيل اليد، لا أحد يجبر الناسَ عليه، بل هم يفعلونه طواعيةً. والآن كفاك أسئلةً وفضولًا، تعال لنشرب شيئًا ما. كلّ شيء موجود، المشروبات الساخنة والباردة، وكلّ أنواع المشروبات الروحيّة!

ـ مشروبات روحيّة؟! هنا في منازل الشيخ عبد الهادي؟!

سحبني من يدي. أنزلني درجًا ضيِّقًا من خلف المطبخ. أشعل النور. في آخر الدرج فسحةٌ حولها عدد من الأبواب الصغيرة. مدَّ يده إلى كوَّة قريبة من السقف وأخرج مفتاحًا فَتَحَ به أوَّل باب. كهف صغير، مساحته قرابة ستَّة أمتار، مليء بالرفوف الخشبيّة البيضاء، وقد صُفَّت عليها مئاتُ الزجاجات. منظر بديع: زجاجات بأشكال مختلفة وألوان مختلفة ومشروبات مختلفة، لا أعتقد أنَّ هناك نوعًا من المشروبات الروحيّة في العالم لا توجد عيِّنةٌ هنا. نظرتُ إليه مستغربًا. قال:

ـ لا تستغربْ، هذه هواية لي. أنا لا أشرب كثيرًا، ولكنِّي أحبّ أن أجمع هذه الأنواع من المشروبات كما يحبّ بعضُهم جمعَ الطوابع. انظرْ إلى هذه الأبواب. خلفها الكثيرُ من أنواع النبيذ والويسكي والڤودكا والروم وغيرها. منذ خمس سنوات وأنا أمارس هذه الهواية. هل تحبّ أن تجرِّب زجاجة ما؟

ـ لا، لا شكرًا، في وقت آخر.

ـ طيِّب. وفي مرَّة قادمة سأقول لك ماذا تحت هذا الطابق.

ـ ولماذا لا تقول لي ذلك الآن؟

ـ طيِّب، تعال.

قادني إلى نهاية الممرّ بين الأبواب التي يُخزَّن فيها المشروبات الكحوليّة. في نهاية الممرّ حائطٌ أبيض. قال:

ـ هذا ليس بحائط. هذا بابٌ يُفتح بطريقة سرِّيَّة. تنزل بدرج، وفي الأسفل سردابٌ على مساحة القصر والحديقة، مليءٌ بالصناديق المحشوَّة ذهبًا وجواهرَ.

دُهشت؛ فما مرَّ عليّ في هذين اليومين يعادل حياةً كاملة. صحيح أنّنا كنّا في السجن معًا، وأنّني رعيتُه في مرضه وربَّما أنقذتُ حياته، ولكنَّ هذه الرعاية كان يمكن أن أقدِّمها لأيِّ سجين آخر. غير أنَّ حجم الثقة والمحبَّة اللتين منحني إيّاهما مقابل ذلك كان مذهلًا لي. فهو لم يكن مضطرًّا لأن يكشف لي كلّ أسرار حياته، ولا لأن يقدّم إليّ عرضَه الكبير بتأمين كلّ حوائج حياتي، لو لم يثق بي ثقةً تامَّة، ويثق بأنّني قد أصبحتُ شخصًا مهمًّا في حياته.

ونحن نشرب الشاي الذي جلبتْه أمّ محمود، زوجةُ البستاني، أفضيتُ إليه بكلِّ ما كنتُ أفكِّر فيه. شكرتُه على ثقته ومحبّته، وتساءلتُ في الوقت نفسه عن دوافعه في معاملتي بهذه الطريقة الكريمة. نظر إليّ باستغراب وبحدَّة مصطنعة، ثم قال:

ـ يا أخي، ألن تكفَّ عن ترداد هذه الأسطوانة؟ لماذا لا تريد أن تصدِّق أنّني أحبّك أكثر ممَّا أحبّ أيًّا من إخوتي؟ وهل التجربة التي عشناها قليلة؟ فكِّر قليلًا... إنّني أدين لك بحياتي! وتجربة المرحاض... كم شخصًا في هذا العالم كلّه أستطيع أن أجلس أمامه في المرحاض لأقضي حاجتي بينما هو يحادثني من دون حرج؟! أغلق فمك على هذا الموضوع ولا تعد إليه مرَّة أخرى، مفهوم؟

ـ نعم مفهوم.

بُعَيْد الظهر تناولنا طعامنا وقادني إلى الجناح المخصَّص لي. غصتُ في السرير الوثير ونمت فورًا. استيقظتُ بعد ساعتين تقريبًا. نزلتُ إلى الأسفل، فوجدتُ سلام جالسًا يشرب القهوة وقد ارتدى ثيابه

كاملةً. طلب إليّ أن أرتدي ثيابي بعد شرب القهوة لأنّنا سنذهب لمقابلة والده في المجلس الصغير.

غادرنا القصر. في الطريق أشار إلى بناء صغير يبعد قرابة مئتيْ متر خلف القصور: «هذا البناء كان حمّامًا تركيًّا خاصًّا بنساء آل الشيخ». ثم أشار إلى خرائب أثريّة لم أكن قد لاحظتُها سابقًا: «وهذه أطلالُ معبدٍ إغريقيّ يُقال إنّه كان للربَّة هيرا». وعاد إلى تاريخ العائلة:

ـ في هذا المعبد أقام أحدُ أجدادي مع أمّه منذ حوالى ألف عام. كان الناجي الوحيد أيضًا بعد المذبحة الثانية. كان في الخامسة عشرة من عمره، وهو الذي وضع أسسًا ما زلنا نسير عليها حتى الآن.

وقبل أن نصل إلى الأبنية قطع حديثَه والتفت إليّ. سألني بما يشبه الرجاء:

ـ الآن سندخل للسلام على والدي. هل يزعجك أن تقبِّل يدَه؟ اسمع، قبلة اليد في مقامٍ كهذا ليست إلَّا دلالةً على الاحترام. أرجوك!!

فوجئتُ. فكَّرتُ للحظات كيف يَطلب إليَّ أمرًا كهذا؟ ولكنّني لا أدري كيف هززتُ رأسي موافقًا، فانفرجتْ أساريرُه، وشدّ على يدي بانفعال. شرح لي أنَّ «المجلس الصغير» الذي نذهب إليه هو المكان الذي يجلس فيه والدُه للعزلة والتأمُّل بضعَ ساعات من كلّ يوم، ولا يستقبل فيه إلَّا الخاصَّةَ من الرجال، وهم لا يتجاوزون أربعة أشخاص أو خمسة فقط. وسُمِّي بـ «الصغير» تفريقًا له عن «المجلس الكبير» الذي يجلس فيه الشيخ عندما يقابل عمومَ الناس ـ وهذا يتّسع لمئات الأشخاص، وفيه أيضًا يلقي درسَه الأسبوعيّ.

أوَّل ما واجهنا كان مسجدًا كبيرًا ، ذا مئذنة قصيرة. بناؤه بسيط ويخلو من الزخارف، مصنوع من الحجر الحواري الأبيض. قادني إلى

الباحة الخلفيّة للمسجد، وهي واقعة بين السور الخارجيّ والبناء الأساسيّ. بعد أن تجاوزنا البناء الأساسيّ بانت أمامنا غرفةٌ واحدة، بابُها ونوافذُها من الخشب السميك المطليّ باللون الأخضر الداكن. اقتربنا من الغرفة فرأيتُ من خلال الزجاج الستائرَ مسدلةً. اقترب سلام من الباب وطرقه بيده طرقاتٍ خفيفةً، ثم أدار الأكرةَ وفتحه. دخلتُ بعده بهدوء. اتّجه إلى يمين الغرفة. سَدّ عليّ زاويةَ الرؤية بجسده فلم أستطع أن أرى والدَه. التفتُّ إلى الخلف قليلًا لأغلق الباب. وعندما عدتُ إلى الوضع الطبيعيّ جمدتُ في مكاني: إنّه الشيخ نفسه الذي رأيتُه في الزنزانة!

الشيخ عبد الهادي يجلس على فراش ممدود فوق سجَّادة تغطّي أرضيَّة الغرفة بكاملها. كان سلام جاثيًا أمام والده يقبِّل يده، وذاك يقبِّل رأسَه، ثم يتعانقان بتأثُّر واضح. أمسك الوالد بكتفيْ سلام وأبعده عنه قليلًا وهو ينظر إليه بابتسامة بدت لي شاحبة. ثم أجلسه إلى يمينه.

كلّ ذلك أتاح لي بعضَ الوقت لأتخلَّص من وقع المفاجأة. إنَّ صورة الشيخ الذي رأيتُه في الزنزانة محفورةٌ في ذاكرتي. إنّه هو، ويريد سلام أن يُقْنعني بأنّها أضغاثُ أحلام! كيف لي أن أحلم برجل لم أره في حياتي، ثم أراه بعد يومين كما رأيتُه في الحلم، وبأدقّ التفاصيل؟!

حيّاني الشيخ عبد الهادي بيده ودعاني إلى التقدُّم. أسرعتُ قليلًا في سيري، وكما فعل سلام فعلتُ. جثوتُ على ركبتيّ، وتناولتُ يده اليمنى، وسحبتُها نحوي قليلًا كي أقبِّلها، لكنَّه سحبها بحركةٍ بدت لي ودِّيَّةً، إذ إنَّه بعد سحبها وَضَعَها على رأسي وأخذ يمسحه كما فعل في الزنزانة. شعرتُ بطمأنينةٍ وسلامٍ داخليَّيْن لم أشعرْ بهما في حياتي!

برفقٍ جذبني نحوه وعانقني. احتكَّت لحيتُه الطويلة المشذَّبة

بخدّي، فشممتُ رائحته القريبة من رائحة المسك. أمسك كتفيّ وأبعدني عنه قليلًا وهو ينظر في عينيّ مبتسمًا. قال:

ـ أهلًا يا ولدي.

شعرتُ حينها أنَّه والدي حقًّا. عدتُ وأمسكتُ يده اليمنى وقبَّلتها بحرارة. لم يسحبْ يده أو يمنعْني من تقبيلها هذه المرَّة، ثم أجلسني إلى يساره.

ساد صمتٌ قصير. الشيخ عبد الهادي يمسك بيده اليمنى يدَ سلام، وبيده اليسرى يدي. هزَّهما معًا ثم صاح بصوتٍ خافت:

ـ يا أبو معيوف.

دخل أبو معيوف مهرولًا. ومن دون أن يلتفتَ إلينا، ذهب إلى يسار المجلس. حمل إبريقَ القهوة العربيّة مع ثلاثة فناجين. صبَّ قليلًا من القهوة المُرَّة في الفنجان وشربها، ثم صبَّ القهوة في الفنجان نفسه وأعطاه الشيخَ الذي شربها دفعةً واحدة. صبّ له ثانيةً فشربها، وهزّ الفنجانَ دلالةَ الاكتفاء. عندها صبّ لسلام ولي. ابتسم عن أسنان ناصعة البياض ومتراصّة. قبّل يد عبد السلام، وصافحني بأبويّة.

الشيخ يكاد لا يتكلّم. هنّأنا بالخروج من السجن. قال جملتين قصيرتين محتواهما أنَّ على الإنسان أن يَتبع قلبَه. سألنا إنْ كنّا قد رأينا أصلان، فأجبناه بالنفي. طلب منّا أن نذهب إلى أصلان؛ فهو أخٌ لنا ولا يجوز إهمالُه. بعد دقائق انتبهتُ إلى أنَّ سلام يمدّ رأسه إلى الأمام. تطلَّعتُ إليه، فغمزني مشيرًا علينا بالذهاب.

استأذنّا من الشيخ. أمسك يدي ويد سلام وهزَّهما، وقال: «الله معكما». وعندما كنّا نهمّ بالخروج قال:

ـ يا سلام... غدًا الساعة العاشرة سأكون في انتظار أخيك. ولكنْ لا تأت معه. دعه يأتِ وحده.

ردّ عبد السلام: حاضر.

خرجنا من المجلس الصغير. خرجنا من الجامع. مشينا في الشارع المترب. وعندما عنّ لي السؤالُ التفتُّ إلى سلام، فوضع سبّابتَه أمام شفتيه قائلًا:

ـ لا تسألني شيئًا؛ فأنا مثلك لا أعرف شيئًا.

مشينا ساكتيْن في شارعٍ مليءٍ بالتراب. وعندما أصبح الصمتُ ثقيلًا طفق يشرح لي ما نمرّ به ونحن في طريقنا إلى بيت أصلان: «هل ترى هذين الصفّين من الغرف؟ إنّهما حوالى مئة غرفة مخصّصة لنوم الضيوف، في كلّ غرفة عشرون فراشًا منضّدًا في مكان واحد. أمّا هذا البناء فهو المطبخ... إنّه بناء واحد متّصل يكاد يبلغ طوله مئة متر». دخلنا، فصدمتني رائحةُ الدسم واللحم والكيروسين والدخان. خمسون أو ستُّون حلّة كبيرة فوق مواقد ضخمة تعمل على الكيروسين. مجموعة كبيرة من الرجال، البعض ينظّف، الآخرون يقطّعون الخرافَ المذبوحة ويضعونها في الحلل. سألت:

ـ لمن كلُّ هذا الطعام؟

ـ للضيوف. في كلّ يوم لدينا مئتان أو ثلاثمئة ضيف تقريبًا. في الأعياد يكون الضيوف أكثر من ألفيْن.

ـ هذا مكلف جدًّا. لماذا تُضطرُّون إلى إطعام كلّ هؤلاء؟

ـ الضيوف يُطعمون أنفسَهم بأنفسهم. لا يأتي أيّ ضيف إلّا ويجلب معه شيئًا. نحن لا نتكلّف أبدًا، لا بل يتبقّى لدينا الكثير من الخراف وأكياس الأرزّ التي يجلبونها.

مقابل المطبخ بناءٌ آخر يشبهه، بالطول نفسه تقريبًا. كان الناس يدخلون إليه ويخرجون منه. «هذا هو المجلس الكبير، دعنا نبتعد»، قال لي. بعد أن ابتعدنا عن «مجمع الضيوف» لاحت لنا مجموعةٌ من

المنازل المبنيّة بشكل غير منتظم. من بعيد، وعلى حافّة الهضبة المسطّحة التي بُنيْت عليها البلدةُ وقبلها المعبدُ الإغريقيّ، لاح لي ما يشبه جبلًا صغيرًا. سألتُ سلام عنه، فأجابني مستفسرًا:

ـ هل تقصد كومَ الزبالة ذاك؟

ـ وهل كلُّ هذا زبالة؟!

ثمَّة عشرُ عربات تجرّها البغال، مخصَّصة لنقل القمامة، التي تتألَّف بشكل رئيس من العظام وحثالةِ القهوة العربيّة. لحم الخراف مع الأرزّ الأبيض هو الطعام الأساسيّ؛ ولعدد من الضيوف يتراوحون بين المائتين والألفيْن فإنَّ ذلك يعني يوميًّا أكوامًا من العظام ومخلّفات الذبح. أمّا القهوة فهي رفيقةُ الرجال طوال اليوم. في المجلس الكبير عشرةُ رجال، وظيفتُهم الأساسيّة إعدادُ القهوة العربيّة. في منتصف المجلس مجموعةُ «دِلال» متنوّعة في الأحجام والسعة: فأكبر دلّتين ـ وعمرهُما يزيد عن المائة سنة ـ يمكن أن يجلس رجلٌ في كلّ منهما، حتى نصل إلى الدِلال التي يحملها كلَّ الوقت رجلان يدوران على الجالسين وفي يد كلٍّ منهما بضعةُ فناجين، يصبّ في الفنجان مقدارَ رشفةٍ واحدةٍ يناولها الضيفَ الذي يشربها دفعةً واحدة؛ فإذا اكتفى هزَّ الفنجان، وإلّا صَبَّ له «القهوجيُّ» ثانيةً وثالثةً ورابعةً، ولا يتوقَّف عن الصبِّ حتى يهزّ الضيفُ الفنجان، فينتقل إلى الشخص الذي يليه. وفي نهاية اليوم تتبقّى حثالةُ القهوة بعشرات الكيلوغرامات، تحملها العرباتُ الحديديّةُ التي تجرّها البغال وتُرمى على حافّة الهضبة حيث يتكوَّن جبلُ الزبالة.

يقول سلام:

ـ قبل مئات السنين، عندما جاء جدّنا (الذي كان عمرُه خمسة عشر عامًا) مع أمّه للإقامة هنا، كانت المنطقة مغطّاةً بغابات كثيفة

تبتدئ من شاطئ النهر الكبير وتمتدّ عشرات الكيلومترات. الآن، المنطقة جرداء؛ فالنّهر الكبير جفَّ تمامًا، ولم يبق من مياهه الهادرة سوى بضع برَكٍ ومستنقعاتٍ تنتظر الجفافَ أو معاودةَ النهر الكبير جريانَه.

وتابع:

- الهضبة المسطَّحة التي بُنِي عليها المعبدُ الإغريقيّ، ومن ثم البلدة، تشرف من جميع الجهات على سهول منبسطة تمتدّ عدَّة كيلومترات. وقد ساد الجفافُ المنطقةَ بعد زوال الغابات، وأضحت الأمطار نادرة. خلال السنتين أو الثلاث التي يتوقَّف فيها المطرُ عن الهطول تنمو على حوافّ الهضبة أربعةُ جبالٍ صغيرةٍ من النفايات، ولونها بنّيٌّ لأنَّها مكوَّنةٌ أساسًا من حثالة القهوة. هذه الجبال تزول تمامًا بعد سقوط الأمطار الكبيرة، إذ تجرفها السيولُ، التي يغدو لونُها بنّيًّا قاتمًا، وتتشكّل في النهاية بحيرةٌ تحيط بالهضبة من جميع الجهات. هذه البحيرة البنّيَّة تظلّ عدَّة أيّام بعد توقُّف الأمطار، فينظر أهلُ الخالديّة إليها بحبّ، وتبتسم كلُّ الوجوه؛ فهذا يعني أنّهم سيأكلون من حنطة سهول بلدتهم. والحنطة التي تنبت بعد السيول قد يبلغ ارتفاعُها قامةَ رجُل، وتختلف عن الحنطة العاديّة في أنَّ لون سيقانها وأوراقها لا يكون أخضرَ صافيًا وإنَّما مشربًا بلون بنّي. وعندما تُطحن وتصبح خبزًا أسمرَ شهيًّا، فإنَّ هذا الخبز يقول كلُّ مَنْ يأكله إنّه ألذُّ خبزٍ أكله في حياته ويقسم أنّه استشعر به نكهة القهوة.

كانت الشمس قد غابت وبدأ الظلام يخيِّم. دخلنا في شارع يحتوي على عشرات المنازل المتداخلة. التفت إليَّ سلام وقال:

- هذا منزل أصلان. هل تودّ أن ندخل ونسهر هنا، أمْ نؤجِّل زيارته إلى الغد؟

لمستُ من سؤاله رغبةً في تأجيل الزيارة، فقلت:

ـ يكفيني ما رأيتُه اليوم. ولكنْ ما البديل عن زيارة أصلان؟

أمسك يدي بقوّة ووجّهني تجاه قصره قائلًا:

ـ تعال... لنسهرْ وحدنا كما كنّا نسهر في السجن.

بُعَيْد الغروب جلسنا على الشرفة. الهواء يرقّ، ويرسل بين الفيْنة والأخرى هبّاتٍ لطيفة. طاولة وكرسيّان وعشرات صحون من الطعام اللذيذ والخفيف الذي أعدّته أمّ محمود، زوجةُ البستاني. بُعَيْد جلوسنا طلب سلام من أمُّ محمود، بلباقة وشكر، أن تغادر مع جميع الخدم، وبدأتْ سهرتنا. وقف بتمهُّل وهو يقول مبتسمًا:

ـ انتظرْ قليلًا لأحضر زجاجةً جديدة، ومن ثم أحدِّثُك عن اليوغوسلافيّة، وعن المغامرة التي لم يؤثِّر شيء ما في حياتي كما أثَّرتْ فيّ. لقد غيَّرتْ مجرى حياتي كله.

وحدّثني عن ماريّا أو مريم بطريقة لم أره بها سابقًا ولن أراه لاحقًا. راح يغوص في الكلام وكأنّه يسبح فوق غيمة، يتلذّذ بسرد تفاصيل التفاصيل، وكأنَّه يعيشها مجدّدًا بكلِّ جوارحه وأحاسيسه. فقال:

## (٤)

كنتُ قد أتممتُ الخامسة عشرة عندما خرج أبي من خلوته الثامنة. سنةً كاملةً قضاها في الخلوة وأجبرتني على أن أنوب عنه في أمور كثيرة؛ فأنا ـ شئتُ أمْ أبيتُ ـ خليفتُه المنتظر. خرج من الخلوة وقد رقّ بدنُه وشحب لونُه قليلًا؛ لكنّني ـ على صغر سنّي ـ لاحظتُ أنَّ بريق عينيه ازداد سعةً وعمقًا، وغدا حديثُه أكثر إيجازًا.

بعد شهر من خروج والدي صارحتُه بالفكرة التي سيطرتْ عليّ:

ـ أريد أن أدخلَ إلى الخلوة!

حاول والدي أن يثنيني عن الأمر. شرح لي المعاناةَ التي يمكن أن أتعرَّضَ لها وأنا في هذه السنّ المبكِّرة ـ رغم أنّه دخل الخلوةَ لأوَّل مرَّة في مثل عمري تمامًا. إلَّا أنّني عاندتُ، ولم تنفع تدخُّلاتُ أمِّي بعد أن أخبرها أبي بعزمي.

بعد أسبوعين استدعاني وطلب إليّ أن أجهِّزَ نفسي لدخول الخلوة. كدتُ أطير فرحًا؛ فها أنا أخيرًا قد أصبحتُ رجلًا ذا شأن، ويَنظر إليّ أبي باهتمام!

في اليوم الموعود ذهبنا أنا وأبي. فتح الباب. سلّمني المفتاحَ بيدي؛ كانت تلك هي المرّةَ الأولى التي ألمس فيها مفتاحَ الخلوة.

أشار إلى كدسةٍ من الكتب موضوعةٍ على الأرض وقال لي:

ـ لقد اخترتُ لك هذه المجموعة من الكتب لتقرأها خلال هذه السنة.

عقب مغادرة أبي وإغلاقي البابَ من الداخل شعرتُ برغبةٍ عارمةٍ في الخروج من هذه الوحشة التي وضعتُ نفسي فيها، وخجلتُ من شعوري هذا. جلستُ على الأرض وأمسكتُ الكتابَ الأوّل. قرأتُ كلّ الكتب التي حضّرها لي والدي، بصعوبة في البداية، ثم بدأتُ أعتاد الوضع. طبعًا من المستحيل أن أظلّ أقرأ طوال اليوم، لذلك كان لديّ فائضٌ كبيرٌ من الوقت، ودائمًا يكون هذا الفائضُ البوّابةَ التي تدخل منها الأسئلةُ الكبيرة. وقُبَيْل خروجي من الخلوة تكثّفتْ كلُّ هذه الأسئلة في سؤال واحد: هل الله موجود أمْ لا؟

كرهتُ طعم التمر... ولكنْ لا يوجد غيره! كنت أشجِّع نفسي وأردِّد أنّني إذا ضعفتُ فسوف أفقد احترامَ والدي ـ وهذا يرعبني إلى حدّ الآن. بقيتُ عامًا كاملًا، خرجتُ بعده وقد فقدتُ الكثيرَ من وزني. عدتُ إلى غرفتي في القصر، إذ لم أكن قد انتقلتُ إلى هذا القصر بعد. وعندما نظرتُ إلى نفسي في المرآة رأيتُ عروقي واضحةً تحت بشرتي، وعيوني غائرةً.

احتجتُ إلى بضعة شهور كي أستردّ وزني وقوّتي. كنتُ قد دخلتُ في سنّ السابعة عشرة ولم أتمّها. تابعتُ دراستي في المدرسة، وبنهاية العام أصبحتُ في الصفّ الثاني عشر «البكالوريا». أشهُرُ الصيف هنا مملّة، أقضيها في القراءة والاستلقاء أو في زيارة أصلان؛ فهو الوحيد الذي كان بمثابة الصديق. ولكنْ لم أستطع أن أشاركه السؤالَ المقلق الذي يترك عقلي محمومًا طوال اليوم منذ أن كنتُ في الخلوة!

من عادات القصر الكبير ألّا يدخلَ الذكُور، بعد أن يتجاوزوا

الرابعة عشرة، جناحَ النساء إلَّا لأمر مهمّ وأو إذا استدعتهم أُمّهم. ولذلك لم أكن أدري شيئًا عمّا يدور هناك. ولكنْ في بداية ذلك الصيف أصبحتُ أسمعُ همسًا بين الخدم، وهو ما لم يكن يحدث أبدًا. عدَّة مرَّات كنتُ أرى خادمتين تلوذان بإحدى زوايا القصر، فتتحادثان بصوتٍ خافت؛ وعندما أمرُّ قريبًا تسكتان وتذهب كلٌّ منهما في اتّجاه.

في عصر ذلك اليوم، وفي الطريق إلى بيت أصلان، وكان معيوف يَتْبعني، توقَّفتُ في منتصف الطريق وناديتُه. أسرعَ في خطوه ووقف أمامي. سألتُه عن الهمس الذي يدور بين الخادمات، فقال لي:

- والله يا عمّي... سمعتُ أنّه في الجناح الثاني عند الحريم ضيفةٌ جديدة، لا تغطّي شعرَها، وتلبس ثيابًا قصيرةً، وأنّ عمَّتي الشيخة الكبيرة حاولتْ أن تعطيها ثيابًا من عندها ولكنّها رفضتْ.

استفسرتُ من معيوف عن عمر هذه الضيفة، ومتى جاءت، ومع من؟ فلم يستطع أن يقدِّم أيّة تفاصيل سوى:

- إنّها صبيّة جميلة قد تكون في بداية العشرين. ويقولون إنَّها جاءت مع أبيها، الذي هو ضيفٌ خاصٌّ عند أبي.

أمضيتُ قرابة الساعتين عند أصلان، ثم عدتُ إلى البيت، ومعيوف خلفي. عندما اقتربتُ رأيتُ أبي، ومعه شيخٌ آخر في مثل سنِّه أو أكبر قليلًا، وأمامهما فتاةٌ شقراء سافرةُ الوجه والرأس وتلبس الثيابَ الأوروبيّة الحديثة.

انتبهوا إليّ جميعًا حين أصبحتُ على بُعْد أمتارٍ منهم. أشار إليّ أبي بأن أقترب. ألقيتُ السلام، فقال لي أبي وهو يشير بيده صوب الشيخ الآخر:

- سلِّمْ على عمِّك الشيخ عبد الرحمٰن.

وفيما كنتُ أصافحه تابع أبي كلامه موجِّهًا الحديثَ إلى الشيخ:

ـ هذا ابني الكبير عبد السلام.

عندها شدَّني الشيخُ نحوه بانفعال وتأثُّر واضحيْن، وأخذ يضمّني ويعانقني بحرارة. بطرف عيني كنتُ أنظر إلى الفتاة الواقفة أمامنا وقد عقدتْ ذراعيْها على صدرها، وابتسامةٌ مواربةٌ تحلّ مكان التقطيب والعبوس اللذين كانا على وجهها.

أخيرًا تركني الشيخ ـ وقد ظننتُ أنّه لن يتركني أبدًا. تقدّمت الفتاةُ نحوي، وقد غطّت وجهَها ابتسامةٌ عريضة. وأمام أبي وأبيها أمسكتني من كتفيّ، وبلغة عربيّة فصيحة هي أقربُ إلى لغة القرآن قالت بلهجةٍ فيها الكثيرُ من الدلال:

ـ هل هذا الشابّ الجميل هو ابنُ عمّي؟ ولكنَّكَ ما زلت صغيرًا إلى حدٍّ ما! أليس كذلك أيّها الشابُّ الجميل؟

ثم اقتربتْ منّي حتى كادت أن تلتصق بي وقبَّلتني على خدّيّ.

قال أبوها وهو منفعل، مخاطبًا أبي باللغة العربيّة الفصحى نفسها:

ـ أنظرْ يا شيخ عبد الهادي. أنظرْ كم هي حنونةٌ وتحبّكم!

أطرق أبي برأسه إلى الأرض وبدا عليه الارتباك. لأوَّل مرَّة أرى والدي في هذا الوضع؛ فهو دائمًا ينظر في عيْنيْ محدِّثه بثقةٍ ونظرةٍ عميقة متفهِّمة، مع قليلٍ من أمارات الضجر التي تظهر عادةً على الناس الذين شبعوا من الحياة وخبروها جيِّدًا ثم وُضعوا في موقفٍ تكرَّر عليهم كثيرًا وهم مضطرُّون إلى مجاراة الناس الذين أمامهم.

أفلتتْ كتفيّ ونظرتْ إلى الشيخين الكبيرين ثم ضربت الأرضَ برجلها وقالت بحدّة:

ـ أنا لم آتِ إلى هنا لكي أوضعَ في سجن!
وبحركة نزقة التفتت إليّ وخاطبتني:
ـ قل لهم... قل لهم يا ٱبن عمِّي إنّ من حقِّي أن أرى هذه البلاد وأن أخرج من السجن الذي وضعوني فيه منذ ثلاثة أيَّام مع النساء.

رفع أبي رأسه وشمل الجميعَ بنظرة متأنِّية وملولة، وقال:
ـ أدخلي الآن يا بنتي إلى الداخل وسنحلّ المشكلة إنْ شاء الله.
أمسكتْ بيد أبيها وسارا باتّجاه المجلس مبتعديْن عن القصر. دخلت الفتاة الشقراء، بينما وقفتُ ومعيوف ننظر إليها وهي داخلة تهزّ ردفيْها.

عندما هممتُ بأن أدخل أيضًا، وكان الشيخان قد ابتعدا، رأيتُ والدي قد أوقف الشيخَ حيث وصلا، وعاد أدراجه نحوي، فوقفتُ. وضع يده على كتفي وسحبني بعيدًا عن معيوف. قال وهو يتنهَّد:
ـ يا بنيّ، أريدك أن تحلّ هذه المشكلة. خذها إلى كلّ الأماكن التي تريد أن تراها. المهمّ لديّ أن تبتعد هذه البنتُ عن نسائنا. أبوها رجل محترم، وهم من أقربائنا الذين يقيمون في سراييڤو منذ أكثر من مائتيْ عام، وهو الآن يُعتبر أهمَّ رجل دين مسلم في تلك البلاد. وابنته قد لا تكون سيِّئة، ولكنّها لا تعرف عاداتنا، أو أنّها اعتادت العاداتِ الأوروبيّة. لا أدري لِمَ أحضرَها معه! اللّهم أبعدْ سوءَ الظنّ عنّا، ولكنْ يبدو أنّه لا يطمئنّ إذا تركها بعيدًا عن رقابته. على كلٍّ، إفعلْ ما طلبتُه منك، وسنرى بعد ذلك كيف يمكن أن تنتهي هذه المسألة.
فكَّرتُ بالمهمّة التي أوكلها إليّ أبي. انتويتُ أن أستشير أمِّي في الموضوع. ولكنْ عندما ولجتُ جناحَ الرجال رأيتُ ثلاثَ خادمات قد تجمّعن أمام الدرَج الداخليّ للقصر وقد بدت عليهنّ علاماتُ الحيرة

والارتباك. ومن دون أن أسألهنّ شيئًا بادرتْ إحداهنّ بالقول بانفعالٍ واضح:

ـ يا عمِّي، البنت الأجنبيّة في غرفتك!

ـ في غرفتي؟! كيف دخلتْ؟ ماذا تفعل في غرفتي؟!

ـ يا عمِّي، لا نعرف شيئًا. رأيناها فجأةً هنا، وسألتْ عن غرفتك ثم دخلتْ إليها وأغلقت الباب!

صعدتُ الدرجَ مسرعًا. فتحتُ بابَ غرفتي لأجدها وقد انبطحتْ على بطنها فوق سريري وتنُّورتُها تكشف عن نصف فخذيْها، وهي منهمكةٌ في قراءة كتابٍ ما.

وقفتُ مكاني وأنا ممسكٌ بيد الباب محاولًا أن أستوعب ما يجري. التفتتْ إليّ ثم اعتدلتْ في جلستها من دون أن تهتمّ بتغطيةِ ما يَظْهر من فخذيها أثناء جلوسها. وبابتسامةٍ خاطبتني:

ـ ابن عمِّي الصغير؟ أهلًا بك. لماذا تقف؟ أدخلْ وأغلق الباب، هذه غرفتك!

كنتُ قد بدأتُ أغتاظ من وصفها لي بالصغير. أنا لست صغيرًا. لقد أصبحتُ رجلًا وأمضيتُ عامًا كاملًا في الخلوة. الجميع هنا يحترمني ويقبِّل يدي. فلماذا تتعامل معي بهذه الطريقة المزعجة؟! ورغم أنَّ الوضع بمجمله قد بدأ يروق لي وأحسستُ بالاستمتاع والإثارة من خلال احتكاكي لأوَّل مرَّة في حياتي بفتاةٍ ما، وفوق هذا تتمتّع بكلِّ هذا الجمال وهذه الجرأة، فإنَّني سألتُها بجفافٍ وأنا في مكاني:

ـ ماذا تفعلين هنا؟ كيف دخلتِ إلى غرفتي؟ ألا تعرفين أنَّ هذا جناحُ الرجال وأنّ مكانك هو في جناح النساء؟

بخفّةٍ قفزتْ واقفةً وهي تضحك. قالت:

ـ جئتُ أزور ابنَ عمِّي الوسيم. هل الزيارة أيضًا عندكم ممنوعة؟ ثم سأقول لك شيئًا أرجو ألَّا تنساه أبدًا: إنَّ قوانينكم لا تهمّني.

تقدَّمتْ نحوي وهي تتكلَّم. وعندما أنهت الكلمةَ الأخيرة وصلتْ إليّ. أمسكتني من كتفي وسحبتني إلى الداخل ثم أغلقت الباب. قالت:

ـ أدخلْ واجلسْ. أريد أن أسألك سؤالًا: لماذا لا يوجد لديكم هنا غيرُ الكتب العابسة والمتجهِّمة؟

تذكَّرتُ الخادمات المتجمِّعات أسفلَ الدرج ومعهنّ معيوف. وللتخلُّص من هذا الوضع المربك الذي خشيتُ أن يصل إلى أبي، قلتُ لها:

ـ لقد سمح والدي بأن آخذك إلى أيّ مكانٍ تريدين زيارتَه.

ـ صحيح؟!

قالتها بفرح حقيقيّ، وألقت بنفسها عليّ. عانقتني. ضغط نهداها على صدري والتصق جسدُها بكامل جسدي. قبَّلتني على خدَّيَّ وملأتْ رائحتُها تجويفَ رأسي. دام هذا الوضع بضعَ ثوانٍ كانت كافيةً لتهيِّجني بشدّة. ولولا انفصالُها عنِّي في الوقت المناسب لكنتُ قذفتُ في ثيابي.

وكأنّها لم تلحظ شيئًا ممّا أصابني، فقد سحبتني من يدي بقوّة. فتحتِ البابَ وهي تصيح بلغتها العربيّة المتكلِّفة:

ـ هيّا... هيّا لنخرج من هذا السجن اللعين.

في منتصف الدرج، وعلى مرأًى من معيوف والخادمات، استطعتُ إيقافَ اندفاعتها. أفهمتُها أنّنا لن نستطيع أن نذهب اليوم إلى أيِّ مكان لأنَّ الظلام بدأ يحلّ في الخارج، وأنّني غدًا صباحًا سوف أصطحبُها إلى المعبد الإغريقيّ، أو إلى النهر الكبير الجافّ، أو إلى الينابيع الخمسة المنتشرة على حوافّ البلدة، أو إلى أيِّ مكان آخر

تريد، وأنّ خير ما نفعله الآن هو أن نذهب إلى أمّي لإخبارها بموافقة الشيخ عبد الهادي على خروجنا معًا. وطلبتُ إلى إحدى الخادمات أن تذهب إلى أمّي لإخبارها.

عادت الخادمة: أمّكَ تنتظرك.

انتقلنا معًا من جناح الرجال إلى جناح النساء، ورأيتُ أمّي جالسةً في البهو تنتظر. أخبرتُها بما قال والدي، فلم تعلّقْ على الموضوع وإنْ رأيتُ بعضًا من نظرات عدم الرضى في عينيْها. وبعد أقلّ من ساعة ودّعتها وخرجتُ.

صباحَ اليوم التالي استيقظتُ على شيء يتحرَّك إلى جانبي تحت اللحاف. استيقظتُ فورًا، وإذ بها قد تمدَّدتْ إلى جانبي وهي تهزّني وتطلب إليَّ بصوت خافت أن أستيقظ. سألتُها مستغربًا عمّا تفعل هنا في هذا الوقت. لم تجبني، وإنّما مدّت يديها إلى خاصرتي وأخذتْ تدغدغني، لم أعرف كيف تحرّكتْ أو كيف فعلتْ ما فعلت، ولكنّها بلحظة واحدة كانت قد أصبحتْ تحتي، ساقاها متباعدتان قليلًا وأنا في حالة الانتصاب الصباحيّ. ورغم أنّها قد تفاجأتْ فإنَّها سرعان ما لفّت يديها حولي وجذبتني بشدّة. ثوانٍ وحصل ما لم يحصل البارحة وانفجرتْ براكيني التي ملأتْ لباسي الداخليّ وحتى منامتي. أحسّت بما حدث، فأرخت يديْها، إلى أن شعرتْ بأنّ الأمر انتهى وأنّني قد هدأتُ. أمسكتْ برأسي وقبّلتْ شفتيّ بقوّة، ثم نظرتْ في عينيّ وهي تقول:

ـ يا مسكين! ألهذه الدرجة أنت محتقن؟! أليستْ لديك صديقة في مكانٍ ما؟ إنزلْ عنّي كي لا تلوّث ثيابي.

تمدّدتُ إلى جانبها وأنا أشعر بشيء من الارتباك والخجل. برودةٌ ولزوجةٌ في أسفل بطني، وفي منطقة العانة. سألتُها إنْ كان أحد قد

رآها وهي تدخل. نفتْ، وأكّدتْ أنّها قد تسلّلتْ كما يتسلّل اللصوص. اعتدلتْ وأسندتْ ظهرَها إلى مسند السرير. لعبتْ بشعري، ثم مالت نحوي وقبّلتني قبلةً طويلةً من فمي. أنهت قبلتها وهي تقول:

ـ تعال... سأنظِّفكَ بنفسي.

رفضتُ، لكنّها جرّتني إلى الحمّام جرًّا. أغلقتْ بابَ الحمّام وبدأتْ بتعريتي من ثيابي. وكلّما أبديتُ ممانعةً بدافع الخجل كانت تنهرني كطفل صغير.

نظّفتني بعناية، وأطالت التنظيفَ عندما وصلتْ إلى العضو التناسليّ؛ أطالته إلى درجة عرفتُ معها أنَّ الأمر قد تعدّى مسألة التنظيف. تهيَّجتُ كثيرًا وبدأتُ بالانتصاب من جديد. كان رأسها قريبًا منه. دنت منه، قبّلتْه ولعقتْه بلسانها. طار منّي كلُّ ما تبقّى من خجل وارتباك. أمسكتُها وسحبتُها نحو السرير، وأنا لا أزال أقطر ماءً. بالقرب من السرير طلبتْ منّي أن أنتظر. عدتُ إلى الباب وأغلقتُه بالمفتاح رغم أنّني أعرف أنْ لا أحد سيدخل مهما كان السبب. بدأتْ بخلع ثيابها بهدوء، ومع كلّ قطعة ثياب تخلعها كنتُ أزداد هياجًا وتصلّبًا.

استلقت على السرير ونادتني، فهجمتُ كالذئب المسعور. كنتُ لا أعرف كيف يفعل الرجال هذا الأمر؛ فهي المرّة الأولى التي سيحصل لي فيها هذا الأمر. قادتني بخبرة المحترفين. دخلتُ هذه الجنَّة، وحلّقتُ في السموات السبع وأنا أهتزّ وأرتعش. وصلنا إلى الذروة معًا، والتحم جسدانا في جسدٍ واحد.

بمجرّد انفصال جسدينا وتمدُّدي إلى جانبها تكوَّرتْ على نفسها مغمضةَ العينين، وأخذتْ وضعيّةَ الجنين، ضامّةً راحتيْها تحت خدّها. بقيتْ أكثر من نصف ساعة على هذا الوضع وأنا إلى جانبها منتشيًا

أستمعُ إلى تردُّد أنفاسها. فتحتْ عينيها ببطء، فرأتني أتأمّل وجهَها. ابتسمت ابتسامةً كسولةً ووضعتْ يدها على خدِّي تداعبه، ثم قالت وهي تقترب بجسدها منِّي:

ـ آه.. شيء لذيذ. أنت وسيم وجميل يا بن عمِّي، ولكنَّك لا تعرف شيئًا في أمور الحبّ! ولكنِّني سأعلّمك... سأعلّمك!

كان هذا وعدًا أوفت به بطريقةٍ لم أكن أحلم بها أو أتوقّعها. وقد أوفيتُ بوعدي لها بأن نزور كلّ الأماكن التي تريد رؤيتَها. وبدأنا بالنهر الكبير الجافّ.

إلى الشرق من البلدة بحوالي ثلاثة كيلومترات يقع مجرى النهر الكبير. نهر عملاق تدلّ عليه سعةُ مجراه وعمقُه، ولكنْ لا ماء يجري فيه. منذ سنوات طويلة توقّف عن التدفُّق، مخلِّفًا بعضَ البرك المتناثرة على طول المجرى. بعض هذه البرك كبير وعميق، يتقافز السمكُ في مياهه؛ وبعضُها الآخر صغير وموحل. وحول جميع البرك نَمَتْ غاباتٌ حقيقيّةٌ من أشجار الصفصاف والحُور وأدغال الطرفاء.

عندما وصلنا إلى حافّة المجرى انبهرتْ مريم بجمال المنظر (في الطريق كانت قد أخبرتني أنّ أباها قد سمّاها مريم، بينما تفضِّل أن تُدعى ماريّا).

حفرة هائلة ممتدّة شمالًا وجنوبًا إلى مسافات لا يحدّها النظر، حفرتْها مياهُ النهر منذ الأزمان الغابرة، وظلَّت تتدفّق فيها لآلاف السنين قبل أن تنحبس فجأةً. الضفّة الشرقيّة المقابلة عبارةٌ عن تلال وهضاب صغيرة تواكب المجرى حتى النهاية. في الأسفل مجموعةٌ كبيرةٌ من تجمّعات المياه التي تعكس أشعّةَ الشمس بالتماعات متموِّجة ومتقافزة، تحيط بها أدغالٌ من الأشجار ذات الأوراق الفضِّيَّة والخضراء والصفراء بتداخلٍ لونيّ مزركش بديع.

كانت واقفةً على حافّة الجرف العالي مأخوذةً بما تراه. سألتني:

ـ كيف سننزل إلى الأسفل؟

أمسكتُ بيدها وأخذتها إلى الممرّ النازل إلى الأسفل، وكنتُ أعرفه جيِّدًا. سألتني إنْ كنتُ أرتاد هذا المكان كثيرًا. قلت:

ـ نعم، آتي إلى هنا كثيرًا بحكم الضجر الذي يسود الحياةَ في البلدة، ودائمًا آتي لوحدي. حتى إنّني أعرف زوايا لا يعرفها غيري.

ـ مثل ماذا تعرف؟ وهل يأتي أُناس كثر إلى هنا؟

ـ سآخذكِ الآن إلى كهفي السرِّي. أمّا الناس فلا يأتي أحد إلى هنا أبدًا.

عندما وصلنا إلى الأسفل واجهْنا منبسطًا من الرمل الرماديّ الملتفّ حول أحد تجمُّعات المياه. خلعتْ حذاءها وأخذتْ تركض على الرمل الدافئ، وقد رفعتْ يديْها ورأسَها صوب الشمس، وأخذتْ تُطلق صرخاتٍ قويّةً بلغةٍ أجنبيّةٍ لا أفهمها. دارت حول نفسها، ثم استلقت على ظهرها فوق الرمال، مادّةً يديْها على طولهما، وصاحت بملء صوتها:

ـ سلام... ابن عمِّي الصغير، تعالَ إلى هنا.

مرّةً أخرى صغير؟! وبعد كلّ الذي جرى بيننا؟! ولكنْ لم أشعر بأيِّ انزعاج. ذهبتُ إليها. وعندما أصبحتُ إلى جانبها رفعتْ يديها نحوي وصرختْ صرخةً مبحوحة:

ـ خذني... تعال خذني.

أمسكتُ يديْها المرفوعتيْن وقبّلتُهما. سألتها وأنا أنظر في عينيها:

ـ ماذا عليّ أن أفعل؟

همستْ وهي تقف:

ـ لقد نسيتُ أنّك غرّ وأنّ عليّ أن أعلّمك.

بدأتْ بتعريتي. عندما وصلتْ إلى اللباس الداخليّ أبديتُ ممانعةً خفيفة. صفعتني على خدّي برؤوس أصابعها بودٍّ، وطلبتْ إليَّ أن أعرّيها. ثوبٌ وحمّالةُ صدرٍ وسروالٌ داخليّ صغير: كان ذلك كلَّ ما ترتديه. بثلاث ثوانٍ كانت قد أصبحتْ عارية.

فوق رمالٍ تَسْخن شيئًا فشيئًا، وتحت شمسٍ ساطعة، إلى جانب مياه رائقة، وقفنا متواجهيْن عارييْن، تسترنا بعضُ شجيْرات الطرفاء المحيطة بالبركة. نظرتْ إليّ نظرةَ مكرٍ وشقاوة. وضعتْ يديها على صدري، ودفعتني بقوّة. وقعتُ مستلقيًا على ظهري. هجمتْ عليّ وهي تصيح. نامت فوقي وبدأنا نوبةَ تقبيلٍ محمومةً. لفّت ذراعيْها حول عنقي وشدّتني بعنف، في الوقت الذي قَلبتْ فيه نفسَها على ظهرها وقلبتني أيضًا فوقها. لفّت ساقيْها حول خصري وبدأنا التدحرجَ فوق الرمال وشفاهُنا متداخلة، نتدحرج يمنةً ويسرةً، ذراعاها حول رقبتي، وساقاها حول خصري تزدادان قوّةً وشدًّا. وبعد عدّة دحرجات لم أعرف كيف وصلتُ إلى الانتصاب، ولا كيف تمّ الإيلاجُ في اللحظة التي كانت فوقي. وصرختْ بقوّة:

ـ إهدأ وابقَ على الوضع نفسه. آه كم أحبّ هذه الوضعيّة!

مغمضةَ العينيْن، يداها على صدري، تصعد وتنزل وهي تتأوّه تأوّهاتٍ ترتفع وتيرتُها مع سرعتها المتزايدة في الصعود والنزول، وأنا أكاد أذوب شهوةً ولذّةً. في اللحظة الأخيرة، وقبل الانفجار، بدأتُ أهمهم وأحمحم، رافعًا وسطي نحوها، محاولًا الوصولَ أعمقَ فأعمق. ثانيةٌ واحدةٌ وانفجر البركان، وتعالت أصواتُ لذّتي، مصحوبةً بصرخاتها الوحشيّة التي أجبرتني على أن أفتحَ عينيّ. رأيتُها ترتعش بشدّة، وترتعش معها كلُّ النباتات والأشجار المحيطة بنا. رأيتُ مياهَ

البركة الرائقة الصافية وقد اضطربتْ بشدّة، مشكِّلةً أمواجًا صغيرةً متلاطمة. وعندما هدأت الصرخاتُ مالت بجسدها نحوي وافترشتْ صدري، مادَّةً ساقيها إلى الخلف، ثم لاصقتهما معتصرةً عضوي بقوّة. بقينا على هذا الوضع فوق الرمال وتحت الشمس قرابةَ نصف ساعة، انزلقتْ بعدها إلى الرمال متكوِّرةً بوضعيّة الجنين، واضعةً يديْها المضمومتيْن وسادةً تحت رأسها.

نهضنا بتكاسلٍ وانتشاء. قالت بهدوء شديد:

ـ تعالَ ننزل إلى الماء، فالجوّ غدا حارًّا.

ملتفّيْن بعضنا حول بعض انزلقنا داخل المياه الباردة والمنعشة ونحن متلاصقان.

بعد أن خرجنا من الماء رفضتْ أن ترتدي ثيابَها، ومنعتني من أن أرتدي ثيابي. أفهمتني أنّنا يجب أن نعيش ضمن هذه الطبيعة البدائيّة وكأنّنا أوّلُ رجل وامرأة على وجه الأرض. «نحن آدم وحوّاء»، قالتها وهي تضحك بحبور؛ وطلبتْ أن نذهب إلى الكهف السرِّيّ.

لدخول الكهف صعدنا قليلًا من خلف الأشجار، نحمل ثيابَنا بأيدينا. كنتُ خجلًا ومرتبكًا وهي خلفي، مؤخِّرتي على مستوى رأسها وأنا أصعد أمامها، لكنّها لم تكن تهتمّ بذلك. وإذ دخلْنا منحنييْن سألتني:

ـ هل أنت متأكّد أنْ لا وحوشَ أو أفاعيَ داخل الكهف؟

طمأنتُها وقلت لها إنّني منذ أسبوع تقريبًا أمضيتُ في الكهف قرابة الساعتين.

رغم ضيق المدخل فإنَّه كان يسمح لضوء النهار بأن يدخل ليخفِّف من عتمة الكهف. احتجنا إلى دقائق حتى تعوّدتْ أعينُنا على الرؤية. وعندما رأت كلّ الكهف من الداخل صاحت:

ـ رائع! هذا هو بيتنا. سنعيش هنا يا زوجي العزيز! يا بن عمّي، لماذا أنت صغير؟ آه لو كنتَ أكبرَ من ذلك ببضع سنوات لكان الأمر مثاليًا.

قرصتني من خدّي. ثم فرشتْ ثوبها على أرض الكهف الرمليّة، وإلى جانبه فرشتْ قميصي أيضًا. تمدّدتْ فوقهما ودعتني إلى النوم قربها.

ونحن نحتضن بعضنا بعضًا عاريَيْن في عتمة الكهف الخفيفة تحدّثنا كثيرًا. سألتني عن جفاف النهر. أجبتها:

ـ لقد جفّ النهر قبل مولدي بزمنٍ طويل، ولا أحد يعرف السبب. ولكنّني عندما كنتُ صغيرًا سألتُ جدّتي عن ذلك، وكانت تجاوزت الثمانين، فقالت لي:

ـ لقد جفَّ النهرُ يا بنيّ بسبب ظلم الإنسان. أنتَ ما زلت صغيرًا، ولكنْ عليك أن تعرف أنّ النهر مثل البشر، له روحٌ، ويحسّ ويتألّم مثلنا تمامًا. وقد حدث أنّه عندما كنتُ ما أزال شابّةً، حصلتْ في الشمال البعيد وقريبًا من منابع النهر مذابحُ وفظائعُ لا تصدَّق. كانوا يذبحون النساءَ والأطفالَ والرجالَ بالسكاكين والسيوف والخناجر، ويرمون الجثثَ في النهر. وكانوا يربطون المئات بحبلٍ واحدٍ ويُلْقون بهم في النهر ليغرقوا. إذا رأوْا امرأةً حبلى يتراهن جنديّان إنْ كان الجنينُ ذكرًا أو أنثى، فيشقُّون بطنَها ليعرفوا مَن سيكسب الرهان، ثم يلقون بالجثّتين في النهر. مياه النهر، على غزارتها، تغطّتْ بطبقة من الدهن الإنسانيّ، حتى إنّنا بقينا فترةً طويلةً لا نستطيع أن نشرب منه؛ ومَن يفعل ذلك فقد يمرض أو يموت. بعد هذه المذابح بقليل بدأ النهرُ بالجفاف، إلى أن أصبح كما تراه. أظنُّ يا صغيري أنّه قد جفّ من الحزن والألم والقهر.

نظرتْ مريم إليّ وحاجباها معقودان:

-.هل تريدني أن أصدِّق هذا؟

بقينا نتحدَّث ونمارس الجنسَ حتى المساء. وتولَّت تعليمي كما وعدتْ. لم نمارس الوضعيَّةَ ذاتَها مرَّتيْن، بل كانت تختار الوضعيّة، وبعد أن ننتهي ونستعيد قدرتَنا على الكلام تشرح لي الوضعَ الذي مرّ. وبين كلّ مرَّتين نذهب إلى إحدى البرك لنسبح ونغتسل ونشرب من مياه النبع الصغير. سألتُها متردِّدًا عن علاقاتها السابقة وعن غشاءِ البكارة وأين تعلّمتْ كلَّ هذا. ولدهشتي أجابتني بكلّ بساطة، حتى إنّها لا تذكر متى تخلّصتْ من الغشاء؛ «قد يكون عندما كنتُ في الرابعة عشرة». أفهمتني أنّ الوضع في بلدهم يختلف عمّا لدينا هنا، وأنّ من حقّها أن تمارس الجنس. وقالت إنَّها تحبّ ذلك كثيرًا، إلى درجة أنّها في بعض الأحيان لا تستطيع النومَ إذا لم تمارسه. وأضافت أنَّ كلّ الناس في بلدها كذلك، والحرِّيَّة الجنسيّة هذه أتت بفضل النظام الاشتراكيّ الذي أسَّسه «الزعيمُ الكبير جوزيف بروز تيتو»، وهي تحبّ الزعيم أكثر ممّا تحب والدها. (أنا بدوري أحببتُ هذا النظام الاشتراكيّ الذي لا أعرف عنه شيئًا).

بقينا شهرًا كاملًا، نحمل الكثيرَ من الطعام معنا، ونذهب لنعيش طوال اليوم في الكهف وبين الأشجار وفوق الرمال الساخنة. كلَّ يوم تعلّمني شيئًا جديدًا، ودائمًا تطلق على الجنس اسمَ الحبّ. مرَّةً، ونحن نقف في إحدى البرك والماءُ يغمرنا إلى ما فوق الصدر، سألتني:

- ألا تريد أن نمارس الحبَّ في الماء؟

اقتربتُ منها لنغيب في قبلةٍ طويلة. لم يبق جزءٌ من جسدها إلَّا وقبّلتُه، ولم يبق جزءٌ من جسدي إلَّا وقبّلتْه. نغطس تحت الماء

للوصول إلى الأجزاء المغمورة من جسدينا. لفّت يديها حول رقبتي، وساقيها حول خصري، وكان أمرًا مذهلًا لي. عندما انفجرنا كدنا أن نقع في الماء.

في أحد الأيّام الأولى من ذلك الشهر الذي عشناه معًا أحضرنا معنا ملاءةً سميكةً ووسادةً وضعناهما في الكهف. وهكذا أصبحنا ننام ساعتين أو ثلاثًا عند الظهيرة من كلّ يوم، الأمر الذي يساعدنا على تجديد قوانا. وبعدها ننطلق لنستكشفَ ما حولنا من طبيعة، وتفاجئني دائمًا بابتكاراتها المدهشة.

نخرج من الكهف بعد النوم فتنطلق راكضةً أمامي. أحاول أن ألحق بها، فتتّجه نحو دغل من الأشجار الكبيرة، وتختبئ خلف إحداها. أبحث عنها إلى أن أجدها. ولكنْ مرّةً عجزتُ عن إيجادها فوقفتُ محتارًا أتلفّت حولي. بعد دقائق سمعتُ ضحكتها من مكانٍ عالٍ. رأيتُها وقد تسلّقتْ إحدى الأشجار الكبيرة وتحاول أن تختبئ خلف أوراقها وأغصانها. تقدّمتُ إلى أن أصبحتُ تحت الشجرة وناديتُها. مدّت رأسَها وقالت:

ـ هيّا تسلّق الشجرة. ألا تريد أن نمارس الحبَّ مرّةً فوق الشجرة؟

تسلّقتُ و«مارسنا الحبّ» ـ كما تقول هي ـ فوق الشجرة.

بعد بضعة أيّام من بداية طقوسنا في هذا الشهر العظيم، كنتُ أصل أحيانًا إلى درجة كبيرة من الإعياء والإنهاك، وينتابني الملل، ليصل الأمرُ بي إلى كره الجنس والقرف من العمليّة الجنسيّة، وأتمنّى أن يحدث شيء يعطّلها عن المجيء غدًا. لكنّ هذا الإحساس سرعان ما يتبدّد في صباح اليوم التالي، إذ أكون قد استرحتُ واستعدتُ قواي؛ وإذا حدث أن تأخّرتْ مريم قليلًا في المجيء كنت أقلق وتنتابني

الهواجس. وكذلك كان يفارقني هذا الإحساس، ولو وصلتُ درجة الإشباع، عندما تواجهني بشيء جديد ومدهش.

ذات يوم كنّا نتمدّد على الرمل الأبيض قرب بركة كبيرة في ظلّ شجرة عملاقةً. قامت مريم وأخذت تحفر في الرمل بيديها. سألتُها ماذا تريد أن تفعل، فأجابتني بأنّها تريد أن تحفر حفرةً لتدفن جسدَها بالرمل. نهضتُ وقلتُ إنّني سأذهب إلى الكهف لإحضار العنب الذي وضعناه سابقًا في مياه النبع الصغير لكي يكون باردًا عندما نأكله.

الكهف يبعد بضع مئات من الأمتار عن مكان جلوسنا، فاستغرق ذهابي وإيابي حوالى ربع ساعة. وصلتُ إليها، فإذ بها قد غطّت كاملَ جسدها بالرمل الأبيض، ولم يبق ظاهرًا منها سوى وجهها وثدييْها النافريْن. هاجني المنظرُ كثيرًا، فجلستُ إلى جانبها أوزّع قبلاتي بين شفتيْها والحلمتيْن. بعد خمس دقائق نفضتْ عن جسدها الرملَ وهجمتْ عليّ، وأخذنا نتمرّغ فوق الرمل. استمرَّت العمليّة أكثر من نصف ساعة، وتمدّدنا من جديد ونحن نلهث، وقد تكوّرتْ على نفسها، ويداها مضمومتان تحت رأسها. ثم نزلت إلى المياه فورًا، من دون أن تدعوني إلى النزول معها. أخذتْ تغتسل وتفرك الرمل عن جسمها، وطال اغتسالُها. نزلتُ إلى الماء واقتربتُ منها. قلت لها:

ـ ما الأمر... ماذا تفعلين؟

نظرتْ إليّ بغضب مصطنع وأجابت بحدَّة:

ـ ما الأمر؟! ما الأمر؟! لقد ملأتني رملًا! لقد وصل الرملُ حتى آخر مهبلي ـ أليس هذا اسمَه في لغتكم؟ لقد حاولتُ جاهدةً إخراجَ الرمل هذا، ولكنْ ما زال هناك الكثير منه.

رأت ضحكتي فاقتربتْ منّي وصفعتني صفعةً ودّيّةً صغيرة. سحبتني خارج الماء نحو قطعة من الأرض مكسوّةٍ بالعشب الأخضر الذي اصفرّ

بعضُه. استلقت على ظهرها وفردتْ ساقيْها وهي تقول لي:

ـ حاولْ بأصابعك أن تتلمَّسَ حبّاتِ الرمل وتخرجها.

أحسستُ باللهب يخرج من مسامّ وجهي. أحجمتُ برهةً صغيرة ثم بدأتُ بأداءِ ما طلبتْ منِّي فعله. أدخلتُ الإصبعَ الوسطى وبدأتُ أجوس جدرانَ عضوها الداخليّ. دقيقة... دقيقتان... ثلاث أو أكثر قليلًا، لم أستطع العثورَ على حبّة رمل واحدة! ولكنْ... ليس عضوي هو الذي انتصب فقط، بل انتصبتُ بكاملي!

التحمنا من جديد. تعالت صرخاتُنا. لم أكن في السابق أصرخ؛ كانت تخرج منِّي بعضُ الهمهمات والحشرجات وأصوات اللهاث. ولكنْ في هذه المرَّة كنت أصرخ كحيوان ذبيح، ويمتزج صراخي بصراخها الحادّ! وبعد أن حلّقنا عاليًا وهمدنا، همستْ:

ـ لا تنزلْ، دعه في الداخل.

كدتُ أغفو وأنا على هذا الوضع. شيئًا فشيئًا بدأ عضوي ينكمش، إلى أن أوشك على الخروج. انقلبتُ على ظهري إلى جانبها. أمسكتُ يدها وأخذتُ أقبِّل راحتها.

عندما رأيتُ عضوَها التناسليّ أوَّل مرَّة خُيِّل إليّ أنَّه عضوٌ أنيق رغم أنّني لم أكن قد رأيتُ غيرَه قطّ. ومن يومها ـ ولكي لا أنطق باسمه لأنّني أخجل من ذلك ـ أصبحنا نطلق عليه معًا اسمَ «الأنيق». عندما تمدَّدتُ إلى جانبها وبدأتُ تقبيل راحتها قالت بهدوء:

ـ أتركْ يدي وغَطِّ لي بيدك الأنيقَ! ضعْ كامل يدك فوق الأنيق!

فعلتُ ما طلبتْ منّي. الأنيق كان في حجم كفّي. أفهمتني بكلمات متقطّعة أنَّ هناك أُناسًا في السماء يتطلَّعون إلينا وأنَّها لا تريدهم أن يروا الأنيقَ. ولاإراديًّا مددتُ يدي اليسرى وغطّيتُ عضوي أيضًا. بقينا على وضع الاسترخاء هذا قرابةَ الساعة.

كان هذا في اليوم الثلاثين لعلاقتي بابنة العمّ الكبيرة، ابنةِ العمّ التي استقرَّ جدُّها منذ مائتيْ عام في سراييڤو في ظلّ حكم العثمانيين لها.

أكلنا العنب ساخنًا وعدنا إلى البلدة. في الطريق ونحن نجرجر جسديْنا سألتُها:

- هل تعتقدين أنَّ الله موجود؟

كنت أتوقَّع أن تُفاجأ، ولكنّها نظرتْ إليّ بطرف عينها وبلا اهتمام أجابت:

- نعم إنّه موجود، ولكنْ فقط هنا.

وأشارت بإصبعها نحو رأسي. وتابعتْ:

- وأيضًا في رأس أبيك وأمّك وأمثالكم. هل تعرف ماذا نعتقد نحن، أنا والكثير من الناس في بلدنا؟ لقد قال واحد من أساتذتي: «ليس الله هو مَنْ خلق الإنسان، إنّما الإنسان هو مَن خلق الله».

حينها أدهشتني وهزّتني هذه العبارة، قبل أن أكتشف بعد وقت ليس بالطويل إنَّها عبارةٌ مكرورةٌ إلى درجة الابتذال!

واستمرّ حريقُ السؤال عن الله يُلهب عقلي فترةً ليست بالقصيرة. إلى أن كان يومٌ توصّلتُ فيه إلى استعارة العبارة التي سمعتُها من مريم «إنَّ الإنسان هو الذي خلق الله». لا أدري يومها لماذا أحسستُ، وبحدّة، باللاأمان! وكأنّ الله كان وسادةً أضع رأسي عليها فأنام فورًا باطمئنان؛ والأكثر هو شعوري بالفزع، يا أخي. ورغم اقتناعي التامّ آنذاك بصحّة استنتاجي العقليّ، فإنّني بقيتُ ثلاثة أيّام لا أستطيع النومَ خوفًا من انتقام الله منّي لأنّني أنكرتُ وجوده.

وصلنا البلدة. وعلى باب السور الخارجيّ رأيتُ معيوف واقفًا وهو يتّكئ على البوّابة. حين شاهدَنا اعتدل في وقفته، وانتظرني إلى

أن أصبحتُ أمامه. قال بسرعة وكأنّه يصبّ الكلامَ صبًّا:

ـ عمّي الشيخ عبد الهادي ينتظركَ في المجلس الصغير.

مضيتُ أجرّ نفسي جرًّا صوب المجلس الصغير، بعد أن تبادلنا نظرةً طويلةً أنا ومريم.

لم يسبق لوالدي أن نظر إليّ بهذه الطريقة: نظرةً مركّزةً في صميم العينين، مملوءةً بالاستنكار والاحتقار، والتأنيبِ الممزوجِ بخيبة الأمل.

ـ غدًا صباحًا، الساعة السادسة، ستكون السيّارةُ أمام البيت. ستذهب لتوصل أمّكَ إلى حلب.

ـ حاضر.

ذهبتُ إلى حلب مع أمّي التي ظلّت تتشاغل ثلاثةَ أيّام أمضيتُها في النوم. كنت أنام أربع عشرة ساعة في اليوم من جرّاء الإرهاق المتراكم. في اليوم الرابع أوصلَنا السائقُ أمام البيت، وكلّي أملٌ أن أرى غدًا مريم إلى جانبي في السرير وهي تحاول إيقاظي بصوتٍ هامس.

أمضيتُ صباح اليوم التالي أنتظر. قُبَيْل الظهر نفد صبري، فطلبتُ إلى إحدى الخادمات أن تذهب إلى جناح النساء وتقول لمريم أن تأتي ـ متجاوزًا كلّ الحذر المطلوب. لكنّ الخادمة ظلّت واقفةً أمامي كالبلهاء. صرختُ بها، لكنّها ردّت بهدوء:

ـ يا عمّي! مريم وأبوها سافرا منذ يومين.

كرهتُ أبي وأمّي. كرهتُ العالَمَ كلّه، وقرّرتُ لحظتها أن أسافر إليها أينما كانت. سأذهب إليها لأُخرج آخرَ حبّةِ رملٍ لا تزال عالقة. أيّةُ مؤامرةٍ هذه التي حاكوها ضدّي!

بقيتُ ثلاثة أيّام لا أغادر غرفتي مطلقًا. في اليوم الرابع، وقد اشتدّ بي الحنينُ والشوقُ إلى رؤية مريم، ذهبتُ بعد الظهر إلى الكهف. الملاءة والوسادة كانتا حيث نمنا عليهما آخر مرّة. بقايا طعام متعفّن. جلستُ في عتمة الكهف أحاول أن أتخيّل ماذا فعلتْ مريم عندما أبلغوها أنّها ستسافر من دون أن تراني، ربّما، إلى الأبد. هل احتجّت، وهي تلك الروحُ المتمرِّدة؟ ولكنْ هل صحيح أنَّها بدأتْ تحبّني، أمْ أنّني كنتُ مجرّد وسيلةٍ لإرضاء نزواتها الجنسيّة كغيري من الأشخاص الذين عَبَروا حياتها؟ هل تحسّ بالحنين إليّ كما أحسّ، أمْ أنّها تتابع حياتَها الاعتياديّة التي قطعتْها عندما جاءت لزيارتنا؟

نظّفتُ الكهف ورتّبْتُه. وضعتُ الملاءةَ والوسادةَ في أحد الأركان وكأنّنا سنستخدمهما غدًا. عدتُ إلى غرفتي وسريري، وصورتُها لا تفارق عينيّ.

بعد أيّام جاءتني خادمةٌ وأخبرتني أنَّ أمّي تودّ رؤيتي. في جناح النساء كانت أمّي تنتظرني. وبعد كلمات لطيفة كالعادة قالت إنَّ والدي ينتظرني في المكتبة، وإنّها أرادت أن تراني قبل ذلك لتوصيني أن أتجنّب أيّ شيء يمكن أن يغضبه.

حديث أبي كان قصيرًا. قال:

ـ تشاورتُ مع أمّك وقلنا إنّه آن الآوان لنفكّر في زواجك. ما رأيك؟

ـ ما زلتُ صغيرًا ولا أريد الزواجَ الآن.

ـ عمرك سبعة عشر عامًا. جدّك تزوّج عندما كان في الخامسة عشرة.

ـ لا أريد أن أتزوّج الآن.

ـ طيّب... يمكن تأجيلُ موضوع الزواج قليلًا. ولكنْ عندما تغيّر

رأيك أخبرني. أمّا بالنسبة إلى موضوع الدراسة فلقد رتّبتُ الأمر. هناك أساتذة سيبدأون تدريسَكما، أنت وأصلان، منذ الغد في بيته. أريدكَ أن تتقيَّد بالبرنامج.

في اليوم الثاني بدأنا برنامجًا مكثّفًا للدراسة، أنا وأصلان؛ فنحن في صفّ واحد. وطويتُ صفحة مريم / ماريّا، ولا زلت إلى الآن أشعرُ بحنينٍ هائل إلى تلك الأيَّام التي قضيناها معًا. عندما أفكِّر بالمرأة تَحْضُرُ ملامحُها هي. سأقول لك شيئًا يا أخي: لقد عرفتُ بعضَ النساء بعدها. قد تكون المرأة التي معي أجمل، لكنْ وكما قال أحدُهم: «إنّ أيّةَ عمليّةٍ جنسيّةٍ بين رجل وامرأة يشارك فيها أربعةُ أشخاص، هما ـ إضافةً إليهما ـ الرجلُ الذي تتخيَّله المرأةُ، والمرأةُ التي يتخيّلها الرجلُ».

وأنا أعترف أنّ مريم كانت حاضرةً في كلّ النساء اللواتي عرفتهنّ بعدها.

* * *

توقَّف سلام عن الحديث، ونظرُه بعيدٌ عنّي مصوّبٌ تجاه نقطةٍ ما في النافذة العريضة. عيناي مركّزتان عليه، ولا أعرف إنْ كانت للحديث تتمّةٌ أمْ لا.

ومع استمرار الصمت كانت الأسئلة تَطْرق ذهني: هل هو حديثُ رجلٍ لا زال يعيش المراهقةَ ويريد التباهي والتبجُّحَ ببطولاته الغراميّة وخروجه عن المألوف عبر إعلان إلحاده؟! أمْ هي الحاجة الإنسانيّة إلى البوح بالمكنونات والخصوصيّات من رجلٍ لم توفِّرْ له الظروفُ تواصلًا حميميًّا مع أيّ أحدٍ إلى أن جَمَعَنا القدرُ؟

## (٥)

عند العاشرة صباحًا ـ حسب الموعد ـ كنتُ أمام المجلس الصغير. وجدتُ شيخًا في منتصف العمر يرتدي الثيابَ الأوروبيّة ويضع ربطةَ عنقٍ أنيقة، وفي الوقت نفسه يرتدي الكوفيّة والعقال. كان واقفًا يتحدّث مع أبي معيوف عندما وصلتُ. سلَّم عليّ بسرعة وانتحى بي جانبًا وهو يقول بصوتٍ أقربَ إلى الهمس:

ـ أريد أن أنبِّهك إلى مسألة واحدة فقط. سندخل الآن عند الشيخ عبد الهادي ولا أعرف ماذا يريد منك، ولكنَّه يكره أن تَرفض له طلبًا. وإذا أراد أن يعطيك شيئًا فلا تقلِ أريدُ ولا أريد.

أومأتُ برأسي موافقًا، ودخلنا عند الشيخ.

بعد التحيّة أشار إلينا بأن نجلس إلى جانبيْه. المكان نفسه، والجلسة نفسها التي رأيتُه عليها سابقًا، وكأنّه لم يبرحْ مكانه قطّ. ربَّت على كتفي مع ابتسامة سمحاء وملولة في الوقت ذاته، وأعاد الترحيب بي مرَّةً أخرى. خرج أبو معيوف بعد أن انتهى من توزيع القهوة علينا. التفت الشيخ عبد الهادي صوب الشيخ الآخر، وقال بلهجةٍ آمرةٍ ولكنْ رقيقة:

ـ يا شيخ حسن، هذا ولدنا الجديد! أريد منك أن تأخذ تذكرةَ

هويّته وتذهب اليوم إلى حلب. وخلال أسبوع، ريثما يرتاح مع سلام هنا، تكون قد اشتريتَ له بيتًا «واسعًا وشرحًا»، وتسجّله باسمه، ثم تفرشه بكلّ ما يلزم. هذا أوّلًا. أمّا ثانيًا فأريد أن تخصّص له راتبًا يكفيه، واحرصْ على أن يصله أوّلَ كلّ شهر.

تحرّكتُ من مكاني، ثم رفعتُ يدي من دون أن أقول شيئًا؛ حتى إنّني لا أعرف إذا كنتُ أريد أن أقول شيئًا. لكنَّ الشيخ عبد الهادي لاحظ حركتي فأشار بيده إليَّ بمعنى: «كفى... و... لا تقل شيئًا». وبصوت أعلى قليلًا من المعتاد قال:

ـ إنَّ لك دينًا كبيرًا في عنقنا. ثم إنّك أصبحتَ واحدًا منّا.

نظرتُ نحو الشيخ حسن فرأيتُ في عينيه نظرةً صارمةً ومؤنّبة، فهمدتُ.

تململ الشيخ حسن وسأل الشيخ عبد الهادي:

ـ هل تأمرني بشيءٍ آخر يا عمّي؟

ـ لا... الله يعطيك العافية.

عندها نهض الشيخ حسن وأشار إليّ برأسه أن أفعل مثله. ودَّعْنا الشيخ عبد الهادي وهو في جلسته تلك، وخرجنا.

يمّمتُ وجهي صوب بيت أصلان لأنَّ سلام، كان قد طلب منّي أن ألاقيه هناك بعد انتهاء موعدي مع أبيه. التقيتُ سلام على الطريق أيضًا، ومعه معيوف. لم يسألني عمّا دار بيني وبين والده، وكأنَّ الأمر لا يعنيه؛ حتى إنّني بدأتُ أميل إلى الاعتقاد أنَّ كلّ شيء قد تمّ الاتّفاقُ عليه بين الاثنين نتيجةً لتخوُّف سلام من رفضي أيّ شيء يعرضه عليّ، بينما لا أستطيع أن أرفضه من الشيخ عبد الهادي. ولكنّي بادرتُ بسؤاله:

ـ من هو الشيخ حسن؟

ـ لماذا تسأل؟ هل قابلتَه؟

ـ نعم.

ـ الشيخ حسن يُعتبر الذراعَ اليُمنى لوالدي. هو في الأساس محامٍ، ولكنَّه يتولّى هنا جميعَ المسائل القانونيّة والماليّة. هو من أقربائنا البعيدين، ولكنّه محلّ ثقة والدي.

دخلنا بيتَ أصلان الذي رحَّب بنا كثيرًا. جلسنا في غرفة الاستقبال. دخلتْ علينا امرأةٌ مسنّةٌ سلّمتْ علينا بمودّة، ثم ذهبتْ مع معيوف وجلسنا ثلاثتنا في باحة الدار.

قبل حوالى عشرين عامًا، كانت نساءُ القصر يذهبن للاستحمام في الحمّام التركيّ الذي أُقيم فوق أحد الينابيع الخمسة الموجودة في هذه الهضبة. وكان يوجد طاقمٌ كاملٌ من الخادمات ذوات الاختصاصات المتعدِّدة، بدءًا من الغاسلات والمليِّفات والمدلِّكات، وانتهاءً بالماشطات. في ذلك الوقت كانت أمُّ سلام ما تزال صغيرةً، ولا أولاد لها غير عبد السلام وأخته التي تليه. ذاتَ يوم عادت بعد الانتهاء من طقوس الحمّام إلى البيت. في الطريق، رأت جسدًا آدميًّا صغيرًا متمدِّدًا على الأرض، وقد أسند رأسَه على كومة تراب. أوقفتْ بإشارةٍ من يدها الموكبَ المؤلَّفَ من نساء القصر والخادمات، ثم هرعتْ صوب الجسد. طفلٌ في الرابعة أو الخامسة من عمره، ذو ثياب قذرة، وبعضُها ممزَّق، تغطّي جبينَه طبقةٌ حواريّةٌ بيضاء من العرق الجافّ. هزّته، فاستيقظ مترنِّحًا:

ـ يا ولدي، ابنُ مَنْ أنت؟ لماذا تنام هنا؟ أين أهلك؟

نظر الطفلُ نظرةً ملؤها النعاسُ وعدمُ الفهم. أَمرت أُمُّ سلام إحدى الخادمات بحمله، وذهبتْ به إلى القصر.

حاول الشيخ عبد الهادي خلال الأشهر التالية، وعبر العديد من

رجاله، البحثَ عن أهل «أصلان» في جميع المناطق التركيّة، التي لا تبعد سوى بضعة عشر كيلومترًا شمالًا؛ فأصلان لا يتكلّم سوى اللغة التركيّة. لكنّ جميعَ الجهود باءت بالفشل.

حمل له أحدُ رجاله حكايةً غامضةً عن حادثٍ جرى في بلدة تركيّة قد يكون بطلاها والدَ أصلان ووالدته. روى الرجل، نقلًا عن أناس في تلك البلدة، الرواية الآتية:

كانت أمّ أصلان امرأةً فائقةَ الجمال. بعد أن أنجبتْ صبيَّيْن وقعتْ في حبّ رجل غريب وَفَدَ إلى منطقتهم لقضاء عملٍ ما. كان الصبيُّ الكبير في الرابعة أو أكثر قليلًا، أمّا الصغير فلم يكن قد أتمّ سنته الأولى بعد. لبّت المرأةُ نداءَ قلبها ودعوةَ عشيقها، فتركت الصبيَّ الكبيرَ في البيت، وحملت الصغيرَ وهربتْ بعيدًا مع الرجل الذي أحبّته إلى جهةٍ غير معروفة. وحين عاد الزوجُ إلى بيته واكتشف الأمرَ، غلى الدمُ في عروقه، وحمل بندقيّتَه، ومضى يبحث عن الهاربين لينتقم لشرفه الملوَّث.

ولنهاية الموضوع روايتان. تقول الأولى إنّ الزوج وجد العاشقَيْن على بعد أكثر من ألف كيلومتر شمالًا، وإنّه قتلهما فورًا وسلّم نفسَه إلى السلطات. والرواية الثانية تقول إنّه انتحر بعد أن قتل العاشقَيْن، فبقي الصبيّان وحدهما، فوُضع الصغير في ملجأ للأيتام في المدينة التي تمّ فيها القتل؛ أمّا أصلان ـ وبعد أن سار على غير هدًى مسافاتٍ طويلة ـ فقد قادته المصادفة إلى الخالديّة، حيث وجدتْه أمُّ سلام.

سمع الشيخ عبد الهادي هذه الروايات، فطلب إلى الرجل الذي حملها إليه ألّا يحكيها لأحد، واستجاب لطلب زوجته ـ التي تعلّقتْ بأصلان ـ أن يبقى الصغيرُ عندهما إلى أن تنكشف الحقيقة. بعد عامين، وكان أصلان قد تعلَّم العربيّة جيِّدًا، افتُتِح أوّل صفّ في أوّل مدرسة رسميّة أُقيمت في البلدة نتيجةً لجهود الشيخ عبد الهادي، الذي يذكر

جيّدًا معاناتَه عندما أرسله والدُه إلى حلب ليدرس هناك لأنّه لم تكن توجد مدرسةٌ في الخالديّة. كان سلام وأصلان، الذي أصبح اسمُه أصلان آل الشيخ، أوّل تلميذين في هذا الصفّ، وانضمّ إليهما فيما بعد بضعة عشر تلميذًا. ومع بداية كلّ عام دراسيّ كان يُفتتح صفٌّ جديد.

يوميًّا يسير سلام وأصلان، ومن خلفهما معيوف الذي يحمل حقيبةَ سلام إضافةً إلى حقيبته هو؛ أمّا أصلان فيحمل حقيبتَه بنفسه. ويدخل الثلاثة إلى الصفّ نفسه حيث يتلقَّوْن الدروسَ نفسَها.

منذ مئات السنين، وإلى زمنٍ ليس ببعيد، كانت العبوديّة بمعناها الحقيقيّ ما تزال موجودة. وكانت هناك سوقٌ لبيع العبيد ولشرائهم، وكانوا في غالبيّتهم من السود. الجدّ الأكبر لسلام، وكان قد نجا من المذبحة وهو أوَّل مَن بنى بيتًا في الخالديّة، اشترى الجدَّ الأكبرَ لمعيوف، وذلك بعد أن أحسّ أنّ وضعه قد استقرّ. في العام التالي اشترى عبدةً، وزوّجها إلى عبدِه الشابّ، وأعطاهما غرفةً يسكنان فيها داخل تلك الدار الفسيحة. العبد مختصّ بخدمة الشيخ، والعبدة مختصّة بخدمة الشيخة. ومع مرور الأيَّام بدأ السادةُ والعبيد يتناسلون، وكلّما أنجب الشيخُ ولدًا خصَّصَ له عبدًا من أولاد العبيد يقاربه في السنّ، وخَصَّصَ للبنت عبدةً صغيرة، فيَكبر الطرفان معًا، ويتلازمان إلى أن يفرِّق الموتُ بينهما. في العصر الحديث، عندما اضمحلّ نظامُ العبوديّة، تحوّلت العلاقة بين السادة والعبيد إلى علاقة ولاءٍ بدلًا من عبوديّة. واستمرّت الحالُ على المنوال نفسه، ولكنْ من دون إكراه؛ فأبو معيوف يلازم الشيخ عبد الهادي منذ أكثر من ستّين عامًا، وأمّ معيوف هي الخادمة الشخصيّة لأمّ سلام، ومعيوف يلازم سلام منذ حوالى خمسة وعشرين عامًا. وحين أصبح أولادُ الشيخ عبد الهادي الأربعة يذهبون إلى المدرسة كان يمشي خلفهم معيوف وثلاثةٌ من أشقّائه: يَحملون لهم الحقائب، ويدخلون معهم إلى الصفوف ذاتها،

وهم مسجَّلون كتلاميذ نظاميين.

أصلان شابٌّ أميلُ إلى الطول. لونه يميل إلى الشقرة التركيَّة أو الشركسيَّة. عيناه جميلتان، وإنْ لم تكونا بجمال عينيْ سلام. دمث وخجول، إذ كلَّما أراد التحدُّث يتلوّن خدّاه باللون الأحمر. فورًا أحسستُ بتقاربٍ شديدٍ معه، لم أعرف سبب ذلك، ربَّما لأنّنا دخيلان على هذه العائلة.

بقينا جالسين أكثر من ثلاث ساعات. في باحة الدار لا نعرف الأحاديثَ التي تدور بين معيوف والمرأةِ الكبيرةِ السنّ، التي عَرفتُ لاحقًا أنّها الخادمة التي تولّت أمرَ أصلان وأصبحتْ أشبهَ بأمٍّ له. أمرتْها أمُّ سلام بأن تحمله حين عثروا عليه، فحملته والتصقتْ به من ذلك اليوم. لاحظ الجميعُ ذلك، وعندما قرَّر الشيخ عبد الهادي أنّ أصلان أصبح في العاشرة وأنَّه يتوجّب أن يخرج من القصر لأنّه أوّلًا وأخيرًا إنسانٌ غريب، أمر أن يُخَصَّص له بيتٌ وأن تتولّى هذه الخادمة أمرَ رعايته. وما زالت معه، ترعى شؤونه، ويناديها: «يا أمِّي».

تجاوزت الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر. قال أصلان:

ـ ألا تشعرون بالجوع يا جماعة؟

فور انتهائنا من تناول الطعام نهض سلام وسألني إنْ كنت أودّ الذهابَ معه أو البقاء مع أصلان، فبقيت تحت إلحاح أصلان. ذهب معيوف مع سلام، ودخلت المرأة «أمّ أصلان» إلى غرفتها.

عرض عليّ أصلان أن أنام القيلولة فرفضتُ. انتقلنا إلى الركن الآخر من الغرفة، وهو مخصَّص للجلسة العربيّة. اتّكأنا على الوسائد، وكلٌّ منّا مدّ جسدَه باسترخاء. بدأنا حديثًا من لا شيء في كلّ شيء. أمامنا على الأرض إبريقُ القهوة العربيّة المُرّة، وكلّما بردت القهوة نهض أصلان وسخَّنها.

قد يكون تشابُهُ وضعيْنا، وقد يكون الجوُّ والمناخ، وقد تكون الوحدةُ التي نعيشها معًا، وقد تكون كلُّ تلك الأسباب معًا، إضافةً إلى عشراتٍ مثلها، هي التي جعلتني وأصلانَ نتعامل وكأنَّنا صديقان منذ الطفولة. تحدّثنا في كلّ ما يخطر على بالنا. سألته عمّا آلت إليه أحواله. مضى يقول:

ـ لا أستطيع أن أشكو شيئًا؛ بل يمكن القول إنّني إنسان محظوظ. أذكر عندما أتيتُ إلى هنا وأنا طفل صغير. كان قد مضى عليّ يومان أو ثلاثة من دون أن آكل شيئًا، ثم وجدتُ نفسي في القصر الكبير! عاملوني أفضلَ معاملة. الشيخ أعطاني اسمَه. أمّا الشيخة الكبيرة أمّ سلام فهي صاحبةُ الفضل الأوّل عليّ؛ أحسّ أنّها أمّي الحقيقيّة. أنا لا أعرف أهلي، ولكنّ هؤلاء أصبحوا أهلي. إذا كان هناك من عنوانٍ لهذه العائلة فهو الكرم. لديّ الآن بيتان: هذا البيت الذي نجلس فيه، وبيتٌ في حلب اشتراه لي الشيخ عبد الهادي وسجّله باسمي. درستُ الهندسة بفضلهم، ومنذ سنةٍ أعمل لدى الدولة بصفة مهندس. أحوالي جيِّدة، والحمدُ لله. لولا أمّ سلام لا أدري ماذا كان قد حلّ بي! قد لا أكون على قيد الحياة، أو ربَّما قد أكون متسوِّلًا أو ما شابه. وأكمل:

ـ حين حُزنا شهادةَ البكالوريا أنا وسلام عرض علينا والدُه العرضَ نفسَه: أن نختار البلدَ الأوروبيّ أو أميركا أو مصر لندرس الفرعَ الذي نريده، لكنَّنا اخترنا أن ندرس هنا. لا أخفيك أنّني كنتُ أفضِّل الدراسة في فرنسا أو إنكلترا، ولكنّ عبد السلام رفض العرض قبلي، فخجلتُ أن أدرس في الخارج. أنا ميّال إلى المسائل العلميّة، ولذلك درستُ الهندسة، بينما درس سلام الاقتصاد لسببيْن كما قال لي: الأوَّل ليعرف كيف يستثمر ثروةَ العائلة (هل حدَّثك عن السراديب المملوءة بالصناديق المحشوَّة ذهبًا؟)؛ أمّا السبب الثاني فهو أنّ

الاقتصاد أساسُ السياسة، وقد نذر نفسَه للسياسة. ورغم ذلك فإنّه بعد نجاحنا في البكالوريا، وبدلًا من أن يتابع دراسته، قرَّر أن يدخل الخلوةَ لمدَّة سنة، خرج بعدها وتابع دراسته. وعندها افترقنا لأنّني كنتُ في السنة الثانية وهو في السنة الأولى. أنا وسلام أخوان منذ الصغر. هو شخص رائع وأنا أحبّه كثيرًا. ولقد طلبتُ إجازةً من أجل أن أراه وأسلِّمَ عليه بعد أن عرفتُ أنّه خرج من السجن. لطالما قلتُ له إنّه لا يحتاج إلى العمل في السياسة، وخصوصًا ضدّ الحكومة! أنا لا أحبّ العمل في السياسة. وأوَّلًا وأخيرًا لستُ ابنَ هذا البلد، بل أنا ضيفٌ عند هذه العائلة وفي هذا البلد.

يتحدَّث بسلاسة كجريان الماء، ويتنقّل بين شتّى المواضيع. وقد أصبحنا صديقين منذ الجلسة الأولى. وبين زحمة المواضيع التي تحدَّثنا عنها سألتُه إذا كان يعتقد أنّ بعض الناس قد وُهبوا بعض القوى الخارقة. اعتدل في جلسته وقال:

ـ أنت تقصد بكلامك الشيخ عبد الهادي، أليس كذلك؟ الموضوع يا أخي ليس كما تقول، أو كما يعتقد المريدون والأتباع عندما يصوِّرون الأمرَ وكأنّ الله هو مَن وهبه هذه القدرات. طبعًا لا... لقد قلتُ لك إنّني إنسان يؤمن بالعلم، وقد شغلني هذا الموضوع كثيرًا، وقرأتُ ما كُتب عنه، وأُجيبك ببساطة: نعم، بعضُ الناس يملكون قدراتٍ لا يملكها الناسُ العاديُّون. العلم يقول إنَّ أيّ إنسان لا يَستخدم من قدراته الحقيقيّة إلَّا ما نسبتُه أربعة أو خمسة في المائة، وتبقى باقي القدرات كامنةً. قد يصل بعضُ الناس إلى اكتشاف بعض قدراتهم الكامنة واستخدامِها، فيظنّ الآخرون أنّهم خارقون أو أنّها هِبَةٌ من عند الله. إنّنا هنا نفسِّر الأمر على أرضيّة دينيّة أو في إطار الخرافات، ولكنّه في الدول المتقدِّمة موضوعٌ علميٌّ بحت ويدرِّسونه بطريقةٍ منهجيّة.

وأكمل:

– نعم أعتقد أنّ بعض أفراد عائلة آل الشيخ يملكون قدرات غير عاديّة. لا أدري منذ متى بدأ هذا، قد يكون منذ مئات السنين. والأمر لم يأتِ صدفةً؛ هل تعلم كم قضى الشيخ عبد الهادي في الخلوة؟ تسعَ سنين! قضاها في الدراسة والتأمُّل، لا تأمّل ما يحيط به فقط، وإنَّما الغوص أيضًا إلى داخل النفس. في الخلوة، ومع توالي الأيَّام والبعد عن مادِّيّات الحياة الصغيرة، يصبح الشخصُ شفّافًا وتسمو روحُه. وعندها سوف يكتشف الكثيرَ من دواخله وقدراته الكامنة. نعم يا أخي، أعتقد أنّ الشيخ عبد الهادي يمتلك بعضَ القدرات الاستثنائيّة، وهذا ثابتٌ بشهادة مئات الناس، على الرّغم من أنّه لا يتكلّم في الموضوع أبدًا. ولا أعتقد أنّه يستخدم قدراته هذه إلَّا عند الضرورة.

كان يتكلّم بحماس. وحين قال جملتَه الأخيرة نهض حاملًا إبريقَ القهوة ليسخِّنه. شربنا القهوة واقترح عليّ أن نتمشّى ليعرِّفني إلى البلدة؛ فالجوّ بعد العصر يصبح لطيفًا.

خلّفنا وراءنا التجمّعَ الأوّل، المؤلَّفَ من القصور والمجالس وبيوت الضيافة والسكن، واتّجهنا نحو التجمُّع الثاني. سِرْنا متمهّليْن على الطريق الترابيّ الواصل بين التجمّعين. حدّثني عن عمله وسألني عن أهلي وعائلتي. أخبرتُه أنّني لا أعرف عنهم شيئًا؛ فالقطيعة بيني وبينهم تامّة. لاحظ أنّني لا أريد الخوض في هذا الموضوع، فغيَّر الحديثَ بإشارته إلى بيتٍ خربٍ هو أوّلُ بيتٍ في التجمّع السكّاني الثاني. قال:

– هل ترى هذا البيت؟ هنا يسمُّونه بيت الألماني.

– ومن أين جاءت هذه التسمية؟

– في بدايات القرن العشرين قام الألمان بمدّ سكّة الحديد

الواصلة من أوروبا إلى تركيا حتى البصرة. وقد رافق المهندسين الألمانَ طبيبٌ شابٌّ اسمُه هانس. بدأ هانس بتعلُّم اللغة التركيّة حالَ وصول السكّة داخل حدود الدولة العثمانيّة. ولأنَّ التركيّة كانت تُكتب بالحروف العربيّة فقد تعلّم العربيّةَ أيضًا بعد إتقان التركيّة.

هانس، الشابُّ العصريّ، متحمِّس جدًّا لنظريّة داروين ـ وكانت هذه النظريَّة تَشْغل الناسَ آنئذٍ. ثم قرّر أن يعمل على تطويرها وإثباتها بمزيدٍ من الأدلّة. وبعد أن عمل طويلًا ارتأى أن يركِّز بحوثه في مجال الشَّعْر الموجود على رأس الإنسان وباقي أنحاء جسده. وخلص إلى أنَّ الإنسان كلَّما تقدّم في الحضارة قلَّتْ كمِّيّةُ الشعر الموجودة على جسده. ووصل إلى نتيجتين يريد إثباتَهما علميًّا:

الأولى: لمّا كان الشعر الذي يغطّي جسدَ المرأة أقلَّ بكثير ممّا يغطِّي جسدَ الرجل، فإنّ المرأة هي الأرقى في التطوّر البيولوجيّ.

الثانية، ويعتبرها بمثابة النبوءة العلميّة: مستقبلًا سيَشْهد الإنسانُ طفرةً على صعيد التطوّر، وستبدأ الطبيعةُ بإيجاد بشرٍ لا تغطّي أجسادَهم أيّةُ شعرة.

كان شابًّا ألمانيًّا نموذجيًّا، طويلًا ذا قامةٍ ممشوقة، أشقرَ ذا عينين زرقاوين، يتفجّر شبابًا وحيويّةً، تنتظره في برلين حبيبتُه التي تَعدّ الأيّامَ بصبر لكي ينتهي من هذه البعثة ويعود. وقد اتّفقا على أن يتمّ الزواج عقب ذلك مباشرةً.

في فترة البعثة الأولى، كان كغيره من أعضاء البعثة يذهب كلّ شهرين أو ثلاثة ليقضي إجازةً يَنْفض فيها عن كتفيْه غبارَ الشرق ومشاكله، وليلبِّي نداءَ الجسد الشابّ نحو الأنثى. أمّا الآن وقد ابتعد كلَّ هذه المسافات الطويلة، حيث أضحوا على مقربةٍ من النهر الكبير الذي كانت مياهُه ما تزال متدفِّقةً هادرةً، فإنَّ الإجازة أصبحت مستحيلة

إلَّا بعد انقضاء سنة على الأقل، وبدأ جسدُه الشابّ يثور عليه ويشتدّ جوعُه. ولأوَّل مرَّة يفكِّر هانس في أن يلتقط امرأةً محلِّيّة يطفئ من خلالها النيرانَ المشتعلةَ في جسده.

فكَّر في أن يَسأل أحدَ العمّال المحلّيين، وكان هانس يكرهه لأنّه دائمًا يحاول أن يتذلّل للسادة الألمان، بمن فيهم هانس نفسُه. ناداه. بدأ يحادثه. وفي ثنايا الحديث سأله إنْ كانت في البلدة القريبة حاناتٌ أو ملاهٍ ليليّةٌ يستطيع أن يذهب إليها المرء. وفورًا سأله العاملُ المحلّي:

- هل أنت بحاجة إلى امرأةٍ يا سيِّدي؟ أعرف امرأةً متزوِّجةً أستطيع أن آتي بها إليكم لتقدّم لكم الخدمةَ التي ترغبون.

جلس هانس في غرفته بعد حلول الظلام ينتظر. سمع طَرْقًا على الباب. رأى العاملَ المقيتَ وإلى جانبه امرأة منقّبة. طلب إلى المرأة الدخول، وصرف العاملَ بإشارة من يده. وقفتْ وسط الغرفة، يبدو عليها الارتباك. أشار إليها بالجلوس على أحد المقاعد. جلست ضامّةً رجليْها، وقد وضعتْ يديْها في حجرها. مضى إلى الزاوية وسكب لنفسه كأسًا من البيرة وسألها بالإشارة إذا كانت تودّ أن تشرب. رفعتْ رأسها دلالةَ الرفض. عبّ كأسَه على دفعتيْن. تجشّأ من فمه وأنفه بصوت مكتوم، واقترب منها ليمارس الهوايةَ التي يحبّ: أن يعرِّي المرأة التي أمامه حتى لا يتبقّى عليها إلَّا قطعةٌ واحدةٌ هي لباسها الداخليّ الصغير، فيتفنّن بخلعه ببطء وعلى دفعات، ويكون بعدها قد وصل إلى قمّة هياجه الجنسيّ.

تقدّم نحوها ووضع يديه تحت إبطيْها ورفعها قليلًا عن الأرض طالبًا منها أن تقف. وقفتْ وبدأ يخلع ملابسها. أزاح النقابَ جانبًا، فتبيّن وجهًا جميلًا آسرًا. بدأتْ يداه بالارتجاف وقد أَسَرَتْه عيناها الواعدتان والشبقتان. حاول أن يخلع باقي الملابس فاستعصت عليه.

يا لَهذه الملابس الشرقيّة المعقّدة! ابتسمتْ وأخذتْ تساعده بيديها، ونجح أخيرًا في تعرية نصفها العلويّ ونفر نهداها كرمّانتيْن شهيّتيْن. سروالها الداخليّ يبدأ من سرّتها وينتهي عند قدميْها، في الأعلى مزمومٌ بمطّاط، وفي الأسفل مزمومٌ بمطّاط. فوجئ هانس بهذا السروال؛ كان يعرف السراويلَ الأوروبيّة الصغيرة، أمّا هذا السروال الذي قال لنفسه إنّه يتّسع لقارَّةٍ كاملةٍ فلم يشاهدْه قطّ. اقترب من المرأة وأحاطها بيديه، التصق بها، خدّه على خدّها، وأخذ ينزلق مارًّا بشفتيْه على جسدها، وبدأ بإنزال السروال العملاق. كلّما نزل بشفتيه قليلًا أنزل السروالَ بالمقدار نفسه. حين أصبح رأسُه على سرّة المرأة وصل السروالُ إلى كاحليْها، وبشكلٍ آليٍّ رفعتْ رجلَها اليسرى أوّلًا ثم اليمنى وغدت عاريةً تمامًا.

من دون أن ينظر قادها إلى السرير، وقد أَسَره جمالُها الشرقيُّ الأخّاذ. وكانت هي الأخرى تتملّى وسامتَه الأوروبيّة الشقراء التي صعقتْها منذ دخولها الغرفة. شعرتْ بانجذابٍ طاغٍ نحوه، وأخذتْ تتحوّل تدريجيًّا من عاهرةٍ تبحث عن مال إلى عاشقةٍ تبحث عن لذّةٍ وارتواء.

ممدّدةً على السرير الضيّق المعدّ لشخصٍ واحدٍ رآها وقد انفرجتْ ساقاها. ألقى هانس نظرةً خاطفةً عليها وصُدم صدمةً قويّةً! نظر في عينيها الغائمتيْن، وقد أُسبلتا نصفَ إسبالة، ثم قلب يدَه اليمنى ومدّها تجاه عضوها التناسليّ. تكلّم معها لأوّل مرّة سائلًا:

ـ ما هذا؟! أين الشعر؟

كانت مهيّأةً للفعل لا للكلام، خصوصًا عندما يكون بلكنةٍ أجنبيّة. اتّسعت عيناها الناعستان تحاولان فهمَ ما يقول. أعاد الكرّة سائلًا:

ـ أين الشعر؟ أين الشعر؟

وتكلّمتْ لأوّل مرّة في هذه الغرفة:

ـ أيّ شعر؟ ماذا تقصد؟

ـ أقصد شعر جسدك، الشعر الذي يجب أن يكون هنا!

ولامس أصبعُه عانتها. رفعتْ رأسَها ونظرتْ إلى أصبعه الملامس لعانتها، وأخبرتْه وهي لم تفهم قصده أنّها تزيل كلّ شعر جسمها دائمًا وكما تفعل كلُّ النساء هنا. ثم سألته إنْ كان يفضّل وجودَ الشعر؟ لم يجبها. سحب الكرسيَّ وجلس عليه أمامها وهو يمرِّر أصابعَه على فخذيها وعانتها، ويبدو كالمأخوذ بما يراه أمامه.

أهاجتْها كثيرًا حركاتُ أصابعه. هو أيضًا كان مثارًا جدًّا. غرقا بعضُهما ببعض، وامتزج صوتُ لهاثهما بصرير السرير الصغير، ثم... همد فوقها وقد أحسّ أنّه عاش تجربةً لم يعشها سابقًا، وانتشى كما لم يفعل من قبل.

بعد أن هدأا تمامًا تركها تتغطّى باللحاف وعاد إلى سؤاله حول الشعر، وكيف تقوم النساءُ بإزالته هنا، وهل كلُّ النساء يفعلن ذلك؟ وهل الرجال أيضًا يزيلون شعرَ العانة؟! ولكنْ لماذا؟ هي لا تعرف لماذا، وقد تعلّمتْ هذا الأمرَ من أمّها، وكلُّ الأمّهات هنا يعلِّمن بناتهنّ كيف يفعلن ذلك. وعندما لاحظت اهتمامَه ودهشتَه، قالت:

ـ لقد عشتُ فترةً من الزمن في قريةٍ تقع إلى الجنوب من هنا، هي ليست بعيدة كثيرًا. سكّانُها كلّهم من العرب. تملك القريةَ عائلةً من الأسياد، ويقول الناسُ هناك إنَّ نساء عائلة الأسياد لا شعرَ في أجسادهنّ!

هبّ هانس واقفًا وكأنّ عقربًا لسعتْه. قال بما يشبه الصراخ:

ـ ماذا... ماذا؟ أعيدي ما قلتِ.

أعادت عليه ما قالت وأكّدتْ أنّ الناس يقولون إنَّ نساء هذه

العائلة لا توجد شعرةٌ في أجسادهنّ تحت رموش العين.

بدأ يفرك يديه ويتمتم كلماتٍ لم تكن تفهم منها شيئًا. وأخيرا سألها:

ـ ما اسم هذه القرية؟ وما اسم هذه العائلة؟

ـ القرية اسمها الخالديّة، والعائلة هي آل الشيخ.

قرَّر هانس أن يدفع لها ضعفَ المبلغ المتّفق عليه، لكنّها رفضتْ أن تأخذ منه أيّ شيء، واكتفت بأن سألته متى يريد منها أن تعود مرَّةً أخرى. قالت ذلك وهي تضحك بدلع وتتمايل. لكنَّه لم يلحظ شيئًا؛ فقد غرق في ثنايا نظريّته. وبقي لفترة طويلة قبل أن ينام يفكّر ويحلم بالفتح العلميّ الذي سيحقِّقه، والشهرةِ التي سيَنْعم بها. ولكنّ السؤال الذي لم يجد جوابًا عليه هو:

ـ لماذا اختارت الطبيعةُ هذه البقعةَ النائيةَ من العالم لتحقيق طفرتها؟ لماذا لم تخترْ بقعةً أخرى أكثرَ حضارةً وتقدُّمًا؟

في صباح اليوم التالي وصل هانس على ظهر بغل إلى قرية الخالديّة. تجوَّل في الشوارع والأزقّة القليلة وغير المنتظمة، ثم توجَّه إلى مجمّعِ سكنِ الأسياد والمجالس. تفحَّص كلَّ ما حوله وتمتم بالألمانيّة وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ إنّها قريةٌ حقيرة!

لم يكن لديه أيُّ مخطَّط، لا يعرف من أين سيبدأ ليتأكّد من كلام عاهرته. ضحك في سرِّه حين ظنَّ أنَّه يستطيع إذا قابل امرأةً في الشارع أن يقول لها:

ـ من فضلك ارفعي ثوبَكِ عاليًا لأرى عانتَكِ وأتأكّد أنّها بلا شعر!

وجَّه البغلَ إلى أكبر البيوت. ولكنْ قبل أن يصل إلى هذا البيت

برز له عبدٌ أسود عملاق لم يعرف من أين جاء. ألقى هانس التحيّةَ باللغة العربيّة عندما اقترب العبدُ منه:

ـ السلام عليكم.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته. لا شكّ أنَّك قد أضعت الطريق. إلى هنا لا يأتي غرباء. أنظرْ إلى ذلك البناء الطويل. هناك إلى المجلس يذهب الضيوف.

جلس في المجلس قرابة الساعة. بضعة عشر رجلًا يجلسون، ويبدو عليهم الكسلُ والبلادة. سأل عن الشيخ، فقيل له إنّه لا يأتي عادةً قبل ساعتين أو ثلاث. ركب بغله وعاد.

ثلاثة أيّام من التفكير المحموم وهو يحاول إيجادَ وسيلة للتأكُّد من المسألة، من دون أن يهديه عقلُه إلى أيِّ حلٍّ. وفي اليوم الرابع تعثَّر بالرجل المقيت الذي جلب له المرأة. ابتسامة لزجة ومتذلّلة تكسو ملامحَ الرجل وقد بادر بالقول:

ـ هناك مَن يسأل عنك يا سيِّدي.

اقترب من هانس ووقف على رؤوس أصابعه، وهمس في أذنه:

ـ الجماعة يقولون: إنّك فحلٌ يا سيِّدي، وهم قد أحبُّوك كثيرًا.

انفرجتْ شفتا هانس عن ابتسامة صغيرة، وأحسّ بالزهو الداخليّ لهذا الإطراء. ولكنْ في اللحظة نفسها لمع خاطرٌ في ذهنه: لماذا لا أسأل هذه العاهرةَ الصغيرةَ عن أفضل الطرق للتأكُّد من صدق كلامها؟

دخلتْ إلى غرفته بالطريقة نفسها ولكنْ بثقة أكبر. خلعتْ نقابها وغطاءَ شعرها، ثم تقدَّمتْ نحو هانس الواقف قبالتها والتصقتْ به، رافعةً وجهَها إلى الأعلى، وهي تنظر إلى عينيه الزرقاوين بلون السماء الصافية. وقالت بصوتٍ تخالطه بحّةٌ خفيفة:

ـ لقد اشتقتُ إليك.

ـ وأنا أيضًا.

انحنى قليلًا وقبَّلها من شفتيها قبلةً سريعة. طلب إليها أن تجلس. جلس أمامها. وضع يديه على كتفيها. ابتسمتْ بحنان وهي تشعر بسعادة بالغة، وقرَّرتْ بينها وبين نفسها أن تجعله يعيش ليلةً لا ينساها. سوف تشرب معه، ستغنّي وترقص له، وستذيقه جرعات من فنونها التي تتقنها جيّدًا. ولكنْ قبل أن تبدأ أيًّا من الأشياء التي تفكِّر فيها قال لها بالتركيّة التي يتقنها أكثرَ من العربيّة:

ـ أريد أن أسألكِ شيئًا.

أجابته والابتسامةُ لا زالت مرتسمةً على وجهها:

ـ اسألْ، ماذا تريد؟

ـ أنت تعرفين أنّني طبيب، أريد منكِ أن تدلّيني على طريقة أستطيع من خلالها أن أكشف على واحدةٍ من آل الشيخ لأتأكَّد ممّا أخبرتِني به حول موضوع الشعر.

أرجعتْ رأسَها إلى الوراء. نظرتْ في عمق عينيْه، وبحسمٍ قالت:

ـ لن تستطيع ذلك أبدًا.

لكنَّه، بعناد ألمانيّ أصيل، ظلّ يتردّد إلى الخالديّة بشكل شبه يوميّ. تعرَّف إلى الشيخ عبد المولى، والدِ الشيخ عبد الهادي، وأخذ يتقرَّب إليه، وعرض عليه خدماته الطبّيّة، فشكره الشيخ بلباقة وتهذيب، مشيرًا إلى أنّ لديه طبيبًا إسلاميًّا. أصرَّ هانس شارحًا، بصبرٍ كبيرٍ، أهمِّيَّةَ الطبِّ الحديث. وبهزّات من الرأس قال الشيخ:

ـ طيِّب. طيِّب إنْ شاء الله ما نحتاجك. الله يبعد المرض عنّا!

انتهت أعمالُ مدّ السكّة في المنطقة وستنتقل البعثة إلى الأمام مسافةً طويلة. وقتها اتّخذ هانس القرارَ الذي غيَّر مجرى حياته: استقال، وقرّر الإقامةَ في الخالديّة، بعد أن أخذ موافقةَ الشيخ، الذي

أوعز إلى رجاله بأن يبنوا بيتًا وعيادةً للألمانيّ.

استغرق الأمر قرابةَ سنة كاملة لإنهاء المعاملات وبناء البيت والعيادة. ذهب هانس خلالها إلى برلين مرَّتين. في الأولى أخبر أنغيلا حبيبتَه بقراره الاستقرارَ في الخالديّة، ولم ينسَ أن يحدِّثها عن «سحر الشرق»، فوافقتْ بحماسٍ كبير؛ وفي الثانية عندما تزوّجا رسميًّا وجاء بها إلى الخالديّة.

مضت ستَّةُ أشهر كانت أنغيلا خلالها مشغولةً بهانس وحبِّها له. ولكنْ بعد أن هدأت العواطفُ قليلًا أخذتْ تنظر حولها، وبدأ المللُ يتسرَّب إلى نفسها شيئًا فشيئًا. وبعد عام طرحتْ على نفسها السؤالَ الأساسَ بوضوحٍ وصراحة:

ـ أيُّ مجنونٍ يستبدل الحياةَ البرلينيّةَ الصاخبةَ والرائعةَ بهذه الحياة البليدة والمملَّة في هذا الجحر النائي من العالم؟

ناقشتْ زوجَها بهدوء وبطريقة غير مباشرة. عرف أنَّ وراء هذا الهدوء بوادرَ عاصفةٍ وثورةٍ وطلباتٍ قد تَقْلب حياتَه وتمنعه من تحقيق هدفه. لذلك، مرَّةً واحدةً، قرَّر أن يُطْلعها على سرِّه. لم يكلِّمها عن العاهرة، فقط قال إنّ أُناسًا أكّدوا له الأمر، وأنّه إذا استطاع التأكُّد من صحّة هذا الكلام فإنّ «المجدَ ينتظرنا... وسيغدو زوجُكِ عالمًا مشهورًا». ثم أردف:

ـ وأنت تذكرين المقال الذي كنتُ قد كتبتُه وتنبّأتُ فيه بحدوث هذه الطفرة. وإذا كنتِ تذكرين جيِّدًا فإنّني استخدمت عبارة: «وسيأتي اليومُ الذي يخلع فيه الإنسانُ شعرَ جسده دفعةً واحدةً لأنّه لم يعد بحاجةٍ إليه».

هزَّت رأسها موافقةً بصمت. الأمر كلّه كان مفاجئًا لها. سألته:

ـ ولكنْ لماذا لم تخبرني كلّ هذا الوقت؟ قد أستطيع مساعدتك.

ـ كيف؟

لم تكن تعرف كيف، وفي الأساس لم تكن تفكّر وإنْ بمساعدته. ولكنْ لأنَّ الحديث أخذ هذا المنحى فقد لمعتْ فكرةٌ في ذهنها:

ـ قل لشيخك هذا إنّ زوجتي ترغب في زيارة نساء البيت الكبير للتحيّة والتعارف. وعندما أدخلُ إليهنّ نتصرَّف حسب الظروف.

صباحَ اليوم التالي استأذن الطبيبُ الشيخَ في الجلوس إلى جانبه. وبعد قليل همس في أذنه أنَّ زوجته ترغب في زيارة الشيخة للتعارف وإلقاء التحيّة. نظر الشيخ بطرف عينه إلى محدِّثه، وبهدوءٍ أجاب:

ـ إنْ شاء الله يصير خير. الحريم في هذا الوقت غير جاهزات للزيارة. عندما يكون هناك مجال يحصل خير. بضعة أيَّام وأخبرك إنْ شاء الله.

«بضعةُ الأيَّام» هذه امتدَّت أربعَ سنوات، انشغل خلالها الرجلان بأمر لم يكن في حسبان أيٍّ منهما. فإلى الشمال من قرية الخالديّة بمئات الكيلومترات كان شعبٌ كاملٌ يتعرَّض للإبادة الجماعيّة والتهجير القسريّ، وقد بدأتْ مياهُ النهر الكبير تَلْفظ يوميًّا على الضفّتين مئاتٍ من الجثث المنتفخة والمشوَّهة. كما بدأتْ طلائعُ الناجين من المجازر تصل إلى الخالديّة.

وصول الجثث عبر النهر كان أسرعَ من وصول الأحياء. قَدِم بضعةُ أشخاص من أهل الخالديّة يخبرون الشيخ عبد المولى بأمر الجثث ويسألونه عمّا يجب فعلُه. فكَّر مطوَّلًا وهو يقلِّب الأمرَ على جميع الوجوه. إنَّه يعرف أنّ جميع هذه الجثث لأناسٍ غير مسلمين، وأنَّ مَنْ قتلهم هم المسلمون بحجّة الدفاع عن الإسلام؛ فالأخبار كانت قد وصلته عمّا يجري شمالًا. رفع رأسَه المطرق إلى الأرض وقال:

- دينُنا يقول: إكرامُ الميِّت دفنُه.

وبصوت واطئ سأل شيخٌ من أقاربه:

- حتى لو كان الميِّت غيرَ مسلم؟

- نعم... حتى لو كان الميِّت غير مسلم. فالقول جاء على إطلاقه؛ قال «الميِّت» ولم يقل «الميِّت المسلم» لو أراد التخصيص.

وأمر الشيخ بأن يخصَّصَ جزءٌ من الأرض الواقعة غرب العين لتكون مقبرةً لهؤلاء الناس المجهولين، وأن تُحفر القبورُ على طريقة ديانة «سيّدنا عيسى»، وأن توضع شاهدةٌ على رأس كلّ قبر يُكتب عليها بدلًا من اسمه الذي لا يعرفه أحد: «هذا قبرُ العبدِ لله».

أكثر من مائة شابّ ورجل من أهالي الخالديّة قسَّموا أنفسَهم إلى فريقين: الأوَّل يحفر القبورَ، والثاني - ومعه بضعُ عربات تجرّها البغالُ - لرفع الجثث وإرسالِها إلى المقبرة. ولكنْ ما هي إلَّا بضعةُ أيَّام حتى امتلأ الجزءُ من الأرض الذي خصَّصه الشيخ، فأمر بأن تكون كلّ الأرض مقبرةً للأرمن. وتلقائيًّا أُطلق على هذه المقبرة اسم: مقبرة عبد الله.

لم يكد الناس يهدأون قليلًا من موضوع الجثث التي يلفظها النهرُ حتى بدأ تدفُّقُ الأرمن الناجين من المذابح. كانوا يصلون وهم في الرمق الأخير من الحياة، وقد أعياهم المسيرُ والجوع، وأفزعهم ما رأوْا. عيونُهم غائرة، وجلودُهم متيبِّسة. أبلغوا الشيخَ بهذا، فلم يُطِلْ هذه المرَّة التفكير؛ فلقد حسم أمرَه عندما شاهد النساءَ والأطفال في هذه الحال:

- افتحوا لهم كلَّ البيوتِ والمجالس. أطعِموهم وقدِّموا إليهم كلَّ ما يحتاجون إليه.

الشباب والرجال الذين يتولَّون العملَ في مقبرة عبد الله مضوا في

عملهم. والشيخ عبد المولى، وإلى جانبه ابنُه البكر عبد الهادي وهو ما زال طفلًا، جلسا على كرسيَّيْن إلى الشمال من الخالديّة ببضعة كيلومترات، محاطيْن بمجموعة كبيرة من الرجال والعبيد والخدم، وراحوا يستقبلون أفواجَ الناجين. كلّما وصلتْ عائلةٌ أو ما تبقّى من عائلة، كلَّف الشيخُ أحدَ الرجال بإيصالهم وتأمين كلِّ ما يحتاجون إليه.

إضافةً إلى رقَّة قلب الشيخ وإنسانيَّته فقد فسَّر الأمرَ على أنَّ الإسلام يحضّ على مساعدة المظلوم والمستجير والملهوف. وخلف كلّ هذا عَرَفَ إنَّ الأرمن شعبٌ يجيد مختلفَ المهن والحِرَف، وأملَ في أن يُقْنع قسمٌ منهم بالإقامة في الخالديّة وبدءِ حياةٍ جديدةٍ هنا، فيستفيدون ويُفيدون أهلَ الخالديّة.

راح الشيخ يستقبل بضعَ عائلات، وأفرادًا من دون عائلات، يوميًّا، يوزِّعون حسب تعليماته، يؤمِّن لهم كلّ شيء، ثم يتركهم حتى يستردُّوا وعيَهم وأنفاسَهم ويطمئنُّوا، فيجتمع بهم بعد ذلك، ويقول لهم:

ـ أنتم الآن في أمان. لم يعد من مبرِّر للخوف. نريد أن نساعدكم. إذا أردتم أن تذهبوا جنوبًا حتى حلب سنوصلكم؛ وإذا أردتم البقاءَ هنا فأهلًا وسهلًا، وسنقدّم لكم كلَّ ما نستطيع.

خلال سنتين أقام الأرمنُ حيًّا إلى الشمال من التجمُّع الثاني الذي كان يسكنه العرب، سُمِّي «حارة الأرمن». بعدها نشأ التجمُّعُ الثالث في الخالديّة، وهو عبارةٌ عن سوقٍ ومتاجر. وافتُتحتْ محلَّاتٌ للحدادة والنجارة والخياطة والصياغة. كما افتُتحت الأفرانُ والمطاعمُ وبعضُ المقاهي وشتّى المهن الأخرى بعد أن استقرَّ قسمٌ لا بأس به من الأرمن في الخالديّة. القرى المجاورة للخالديّة أخذتْ تأتي إليها للتبضُّع وقضاء الحاجات. وبشكل خجول في البداية بدأتْ هجرةٌ من هذه القرى إلى الخالديّة، التي أصبحت بلدةً كبيرةً. ونشأتْ إلى جانب

حارة العرب والأرمن حارةُ الأكراد، ثم حارةُ التركمان. وبعد وقت ليس بالطويل نشأتْ حارةُ المسيحيين، المسيحيّين العرب الذين آثروا الاستقرارَ في الخالديّة، وتاجروا بنبات السوس مع أوروبا، وأصبحوا من الأثرياء. وبعد أن استقرَّت الأحوالُ في الخالديّة ببضع سنين بدأ الشيخ في بناء القصور الثلاثة بمساعدة السكّان الأرمن، الذي كان أكثرُهم يرفضون أن يتقاضوْا أجرًا من الشيخ محبّةً له وعرفانًا بجميله.

انتعش عملُ هانس مع تزايد الناس. وبعد عامين من زواجه أنجبتْ زوجتُه طفلةً جميلةً انشغلتْ بها، إلى أن أصبح عمرُها ثلاثَ سنوات. وذات يوم وقفتْ أنغيلا أمام هانس، وبحسمٍ قالت:

ـ لن أترك ابنتي تنشأ وسط كلّ هذه القذارة.

هانس، الذي كان قد عاد من عيادته للتوّ، نظر إليها نظرةً متعبةً، وسألها متوقّعًا أن تبدأ بالصراخ:

ـ ماذا تريدين؟

ـ أن نعود إلى بلدنا. ها قد مضى علينا هنا خمسُ سنوات. كنتَ تقول لي إنّنا سنعود حالما تنتهي الحرب، وقد انتهت الحربُ منذ عام، فلماذا نحن هنا؟

فاجأتْه بلهجتها المتّسمة بالهدوء والإصرار؛ فهي في العادة كانت تبدأ الصراخَ بعد الجملة الأولى من حديث العودة إلى برلين. توجَّس من لهجتها شرًّا، وقال بحذر:

ـ سنعود بعد أن أحقِّق هدفي. فلقد صبرنا كلَّ هذه المدّة، فَلْنصبرْ فترةً أخرى.

عندها انفجرتْ صارخةً:

ـ لن أصبر ولو يومًا آخر. خمس سنوات وأنت تركض خلف الوهم! هل تتوقَّع أن تأتيك إحدى هؤلاء النساء الهمجيّات لتقول لك

تعالَ انظرْ إلى عضوي التناسليّ لتتأكّد أنْ لا شعرَ عليه؟ خمس سنوات ولم نستطع رؤيةَ إحداهنّ تمشي في الشارع! خمس سنوات لم يقبلن أن أزورهنّ، وأنا امرأةٌ مثلهنّ! أنا لا أريد أن أضيّع حياتي وحياةَ ابنتي في جحر الوحوش هذا لمجرّد أنَّ زوجي يأمل أن يَنْظر يومًا ما إلى العضو التناسليّ لواحدةٍ من نساء القرود هؤلاء!

ـ جيّد... ولكن اخفضي صوتَكِ قليلًا.

ـ لن أخفض صوتي! لقد فكّرتُ وقرّرتُ. حلّان لا ثالثَ لهما: إمّا أن تعودَ معنا ونستقرَّ جميعًا في برلين؛ وإمّا أن توصلَنا إلى هناك كي ننهي إجراءاتِ الطلاق ثم تعودَ إلى هنا وحدك لتفحصَ ما تشاء من الأعضاء التناسليّة!

غاب شهرين. طلّق زوجتَه، وعاد إلى الخالديّة. بعد ستّة أشهر من عودته ظهرت العاهرةُ التركيّةُ في بيته. ذهب في اليوم التالي إلى الشيخ وأخبره أنّه سيتزوّج من امرأةٍ مسلمة، وأنّه يريد أن يصبح هو أيضًا على دين الإسلام، ونطق الشهادتيْن. فأرسل معه الشيخ أحدَ معاونيه الشباب لإتمام مراسم الزواج وفقًا للشريعة الإسلاميّة.

قوبل الأمرُ باستياء في حارتَي الأرمن والمسيحيين. لكنْ، مع الأيّام، اعتاد الناس الوضعَ، وأصبح اسمُ العاهرة «شيرين خانم». ونشأتْ حكايةٌ تقول إنَّ حبًّا جارفًا سبق أن نشأ بينهما بعد زواجه من أنغيلا، وأنّها قد عاهدتْه ألّا يمسَّها رجلٌ غيره، ومن فورها طلبت الطلاقَ من زوجها، وظلّت تنتظر خمسَ سنوات كاملة كانا يلتقيان خلالَها سرًّا، وبعد أن طلّق أنغيلا وأصبح حرًّا تزوّجها.

عاشت شيرين مع هانس أربعين عامًا وماتت عجوزًا. وظلّ هانس خمسَ سنوات يواظب على زيارة قبرها كلَّ صباح قبل ذهابه إلى العيادة، التي قلّ زبائنُها إلى درجةٍ كبيرةٍ بعد أن كثر الأطبّاء. كان

بصعوبةٍ يستطيع المشي، ولم يستطع أن يحقّق حلمَه في رؤية عانة إحدى نساء آل الشيخ. عندما مات بعد خمس سنوات من وفاة شيرين دُفن في المقبرة الإسلاميّة إلى جانبها. وعقب وفاته بشهر حضرت ابنتُه، وهي في الخمسين من عمرها تقريبًا، فحزمتْ بعض الأوراق والرسائل والصور وذهبتْ. ومن يومها ظلّ بيتُ الألمانيّ مهجورًا يتآكله الزمن، إلى أن أضحى خرابة.

كنتُ وأصلان نتجوّل على غير هدًى في شوارع الخالديّة بحاراتها المختلفة، يحدّثني عمّا جرى هنا، عن الأشخاص الذين مرُّوا في المكان. رُحنا ننتقل من حارةٍ إلى أخرى. وكانت الأزياء تتغيّر، وكذلك اللغةُ التي نسمعها أثناء مرورنا بالناس. النساء في حارة الأرمن، وقد مررنا بهنّ بعد العصر، يجلسن على كراسي القشّ المنخفضة، مجموعاتٍ أمام البيوت يشربن القهوة. الأطفال يلعبون قريبًا منهنّ، يقطعن حديثَهنّ عندما نمرُّ بالقرب منهنّ ليبدأن التعليقَ علينا.

يتعرَّف شخصان واحدُهما إلى الآخر، ويشعران أنّهما سيصبحان صديقيْن أو أنَّ مصيريْهما قد ارتبطا إلى الأبد، ولكنْ لا شيء مشتركًا أو ماضيَ يتقاسمانه للحديث عنه. هكذا كنّا أنا وأصلان. لذلك ملأه الحديثُ عن المكان الذي نحن فيه، وعن العائلة التي أصبحنا ننتمي إليها، ولو كان هذا الانتماء قد تمّ بطريقة تختلف عن الأخرى. كان يبدو أقربَ إلى الدليل السياحيّ، وكنتُ السائح. هو ابنُ هذا المكان، وأنا الوافدُ الجديد.

البداية عند خالد، الذي يلقّب بـ «الناجي» لأنّه الوحيد الذي خرج حيًّا من آل خالد بن الوليد بعد «المقتلة الكبرى». كان خالد في الخامسة عشرة عندما أتى إلى هذه المنطقة وسكن مع أمِّه بين خرائب المعبد الإغريقيّ لبضعة أشهر، إلى أن شعر بالأمان، فقام بنقل الذهب

إلى هنا، بعد أن غيَّر اسمَه حتى لا يعرفَه أحد، وأصبحتْ أمّه تناديه باسم: عبد الصمد.

خالد الناجي، أو عبد الصمد، دَرَسَ الدينَ وتبحَّر فيه وأصبح شيخًا محترمًا في كلّ هذه النواحي. أولاده وأحفاده نُسبوا له، وأخذ الناسُ يدعونهم: آل الشيخ.

الشيخ عبد الصمد، ونتيجةً للتجربة التي مرّ بها، وضع بعضَ الأسس التي سار عليها أبناؤه وذرِّيَّتُه من بعده. جاء بأسماء الله الحسنى، وعددها تسعة وتسعون اسمًا، وبدأ يسمِّي أبناءه بها متسلسلةً ومسبوقةً بكلمة «عبد»، ويُفترض بابنه البكر الذي سَيَخْلفه بعد موته أن يتابع حيث وصل أبوه في التسمية، إلى أن تنتهي كلُّ الأسماء، فتبدأ الدورة من جديد. وحرّم على أولاده وأحفاده أن يسمُّوا أيًّا من أولادهم باسمين محدّدين هما: خالد، والوليد.

تزوّج خالد الناجي «عبد الصمد» الكثيرَ من النساء خلال حياته المديدة، وأنجب الكثيرَ من الأبناء. وكان ينتظر حتى يصبح الابنُ في السادسة عشرة، فيزوِّجه ويعطيه ما يكفي من المال كي يبدأ حياة مستقلَّة كريمة، ويرسله إلى مكانٍ آخر. وحده الابنُ البكر يبقى ليَخْلف والده؛ أمّا الباقون فكان يقول لهم:

ـ تفرَّقوا... لا تجتمعوا في مكان واحد. عندما اجتمعنا أفنَوْنا جميعًا. ولولا لطفُ الله وحكمتُه، ولولا بُعدُ نظر عمِّي رحمه الله، لكان نسلُنا قد انقطع.

توزّع أبناؤه في البلدان كافَّةً. كلّ واحد أنشأ ما أصبح يُسمّى «زاوية»، مقلِّدين أباهم في ذلك. وعندما توفِّي لم يكن في الخالديّة غيرُ ابنه البكرِ الذي سار على منوال أبيه: تزوَّج كثيرًا، أنجب كثيرًا، استبقى ابنَه البكرَ إلى جانبه، ووزَّع الباقين في شتّى الأنحاء؛ فأيُّ مكانٍ

يَضمّ مسلمين مكانٌ قابلٌ لأن يذهبَ إليه أحدُ الأبناء ويُقيمَ فيه.

لذلك فإنَّ آل الشيخ لا يحتاجون لسكناهم سوى إلى هذه القصور الثلاثة: الأكبر للشيخ الحاليّ، والثاني لزوجات الشيخ السابق وبناته، والثالث للشيخ اللاحق الذي هو كبيرُ أبناء الشيخ الحاليّ.

إخوة الشيخ عبد الهادي، أعمامُ سلام، لا أحدَ منهم في الخالديّة. هم يزورونها على فترات، لكنّهم جميعهم يدينون بالطاعة للشيخ الكبير المقيم في الخالديّة.

انتشر أبناءُ آل الشيخ على امتداد العالم الإسلاميّ. حتى في أوروبا وأميركا لهم زوايا أيضًا. ويتجاوز عددُ الزوايا الآن ألفيْ زاوية، كلُّها ترسل الأموالَ إلى الخالديّة عند الطلب أو ما يزيد عن حاجتها، وكلُّها تطيع أوامرَ الشيخ الكبير.

حلّ الظلام فيما نحن عائدان عبر الساحة الكبيرة التي تتوسَّط التجمُّعات الثلاثة. أشار إليها أصلان وقال:

ـ هذه الساحة تمتلئ بالناس في عيدَي الفطر والأضحى. يخرج الشيخ على حصانه، ويسير بين الناس الذين يكونون بالآلاف، يحيّيهم ويباركهم. يجب أن ترى المنظرَ ولو مرَّةً: الساحة كلّها تصبح بيضاء، الناس باللباس الأبيض، الشيخ باللباس الأبيض الكامل، ويركب حصانًا أبيض. من لم يحضر الاحتفال في هذين العيدين لا يعرف عن الخالديّة شيئًا. هما لعموم الناس الذين يأتون حتى من الأماكن البعيدة للاحتفال هنا والاستماع إلى الشيخ؛ والدرس الأسبوعيّ كلَّ يوم جمعة بعد الصلاة هو أيضًا لعموم الناس، يستمعون إلى خطبة الشيخ التي يعلِّم فيها مبادئَ الدين والشريعة وشتّى أمور الحياة.

وتابع أصلان:

ـ أمّا ما هو خاصّ بآل الشيخ فيومان من كلّ عام. إنَّ كلّ مَنْ

غادروا الخالديّةَ خلال المائة عام الأخيرة يرسلون أولادَهم إلى
الخالديّة في مثل هذه الأيّام. فيلقي عليهم الشيخُ دروسًا في التاريخ،
تاريخِ آل الشيخ والنكباتِ التي حلَّت بهم، مآثرِهم وبطولاتِهم،
انكساراتِهم وهزائمِهم، مجدِهم وعارِهم. هذه الدروس ستبدأ غدًا.
ولعلَّك لاحظتَ أنّ دار الضيافة الخاصّة قد فُتحتْ وبدأ توافدُ هؤلاء
الشباب. أنا في كلّ عام أحضر هذين اليومين بإذنٍ من الشيخ عبد
الهادي. إذا أردتَ كلِّمْ سلام أو الشيخَ لتحضرَ أنت أيضًا. إنّ
الاستماع إلى الشيخ عبد الهادي فرصةٌ لا تُعوّض. أنا أحضرها كلّ
عامٍ لأنّني أحمل كنيةَ آل الشيخ.

قال أصلان الجملة الأخيرة بما يشبه الزهو، رغم أنّني كنت
أتساءل طوال الساعات الثلاث التي تجوَّلنا خلالها في الخالديّة..
ورغم الإشادة الكبيرة بالعائلة التي احتضنته وربَّته وعلَّمته ـ من أين تنبع
المرارةُ التي تتسرَّب من خلال حديثه. وقد ظهرتْ لي المرارةُ واضحة
أشدَّ الوضوح عندما حكى لي عن الطقس اليوميّ للذهاب إلى
المدرسة. فكلُّ أولاد الشيخ لهم عبيدُهم الذين يحملون لهم حقائبهم
المدرسيَّة، بينما كان هو يحمل حقيبتَه بنفسه. إنَّه معدود من الأسرة
بحدودٍ لا يستطيع تجاوزَها، رغم كلّ حبّ أمّ سلام له. حتى الأساتذة
كانت معاملتُهم لأولاد الشيخ أفضلَ بكثير من معاملتهم له.

كنّا قد وصلنا قريبًا من قصر سلام. رأينا معيوف واقفًا أمام الباب
الخارجيّ. قال إنَّ «عمّه سلام» ينتظرنا في الحديقة. وسط الحديقة
البديعة جلسنا ثلاثتنا. أحضر لنا معيوف شايًا معطَّرًا بالمسك. ومع
رشفات الشاي ونفثات سيجارتي حَضَرَتْني أجواءُ ألف ليلة وليلة
باسترخاءٍ لذيذ. وفيما كنت أراقب حلقاتِ الدخان المتصاعد عاليًا في
الفضاء، توجَّه إليّ سلام بابتسامةٍ عريضة، ملمحًا إلى الليلة البارحة،
وهو يسألني:

ـ ماذا سنشرب اليوم؟

تملَّكني مرحٌ وخفَّة. أجبته:

ـ سنشرب أيّ شيء. ولكنّ الكأس الأولى، الشفَّةَ الأولى... لمريم!

وقف، وضرب على فخذه بيده. صاح:

ـ ياااه... نعم سنشرب كأسَنا الأولى في صحّتها.

التفت إلى أصلان وهو لا يزال واقفًا. سأله:

ـ أصلان.. هل تذكر مريم يا أصلان؟

كبت أصلان ضحكته بيده. قال لي:

ـ كانا يظنَّان أنْ لا أحد يعرف ماذا يجري، مع أنَّ الجميع هنا عرفوا منذ اليوم الثاني أو الثالث كلّ ما كانا يفعلان!

نظر إليه سلام بدهشة وقد فغر فمه. وسأله:

ـ هل صحيح ما تقول؟! لماذا لم تخبرني يومها؟ ألستَ أخي؟

ـ لأنّه لم تكن لديك أذنان يومَها. كانت جميعُ أعضاء جسدك معطَّلة، ما عدا عضوًا واحدًا.

انفجرنا ثلاثتنا بضحكةٍ واحدة. وبعد أن هدأتْ ضحكاتُنا انتبهنا إلى أنَّ أبا معيوف واقفٌ على بعد خطوات ينتظر. رآه سلام فأومأ إليه أن يقترب. تقدَّم، وقال:

ـ عمِّي الشيخ عبد الهادي سيأتي إليكم بعد نصف ساعة.

تصلَّب سلام، بينما هبَّ أصلان واقفًا. ران الصمتُ علينا. بعد قليل تمتم سلام وكأنَّه يكلِّم نفسه:

ـ أمر غريب. هذه أوّلُ مرَّة يزور الوالد هذا القصر بعد وفاة والده وانتقاله إلى القصر الكبير. ماذا يجري؟ من الجيِّد أنّنا لم نبدأ الشربَ بعدُ. إذا كان الوالد يسامح في كلّ شيء فلا أعتقد أنَّه

سيسامحني إذا عرف أنّني أشرب.

وقفنا ثلاثتنا عندما وصل، يتبعه أبو معيوف. حيّانا ببساطة. جلس وابتسامةٌ خفيفةٌ تُطلّ من عينيْه. فورًا بدأ يباسطنا بالحديث. سأل أصلانَ عن طبيعة عمله في المؤسَّسة التي يعمل فيها، فأخبره أنَّه الآن رئيسُ قسم المتفجِّرات في المؤسَّسة التي تشرف على عمل المقالع الحجريّة. تساءل الشيخ إنْ لم يكن هذا العمل خطرًا؟ وسألني إذا كنتُ قد ارتحت خلال إقامتي في الخالديّة، فأجبتُه بالإيجاب وشكرتُه. عندها التفت صوب سلام وقال:

ـ طبعًا ستحضرون أنتم الثلاثة الدروسَ غدًا.

أومأ سلام برأسه ويداه مضمومتان فوق ركبتيه، قال:

ـ حاضر.

كان هذا إذنًا لي بحضور الدروس، وتعبيرًا عن المنزلة التي يضعني فيها الشيخ. صمتٌ قصير. اعتدل الشيخ عبد الهادي في جلسته وتوجَّه بالحديث إلى سلام:

ـ أريد أن أسألك سؤالًا أمام أخويك ـ وأشار بيديه إليّ وإلى أصلان ـ وأريد منك أن تفكِّر جيِّدًا قبل الإجابة، وليكن كلامُكَ حاسمًا وواضحًا. الآن وبعد كلّ هذا الوقت، هل ما زلتَ مصرًّا على الزواج من هذه البنت الأرمينيّة؟

ـ نعم يا أبي.

ـ طلبتُ منك أن تفكِّر قبل الإجابة. لماذا أجبتَ بكلّ هذه السرعة؟

ـ لأنّني، منذ أن تعرَّفتُ إليها، وأنا أفكِّر يا أبي. ولكنْ، من فضلك، هل سؤالُكَ يعني أنَّ لك ملاحظاتٍ عليها، أو على زواجي منها؟

ـ لا . . . ليست لديّ أيّةُ ملاحظات. على العكس فهي تشرّفنا. ولكنْ هل هي على استعدادٍ لأن تصبح مسلمة؟

ـ لم أسألها يا أبي، ولكنْ حسب ما أعرف فإنَّ ديننا الإسلاميّ يسمح لنا بالزواج من اليهوديّات والمسيحيّات، ويحقّ لهنّ الاحتفاظُ بدينهنّ الأصليّ. أليس كذلك؟

ـ هذا صحيح، ولكنْ إذا أَسلمتْ لله فذلك أفضل. ولا تنسَ أنّ ابنك في يومٍ ما سيجلس في المكان الذي أجلس فيه أنا الآن، وأريد له أن ينشأ نشأةً إسلاميّة. ومنذ الآن أقول لك، وأرجو أن تبلّغ هذا الكلام إلى مَنْ ستصبح زوجتك: أولادكم سيعيشون هنا في الخالديّة. يبقى الطفلُ عندكما إلى أن يصبح عمرُه سنتيْن، ثم ينتقل إلى العيش هنا.

ـ طيِّب يا أبي. . . وأنا رهنُ إشارتك. إذا لم تكن راضيًا عن هذا الزواج فلن أتزوَّج. ولكنْ إذا باركتَ هذا الزواج وباركتنا فسوف أكون سعيدًا جدًّا.

صمت الشيخ عبد الهادي برهةً قصيرةً. نهض من المقعد واقترب ببطءٍ من سلام. نهضنا جميعًا. وضع يده على كتف ابنه وقال:

ـ بعد بضعة أيّام سيذهب أخواك هذان إلى حلب: الأوّل ليستلم بيتَه الجديد، والثاني سيعود إلى عمله. إذهبْ معهما، وهناك اجتمعْ بأهل مارال، واتّفقْ معهم على كلّ الخطوات العمليّة ـ من المهر إلى كلّ الأمور الأخرى. وحدِّدوا موعدًا للعرس، وحاولْ أن يكون سريعًا؛ فقد تأخَّرتَ كثيرًا في الزواج. وفي الطريق حاولْ أن تُقنع هذين ـ وأشار بيده إليّ وإلى أصلان ـ أن يُكملا دينَهما أيضًا، لعلّنا نقيم عرسًا ثلاثيًّا. لقد سررتُ بالجلوس معكما. الشباب جميل.

بعد أن أنهى كلامه تناول سلام يدَه وقبّلها باحترامٍ شديد، وسرنا

معه إلى خارج القصر. ودّعنا، يتبعه أبو معيوف.

دخلنا وسلام يفرك يديه فرحًا وسرورًا، يمشي بخفَّة وكأنَّه يطير. وهذا أمرٌ كنتُ قد لاحظتُه سابقًا: إذ في بعض المواقف تراه أمامك رجلًا جدِّيًّا، قائدًا حزبيًّا، أو حتى رجل دولة مسؤولًا؛ وفي أحيان أخرى ينقلب إلى طفل صغير، لا يستطيع أن يخفي فرحه عندما يحصل على لعبة جديدة! وتساءلتُ هل نرجسيّته تجعله يتعامل مع إنسانةٍ مثل مارال على أنَّها لعبة جديدة وغريبة وصعبةُ المنال على أمثاله ورغم ذلك حصل عليها؟!

في طريق عودتنا طلب سلام إلى معيوف أن يُبلغ الخدمَ بإعداد العشاء على الشرفة العلويّة حيث جلسنا البارحة، على أن ينصرفوا بعد ذلك وينصرف معهم.

ثلاث كؤوس مترعة بالعرق، قال إنّه عرق بلديّ وخاصّ. أمسك أصلان بكأسه ونظر إلينا مبتسمًا. قال:

ـ أقترح أن نغيِّر النخب. سنشرب في البداية كأسَ أجمل عروس في الدنيا، كأسَ مارال.

رفعنا كؤوسنا وشربنا كأسَ مارال.

كانت سهرةً رائعةً تبادلنا فيها الأحاديثَ والنكات. ولم يعكِّر صفوَها إلَّا سَكَرُ أصلان، الذي أخذ يتقيَّأ في نهاية السهرة. قاده سلام إلى الحمَّام، وغسل له وجهَه، ثم أدخله إحدى الغرف لينام. بقينا وحدنا. أخذ العرق يفعل مفعوله معي أيضًا. لاحظتُ أنَّ سلام ما زال متماسكًا وهادئًا. نظرتُ إليه بإعجاب وحبٍّ، ممزوجيْن بالغيظ. أيُّ كائنٍ هذا؟ ماذا يريد منِّي لكي يقدِّم إليّ كلَّ ما قدَّمه بالتواطؤ مع أبيه؟ هل يَعدّ نفسَه ملكًا ويظنّ أنّني قد أكون نديمَه؟ لا أريد أن ألعب دورَ مهرِّج الملك أو نديمه. أنا إنسان فقير وصعلوك، وكان يكفيني من

الحياة أن تكونَ لميس إلى جانبي، نقذف ثيابَنا بعيدًا بعد أن نطفئ النيرانَ المشتعلةَ في جسدينا. نظرتُ إليه نظرةً خاطفة؛ كان هادئًا وراضيًا عن ذاته وملامحُ الثقة بالنفس تصدم العين. زاد غيظي وغضبي. هممتُ أن أقول له:

ـ اذهبْ إلى الجحيم أنتَ والبيتُ الذي أعطيتني إيّاه بالتواطؤ مع أبيك. لا أريد منك شيئًا. سأنام على مقاعد الحدائق العامّة. أريد أن أكون حرًّا لا أدين بشيء لأيِّ إنسان. حرِّرْني! أنا أحبّك، هذا صحيح؛ فقد عشت معك طويلًا في السجن، طبّبتكَ وأحييتُكَ بعد أن كنتَ على وشك الموت؛ ولكنّ هذا لا يعني أن تستعبدَني لأنَّكَ خُلقتَ في عائلةٍ تملك سراديبَ من ذهبٍ وجواهر.

سلام يجلس قبالتي، تبدو عليه أماراتُ الرضى. يبتسم عندما تلتقي عينايَ بعينيه. أسائل نفسي: ما لكَ يا هذا؟ لماذا أنت غاضب وحاقد على الرجل الذي منحك صداقتَه وأخوّتَه؟ أعطاك كلّ ما تريد، وكلّ ما كنت تتمنّاه في حياتك. في الأحوال العاديّة، ولو عشتَ عمريْن، ما كنت ستستطيع أن تحقِّق ما حقَّقه لك في برهةٍ وجيزة. هل تطمح إلى تبادل الأدوار، فتكون أنت القويَّ والمانحَ والكريمَ، ويكون هو الطرفَ الأضعف؟!

أخذتُ أوبِّخ نفسي، أوبِّخ نفسي لأنّني اكتشفتُ وضاعتَها. ولكنْ لماذا التوبيخ؟ هل أوبِّخ نفسي لأنَّها لم تختر أن تكون ابنة عائلةٍ لا تحتاج إلى أحد، ليس بالضرورة أن تكون مالكةً لسراديبَ من ذهب، ولكنْ عائلة ليست بفقر عائلتي وخِسَّتِها؟

يا لهَذا العَرَق! ما أقوى مفعولَه!

لا يزال جزءٌ من عقلي يعمل. أحسّ أنّني إذا قمت سيكون مصيري كمصير أصلان، قد أترنَّح، قد أتقيَّأ، قد أقع أرضًا!

نظر إليَّ سلام نظرةً وديعة. قال:

ـ أنا تعبت، سأذهب لأنام. تصبح على خير.

شكرتُه وأحسستُ أنّني أحبّه كثيرًا. استندتُ إلى الحائط وأنا أمشي تجاه غرفتي. عندما بلغتُ السرير استلقيتُ عليه بثيابي، وغرقتُ في نومٍ مخمور.

في التاسعة صباحًا كان أصلان يهزّني. استطعتُ النهوض من السرير بصعوبة. مشيتُ إلى الحمَّام وأبخرةُ العرق ما زالت تحوّم في أعلى جمجمتي. وقفتُ طويلًا تحت الماء البارد. خرجتُ من الحمَّام فوجدتُ القهوة العربيّة المُرّة بانتظاري. شربتُ الفنجانَ تلو الفنجان. يصبّ معيوف القهوة وينتظر أن أهزَّ له الفنجانَ دلالةَ الاكتفاء، ولكنّي أحتفظُ بالفنجان في يدي وأنا أنتظر أن أصحو من الغمامات التي تتكثّف حول دماغي. وأخيرًا صحوتُ. هززتُ الفنجان عندما رأيتُ أنّ معيوف قد ضجر من كثرةِ ما تناولتُ من قهوةٍ هذا الصباح.

مشينا نحن الثلاثة تجاه المجلس، حيث سيبدأ درسُ الشيخ عبد الهادي. في الطريق صادفْنا امرأةً كرديّةً عجوزًا سمينةً جدًّا، تقف على حافّة الطريق. كنّا ثلاثة شبّان في أواسط العشرينيّات من عمرهم قد سهروا حدّ الشبع، وهم سائرون بتمهُّلِ مَنْ قد شَبعَ من الحياة. نظرت المرأة إلينا. قالت بعربيّة شوهاء:

ـ ما شاء الله... ما شاء الله! الله يحفظكم لأمّهاتكم ومحبّيكم.

دخلنا المجلسَ مع الشيخ عبد الهادي، إذ وصلنا مصادفةً في الوقت ذاته. جلس سلام إلى يمينه، وأشار الشيخ إليَّ وإلى أصلان بأن نجلس إلى يساره. وفورًا رأيتُ بعض نظرات الامتعاض من أعين بعض شباب آل الشيخ.

على مدى يومَيْن، وفي كلّ يوم درسان: واحدٌ في الصباح، وآخر

بُعَيْد العصر، وأكثر من ثلاث ساعات مدَّةُ الدرس الواحد. جلس الشيخ عبد الهادي على فراشه المعهود في صدر المجلس، تحفّ به وسادتان من كلّ جانب، يتّكئ عليهما بين الحين والآخر. وأكثرُ من خمسين شابًّا، وجوهُهم نضرةٌ، وتَغْلب الوسامةُ على أغلبهم، يجلسون أمامه بصمتٍ يَقْرب من الخشوع.

يومان كنّا خلالهما نعيش في ثنايا التاريخ، نشمّ رائحةَ الصحراء، رائحةَ الدمِ المسفوحِ على حبَّات الرمل، نكاد نلمس الأجسادَ التي غابت منذ أربعة عشر قرنًا، وترتسم على جميع الوجوه الحاضرة تعابيرُ الألم والمعاناة.

تناول الشخصيَّات التاريخيّة المحاطة بالقداسة بأسمائها المجرَّدة. عند نهاية أحد الدروس سألتُ سلام عن ذلك، فردّ:

ـ لأنَّ أبي يعتقد أنَّ هذا هو الإسلامُ الحقيقيّ. لقد قال لي مرَّةً: كان أيُّ أعرابيّ قادمٍ من مجاهل الصحراء يستطيع أن يقف أَمام الرسول ويناديه: «يا محمَّد». ولم يكن هذا يزعج الرسولَ أبدًا. إنَّ الإسلام هو دينُ البساطة، وقد تولَّى اللاحقون تعقيدَها!

# (٦)

رتَّب الشيخ عبد الهادي جلستَه بعد أن حيّا الجميع تحيّةً عامّة. اتّكأ على الوسادة وظلّ يجامل الشبابَ الوافدين بسؤالهم عن أحوالهم وعن آبائهم والإخوة والأقرباء... ثم يختم بسؤالهم إنْ كانت لديهم رسالةٌ ما أو طلبٌ ما. ثم اعتدل في جلسته، وقال:

ـ أريد فقط أن أعرض عليكم بعضًا من سيرة أجدادكم لكي تعرفوا من أنتم ومن أين جئتم.

بعدها غاص في تاريخ العرب قبل الإسلام، وشرح الفكرة العزيزة على قلبه:

ـ كان العرب قد أصابوا ثراءً فاحشًا من خلال سيطرتهم على جزء مهمٍّ من طريق التجارة بين آسيا وأوروبا. ومن خلال قوافل تجارتهم التي يسيِّرونها عبر الصحراء المترامية الأطراف، احتكُّوا بأكبر مركزيْن حضاريّيْن في العالم، روما وفارس. وكما تراكمت الثروةُ، تراكمت المعرفةُ والحضارةُ لعشرات السنين قبل الإسلام. وأيُّ مجتمع يصل إلى هذه الدرجة من الحضارة يسعى تلقائيًّا إلى تنظيم نفسه، فكان لا بدّ من قيام الدولة العربيّة. هكذا بَنَتْ قبيلةُ قريش أوّلَ مركز حضريّ أو أوّل مدينة في شبه الجزيرة العربيّة، مدينة مكَّة التي يتوسَّطها

المسجدُ الحرام وداخله الكعبة، وجعلته حجًّا لكلِّ قبائل العرب.
وأكملَ:

- غير أنَّ قبيلة قريش لم تكن جسدًا موحَّدًا؛ فهي كانت موزَّعة بين الكثير من الولاءات. ولكنّ أبرزَ ثلاث زعامات فيها بنو هاشم الذي ينتمي إليهم محمَّد، وبنو أميّة وزعيمهم أبو سفيان، وبنو مخزوم وعلى رأسهم جدُّنا الوليد بن المغيرة، وكان يُعتبر سيِّدَ قريش لأنَّه الأكثرُ مالًا وولدًا. وفي خضمِّ هذا الصراع جاءت الدعوةُ الإسلاميّة. وباستغرابٍ تساءل الوليدُ: «كيف تنزل الدعوة على محمَّد ولا تنزل عليّ؟!» أمّا أبو سفيان فكان يقول: «أنا سيِّد قريش وأنا الأحقُّ بالملك والسيادة».

وتابع الشيخ وهو يجول ببصره على وجوه الحاضرين:

- ظلّ محمَّد أكثر من عشرين عامًا وهو يقاتل حتى انتصر وأَسَّس الدولة الإسلاميّة. ولكنّ موته فتح الصراعَ على السلطة، وبُذرت البذرةُ الأولى للفتنة التي ستَقْسم أتباعَه إلى قسمين وأكثر. واستمرَّ هذا الانقسام إلى يومنا هذا بين السُّنَّة والشِّيعة.

ثم دخل الشيخُ في تفاصيل الصراعات التي استمرّت قرابة الأربعين عامًا، تولَّى زعامةَ الدولة خلالها أربعةٌ من أصحاب محمَّد، جميعُهم قُتلوا. ورغم ذلك فإنَّ هذه الدولة أصبحتْ أَمبراطوريّةً شاسعة... «ولكن خلال هذه المدَّة خرجنا، نحن بني مخزوم، من نطاق المنافسة على الزعامة، لأنَّ جدّنا خالد بن الوليد اقتنع بدور القائد العسكريّ لجيوش الدولة».

واستمرّ في عرضه التاريخيّ إلى أن وصل إلى معاوية بن أبي سفيان، وهو الذي جعل الزعامةَ في بني أُميّة بعد أن هَزَمَ الهاشميين عقب حروب طويلة ومريرة. وهنا تناول الشيخ كتابًا أمامه، وقرأ منه:

«صُدم معاوية بن أبي سفيان من جواب كبار رجالات الشام، رجالات دولته، حين سألهم عَمَّنْ يُولي بَعْدَه، إذ جاء جوابُهم واحدًا: عليك بعبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد».

وضع الشيخ الكتابَ جانبًا وتابع بصوتٍ عميقٍ حديثَه الارتجاليّ:

ـ جلس معاوية يفكّر. استرجع الكثيرَ من أحداث الماضي القريب والبعيد. كان يعتقد أنَّ آل مخزوم قد خرجوا من نطاق المنافسة على المُلك والسيادة، ولكنْ ها هم الناسُ يريدون أن يكون عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد أميرًا للدولة بعده. وازداد معاوية يقينًا أنّ المُلك لا يَثْبت إلّا بالأحمرين: الدم والذهب! وبالطريقة نفسها التي أزاح فيها الحسنَ بن عليّ بن أبي طالب، وهي السمّ، فقد طلب من طبيبه إزاحة عبد الرحمٰن، وكان له ما أراد.

اجتمع أبناء خالد وأحفادُه وقرَّروا الثأر. وقال خالد بن المهاجر بن خالد بن الوليد، وهو شابّ جريء إلى درجة التهوُّر: «أنا لها، وسأكفيكم هذا الذي يجلس في دمشق، ابنَ آكلةِ الأكباد!». ثم بدأ بالطبيب الذي دسّ السمّ، فقتله. لكنّ جنود معاوية استطاعوا القبضَ عليه، فأحضروه لمعاوية الذي قال له: «قتلته لعنك الله». فأجابه خالد، بكلِّ جرأة وقوّة: «نعم لقد قتلتُ المأمورَ وبقي الآمر. وستُقتل يا معاوية بدم عبد الرحمٰن».

وتابع الشيخ:

ـ عرف معاوية أنَّ مصيره سيكون القتل إذا لم يبادرْ إلى العمل. ولم يتردَّد: يجب القضاء على كلّ ذرِّيَّة خالد بن الوليد الذين تعاهدوا على قتله ثأرًا لدم عبد الرحمٰن. فكلَّف أكثرَ قوّاده جرأةً ودهاءً بالمهمَّة، وبدأت المذبحة في وقت واحد: قسمٌ من جُند معاوية تكفَّلوا بأبناء خالد وأحفادِه في الشام، والقسمُ الثاني في الجزيرة العربيّة.

أربعون رجلًا قَضَوْا! والحقيقة أنَّ الذين قَضَوْا على يد جند معاوية أكثرُ من ذلك بكثير.

سليمان هو أكبرُ أبناء خالد بن الوليد، وخالد بن سليمان هو بكرُه، وهو لم يكن موافقًا على ما قرّرهُ آلُ خالد من ضرورة الأخذ بثأر عبد الرحمٰن، إذ رأى أنَّ قوَّتهم لا تقارن بقوَّة معاوية وأنَّهم سيخسرون المعركة حتمًا. فأرسل زوجتَه وولديه الصغيرين إلى أحد أصدقائه من أعراب بادية الشام مع التوصية بكتمان هويّتهم، وسافر ليلًا وحده إلى حماة شمالًا، وهناك انتحل اسمًا جديدًا وبدأ يتسقَّط الأخبار. حمل معه نصفَ أمواله، والنصفُ الآخر كان قد أرسله مع زوجته محمَّلًا فوق الجمال. ولم تتأخَّر الأخبارُ، فتأكَّدتْ مخاوفُه. ومع حزنه على المصير الذي آل إليه إخوتُه وأبناءُ عمومته إلَّا أنَّه صبر وحمل كلّ ما لديه وتوغَّل في الصحراء. وبعد سنتين من العزلة ذهب إلى مكَّة باسمه الجديد، وبحث عن فتاةٍ مخزوميّة ليتزوَّجها حفاظًا على ذرِّيَّة خالد بن الوليد. ثم عاد إلى دياره في بادية الشام وأخذ يستولد زوجتيْه المخزوميَّتيْن الأولاد. وهناك بقي قرابة الأربعة عشر عامًا. وحين سمع بوفاة معاوية، جمع أهلَه وأموالَه واتّجه صوب حمص، حيث أقام عاميْن كامليْن. كانت بيوتُ أولاد خالد وأحفاده قد تحوَّلتْ إلى خرائب، أو سَكَنَها أُناسٌ غرباء. فاشترى أوَّلَ بيت من الناس الذين يسكنون فيه، وأقام فيه وحده لمدَّة أسبوع، استخرج خلاله كلَّ الأموال الموجودة في السرداب السرِّيّ الذي لا يعرف سرَّه سوى واحدٍ من أحفاد الوليد بن المغيرة والد خالد.

وأكملَ الشيخ عبد الهادي:

ـ كان يعمل بهدوء وحذر. جمع خلال هذين العامين كلّ الثروة التي كان آلُ خالد قد جمعوها بالعمل والحروب وقيادة الجيوش. كره البقاءَ في حمص، وهي المدينة التي شهدتْ مقتلةَ أهله جميعًا، فسار

إلى حلب. وهناك سأل عن منطقة خصبة تشبه خصوبةَ حمص، وسار حيث أشار إليه بعضُ الناس، حتى بلغ نهرَ الساجور الصغير. فحطَّت القافلةُ أحمالَها على ضفَّة النهر اليمنى. وبعد قرابة الشهر اشترى ضيعة ـ كما فعل جدّه خالد بن الوليد حين اشترى ضيعتَه قرب حمص ـ واستقرّ به المقام.

عاش خالد بعدها حوالى ثلاثين عامًا. زوّج جميعَ أبنائه وبعضًا من أحفاده، ووجّه كلّ ذرِّيَّته نحو العلم والدين. أنشأ في ضيعته مدرسةً لتعليم الدين، وجلب لها أفضلَ علماء زمانه. عندما حَضَرَتْهُ الوفاةُ نظر إلى الوجوه المحيطة به وقال: «أوصيكم... لا تقربوا الملوكَ، وما يملكون».

خلفه ابنُه سليمانَ وخَلَفَ سليمانَ ابنُه البكر. وفي زمن ابن سليمان هذا سقطت الدولةُ الأمويّة على يد أحد أطراف الحزب الهاشميّ، وهم العبّاسيُّون. وكان من نتائج سقوط الدولة الأمويّة أن أُبيد معظمُ الأمويين، ما عدا أفرادًا قلائلَ استطاع أحدهُم الوصول سالمًا إلى الأندلس وأقام الدولةَ الأمويّةَ الجديدة هناك. وبذلك لقي الأمويُّون المصيرَ نفسَه الذي أذاقه معاوية آلَ خالد بن الوليد.

اعتدلَ الشيخ عبد الهادي في جلسته وأكمل:

ـ عاش الخوالد، وهو الاسم الذي أطلقه عليهم سكَّانُ المنطقة، حوالى مئتيْ عام بعد سقوط الدولة الأمويّة في ظلِّ الدولة العبّاسيّة. كثرتْ أعدادُهم وزادت الضيع التي يسكنون فيها. ظلُّوا قِبْلَةً لأهالي المنطقة، يقصدونهم لحلّ المشاكل أو للتزوُّد بالعلم وفقهِ الدين. وعلى ثرائهم الأصليّ أخذوا يزدادون ثراءً نتيجةً لخصوبة الأراضي التي يملكون والأموالِ التي أخذتْ تتدفَّق عليهم من أصحاب الحاجة الذين يقصدونهم بالآلاف.

في ذلك الوقت، ونتيجةً للضعف الذي آلت إليه الدولةُ العبّاسيّة، فقد نشأ في ظلِّها مجموعةٌ من الدويلات. وفي حلب قامت دولةٌ، أسَّستْها عائلةٌ مغامرةٌ ومحاربة من أتباع عليّ بن أبي طالب، أخذتْ على عاتقها محاربةَ البيزنطيين، واستطاعت تحقيقَ بعض الانتصارات المهمَّة عليهم.

الأمير العلويّ الذي شيَّد هذه الدولة، وكان محبًّا للعلم والشعر، أقام علاقاتٍ ودِّيَّة مع الخوالد، يزورهم على فترات متباعدة، وقد يبقى في ضيافتهم يومين أو ثلاثة، يجالس علماءهم وشعراءهم، ويتبادلون الأحاديث. والطرفان حريصان على عدم التطرُّق إلى المسألة الحسَّاسة، وهي مسألة الاختلاف العميق بينهما. وعندما احتاج هذا الأمير في إحدى السنوات إلى المال من أجل تجهيز الجيش الذي سيحارب البيزنطيين، قدَّم له الخوالد كلّ ما يلزم، لكنَّهم لم يزوروه في بلاطه ولا مرَّةً؛ فلقد حافظوا على وصيَّة جدِّهم خالد بن سليمان بن خالد بن الوليد:

- لا تَقْربوا الملوكَ وما يملكون.

مات هذا الأميرُ المتنوِّر، الذي في عهده عاشت هذه الدولة العلويَّة أزهى عصورها، وتتابع الأبناء من بعده، فحافظوا على مناوشاتهم مع البيزنطيّين وحمايتهم لثغور الدولة الإسلاميَّة، لكنَّهم لم يكونوا بعظمة والدهم وسعةِ أفقه.

في الوقت الذي كانت فيه حلب تجهِّز جيشًا لملاقاة الأعداء البيزنطيين، كان أحدُ الدعاة الكبار من العلويّين قادمًا من الكوفة إلى حلب بأمرٍ من داعي الدعاة: «اذهبْ وانظرْ أمرَ إخواننا في حلب، شُدَّ من أزرهم واسألْهم عن أسباب خلافهم».

دخل الداعيةُ بلاطَ أمير حلب العلويّ مكفهرَّ الوجه. رحَّب به

الأميرُ وهو يتساءل عن سبب غضبه. سأله عن صحَّته. سأله...
وسأله، وكانت الأجوبة كلّها جافّةً ومقتضبة. عندما وصل السؤال عن
رحلته، انفجر الداعية:

ـ تسألني عن رحلتي؟! نعم لقد كانت متعبة، إلى أن وصلتُ إلى ديار الخوالد. في ديار الخوالد ارتحتُ جدًّا لأنَّهم يعيشون في نعيم الله على الأرض. وهل تعلم يا سيِّدي الأمير مَنْ هم الخوالد؟ هم أبناءُ خالد بن الوليد، الذي ذهب مع عمر بن الخطّاب بأمر من أبي بكر لإجبار سيِّدنا وحبيبنا عليّ بن أبي طالب، رضي اللهُ عنه وكرَّم الله وجهَه، على البيعة لأبي بكر بعد وفاة النبي محمَّد. خالد بن الوليد الذي شارك عمر بن الخطّاب في كسر ضلع فاطمة بنتِ الرسول. ثم إنَّ ابنَ خالد، الذي اسمُه عبد الرحمٰن، كان على رأس جيش معاوية، لعنه الله، في صفِّين. تسألني عن رحلتي؟! هذه رحلتي، أعداء الله وأعداء سيِّدنا عليّ يعيشون بحمايتكم برخاءٍ وأمان! هل أنتم من شيعة عليّ؟! معاذَ الله أن تكونوا كذلك. إنَّهم يجلسون على تلالٍ من ذهب!! أنت تحتاج للأموال لتجهيز الجيش لقتال الكفّار، ولكنَّ الكفَّار بينكم ويستطيعون بأموالهم أن يجهِّزوا ألفَ جيش مماثل للجيش الذي تجهّزون. وهذا الجيش الذي تجهّزون لقتال البيزنطيين أَوْلى به أن يقاتل الكفّارَ الذين هم بيننا، ويأخذ كلّ أموالهم التي لا تُعدّ ولا تُحصى. يخزِّنون أموالهم، بينما الأمير الذي يدافع عن ديار المسلمين لا يجد من الأموال ما يكفي لكي يجهِّز جيشه!

استمع الأميرُ إلى الكلمات المتفجِّرة من فم الداعية. لفت انتباهَه الحديثُ عن غنى الخوالد وما يَنْعمون به من رخاء. سأل الداعيةَ بعد أن توقَّف هذا لالتقاط الأنفاس:

ـ وماذا تأمر أن نفعل؟

أطرق الداعيةُ برأسه طويلًا. ثم رفعه ببطءٍ متعمَّد. نظر إلى الجميع نظرةً ماسحةً شاملةً. ركَّز عينيه في عينَي الأمير وقال:

ـ هذا الجيش الذي يجهَّز لقتال البيزنطيين يجب أن تكون مهمَّته الثأر لعليّ بن أبي طالب ولفاطمة بنت الرسول. يا لَثارات عليّ... يا لَثارات الحسن... يا لَثارات الحسين. يجب أن نُبيد كلَّ ذرِّيّة خالد. يجب أن نستولي على كلّ ما يملكون. لبّيْكَ اللّهمّ... لبَّيْك.

ابتسم الأمير. توجَّه إلى الأعوان والخدم وقال لهم:

ـ جهِّزوا لسيِّدنا كلَّ ما يلزم لراحته، لأنَّه بعد بضعة أيَّام سيكون على رأس الجيش الذي سيقتصّ من ذرِّيّة خالد ويثأر لعليّ وفاطمة.

صبيحةَ عيد الأضحى اكتشف الخوالدُ أنَّ الجيش يُحيط بهم من كلّ الجوانب. كان يومًا ربيعيًّا مشمسًا. الخرافُ التي أُعدّت لتكون الأضاحي في ذلك العيد مربوطةٌ بالحبال أمام البيوت. الرجال الذين رأوا الجنودَ يقفون على مبعدةٍ من قراهم لم يتوجَّسوا أيّ شرّ لأنَّ جيشَ حلب غالبًا ما يمرّ بمحاذاة قراهم أثناء ذهابه لقتال البيزنطيِّين أو أثناء عودته. ولكنْ عندما بلغوا المسجدَ الكبير وأخذوا يتبادلون الأحاديثَ أحسُّوا أنَّ في الأمر ما يثير الشكّ، فأبلغوا شيخَ الخوالد، الشيخ عبد الله، بما لديهم من شكوك، فأمر أحدَ إخوته بأن يأخذ معه فارسين وأن يتوجّهوا إلى حيث يعتقد أنَّها قيادةُ الجيش للترحيب بهم ودعوتهم لأن يكونوا ضيوفَ الشيخ. وجلس ينتظرهم مع كبار رجالات الخوالد. ولم يطل انتظارُهم كثيرًا، إذ عاد الثلاثة وقد حُزّت رقابُهم، ورُبط كُلٌّ منهم إلى فرسه.

* * *

كان الشيخ عبد الهادي قد أنهى الدرسَ السابق بوصول القتلى الثلاثة، ولذلك كان جميعُ الحاضرين في لهفةٍ إلى معرفةِ ما سيحدث.

جلس الجميعُ بهدوء انتظارًا لتتمَّة القصَّة.

ـ أَدركَ الشيخ عبد الله الموقف الذي هم فيه: «إنَّ مقتل أخي والفارسيْن اللذيْن معه لا يبشِّر بأيِّ خير؛ فالعرب عامّةً لا يَقْتلون أو يَأْسرون الرسل المرسلين إليهم من قِبل أعدائهم. ثم هذا الحصار الدائريّ حول جميع القرى! هل هي مقتلة جديدة؟» واستذكر فورًا حكايةَ الجدّ الذي استطاع المحافظة على ذرِّيّة خالد بن الوليد من الانقراض قبل أكثر من قرنين.

شيئان لم يكن الشيخ عبد الله يتمنّى أن يتحقَّق أيٌّ منهما. الأوَّل: أن يباد جميعُ الخوالد وهم كلُّهم محاصرون الآن. والثاني: أن يقع الخوالدُ أسرى وسبايا في يد الأعداء ليُستعبَدوا ويتحوّلوا إلى خدمٍ وجوارٍ؛ وهذا أمرٌ حتميٌّ عندما يباد جميعُ الشباب والرجال.

أدرك الشيخ عبد الله أنَّ الوقت أمامه ضيِّق جدًّا. السكون مخيِّم داخل المجلس وخارجه أيضًا، وكأنَّ الجميع يحبس أنفاسه ترقُّبًا لما هو قادم. ثلاثة قتلى مربوطين إلى خيولهم الواقفة في الساحة أمام المجلس لم يتحرَّك أحدٌ لفكهِّم وإنزالهم. عشرات من شباب الخوالد، من دون أن يطلب منهم الشيخ، تقلَّدوا أسلحتَهم وهم ينتظرون على ظهور خيولهم أمام المجلس. نهض الشيخ عبد الله، ونهض معه جميعُ الرجال. خرج إلى الساحة وبدأ بإلقاء الأوامر: «اجمعوا كلَّ النساء والأطفال ومن جميع القرى في هذا المجلس. على الذكور جميعًا، ابتداءً من الرابعة عشرة، حمل السلاح والتجمُّع هنا».

نظَّمهم على شكل مجموعات، كلّ مجموعة من عشرة فرسان، وأرسلها للدوران حول محيط قرى الخوالد لإيهام الأعداء بكثرة عدد المدافعين، وكذلك لمشاغلة الجنود إلى حين الانتهاء من جمع النساء والأطفال. ثم أرسل أربعةً من كبار رجال الخوالد كُلًّا إلى جهة، لعلّ

أحدَهم يجد ثغرةً في هذا الحصار يستطيعون أن ينسحبوا منها ولو بخسائر كبيرة ـ إذ إنَّ المهمّ هو إنقاذ الأطفال والنساء. ذهبوا وعادوا يقولون: «الحصار مطبق، ولا يوجد مقدارُ ذراع بين الجنديّ والآخر، وهم يُكملون استعداداتهم لشنِّ الهجوم».

إنَّها مقتلةٌ جديدةٌ لآل خالد. فكَّر الشيخ عبد الله بالمقتلة القديمة على يد الحزب الأمويّ، والآن هذه المقتلة على يد الحزب العلويّ! هل سيخرج أحدٌ من الخوالد حيًّا؟ هزّ رأسَه دلالةَ النفي! وحاول التفكيرَ في الجَدّ الذي حافظ على ذرِّيّة خالد، ما هي أفضلُ الطرق لأن يحذو حذوَه؟! يسير في الساحة يوجِّه الفرسان ويحاول إثارةَ عزيمتهم، ولكنْ كيف يستطيع بضعُ مئات من المقاتلين غير المتمرِّسين في أمور الحرب أن يجابهوا آلافَ الجنود الذين خاضوا الكثيرَ من المعارك؟ المعركة غير متكافئة وخاسرة حتمًا، وواضحٌ أنَّ أمير حلب العلويّ لا يريد أن يدخل في مفاوضات. لقد قتل الرجال الثلاثة الذين أرسلهم الشيخ عبد الله، وهذا هو عنوان هذه الحملة وعنوان هذا الحصار: الإبادة!

وإذ هو في وسط الساحة يفكِّر عميقًا دنا منه فارس:

ـ عمِّي الشيخ عبد الله.

رفع الشيخ رأسَه ونظر إلى الفارس: إنَّه خالد، ابنُ أخيه القتيلِ المربوطِ إلى فرسه. فتى في الخامسة عشرة من عمره، يمسك بلجام الفرس، وقد تقلَّد سلاحَه استعدادًا للمعركة. لطالما أحبّ الشيخ عبد الله هذا الفتى؛ فهو متميِّزٌ بذكائه وجرأته، ولا يفارق مجلسَ الشيخ، ويسأل أسئلةً تدلُّ على إدراكٍ ومعرفةٍ لا يناسبان سنَّه. ردّ الشيخ:

ـ نعم يا خالد، ماذا تريد؟

ـ هل تريد أن آخذهم إلى المقبرة؟

قال هذا وهو يشير بيده إلى القتلى المربوطين فوق خيولهم. النساء

والأطفال بدأوا بالتوافد، ومع مجيئهم بدأ الصراخُ والبكاءُ والعويل. الضجَّة تزداد شيئًا فشيئًا. لمعتْ فكرةٌ في ذهن الشيخ: هذا الفتى هو مَنْ سيحافظ على ذرِّيّة آل خالد ونسلهم، وهو مَنْ يجب أن ينجو من هذه المذبحة! كان للشيخ عبد الله ستَّةُ أولادٍ ذكور، أصغرُهم في العشرين من عمره، لكنَّه آثر أن ينجو هذا الفتى وحده! أمسك به من يده وقال له:

ـ اذهبْ وقلْ لأمِّك أن تأتي معكَ إلى بيتي.

حين جاء خالد مع أمِّه وهي تبكي زوجَها القتيل كان الشيخ قد أرسل جميعَ مَنْ في بيته إلى المجلس. وبلهجةٍ صارمةٍ قال لزوجة أخيه:

ـ امسحي دموعَكِ لأنَّ البكاء الآن سيكون على الأحياء لا على الأموات! انتبهي جيِّدًا لما سأقول. إذا صدق ظنِّي فلن يخرج اليوم أحد من الخوالد حيًّا، لا امرأة ولا طفل ولا رجل. هل تفهمين ما أقول؟

هزَّت المرأة رأسَها دلالةَ الفهم، وقد توقَّفتْ عن البكاء. استأنف حديثه باللهجة القويّة والصارمة نفسها:

ـ لا أريد أن ينقطع نسلُ الخوالد. ستدخلين الآن مع ابنك إلى السرداب الذي تحت داري. جميعُ أموالنا في هذا السرداب. خذي معكِ طعامًا وماءً يكفي لعشرة أيَّام. لا أحد يعرف كيف يُفتح السرداب ولا أين هو بابه. انتبهي! مهما سمعتِ، ومهما ضاق بكما السرداب، إيَّاكِ أن تخرجي قبل عشرة أيَّام. بعدها تخرجين وحدك بهدوء؛ فإذا كان الطريقُ آمنًا عودي وخذي قليلًا من المال بما يكفي سنةً أو سنتين، وخذي معك خالد، وابتعدا عن كلّ ديار الخوالد، بعد أن تُعيدي إغلاقَ السرداب جيِّدًا. بعد سنة أو سنتين زوِّجي خالد، ثم انقلا الأموالَ التي في السرداب على دفعاتٍ وبطريقة سرِّيّة بعد أن تؤمّنا

سردابًا بديلًا تحت داركم الجديدة.

أعاد عليها الكلامَ حتى استوعَبتْه وحفظتْه. علَّمها كيف تفتح بابَ السرداب من الداخل والخارج. أدخلهما، وأغلق البابَ بنفسه. ثم استدعى أصغرَ إخوته وأصلبَهم، وهو شابّ في الثلاثين من عمره. أمْسَكه الشيخُ من صدره، وبصوتٍ متهدِّج قال وهو يهزّه:

ـ عاهدْني أمام الله ألَّا تكون ضعيفًا.

أجاب الأخُ ونظراتُ الاستغراب تملأ عينيْه:

ـ أعاهدك يا أخي على كلّ ما تريد.

ـ عاهدْني أمام الله ألَّا تدع أطفالَنا ونساءنا يقعون أسرى وسبايا في يد الأعداء. عاهدْني أن لا تدعهم يصبحون خدمًا وعبيدًا ومحظيّات.

ـ أعاهدُكَ يا أخي.

زفر الشيخ زفرةً حارقة. أفلت صدرَ أخيه. قال بصوت مؤلم:

ـ أَحضرْ عشرةً من عبيدنا الأشدّاء. إشرحْ لهم المطلوبَ، واجعلهم في المسجد الكبير. لا تشاركْ أنت في المعركة ولكنْ راقبْها. اذا رأيت أنّنا قد خسرنا ولم يبقَ منَّا إلَّا القليل أخرجِ الأطفالَ أوّلًا وأَرسلْهم إلى العبيد ليقتلوهم. لا تُخْرجْهم دفعةً واحدة، بل على دفعات. لا تدعِ النساءَ يرين كيف يُقتل الأطفال. وبعد أن ينتهي الأطفال أرسل النساءَ. عندما تتأكّد أنّه لم يبق لنا طفلٌ أو امرأةٌ على قيد الحياة، حاولْ أن تثأر لنا قبل أن تموت.

قال الأخ الصغير وهو ينشج:

ـ ما أقساك يا أخي! لقد ذبحتَني قبل أن يذبحني الأعداء. أعاهدك أنّني سأفعل كلّ ما أمرتني به.

استدار الشيخ صوب عبده وقال بلهجةٍ آمرة:

ـ الآن أحضرْ لي سلاحي وفرسي.

لم يبدأ الهجومُ إلَّا قُبَيْل الظهر. أحاط فرسانُ الخوالد بقرية الشيخ عبد الله وبيته ومجلسه والمسجد الكبير، حيث النساء والأطفال. وكان الهجوم دائريًّا أيضًا. ثَبَتَ الخوالدُ قرابة الساعتين أو الثلاث، ولكنّ أعدادهم بدأتْ بالتناقص. الأخ الصغير بدأ عمله عندما قدَّر من بعيد أنَّ عدد فرسان الخوالد قد نقص بمقدار النصف. ولكي يفي بما عاهد اللهَ عليه أمام أخيه بدأ بأولاده هو. كانوا ثلاثة أطفال، أكبرُهم في السادسة وأصغرُهم عمرُه سنتان. بعد أن ضحّى بأولاده هانت عليه المسألة، وأخذ يستعجل العبيدَ الذين أصبحتْ عيونُهم حمراء جاحظة، وقد هزّ أحدُهم السيفَ في وجهه، فرجع مسرعًا لإرسال الدفعة التالية. حين أنهى عملَه لم يكن قد تبقّى من الخوالد إلَّا قلّةٌ من الرجال، محاطين بجمع كبير من المهاجمين. ركب فرسَه وشدّ على المهاجمين، يتبعه العبيدُ العشرةُ، فأحدثَ هجومُهم ارتجاجًا في دائرة الجنود الحلبيين الذين كانوا يحيطون بمن تبقّى من الخوالد. ولكنْ ما هي إلَّا نصفُ ساعة حتى انتهى كلّ شيء.

استمرَّ الجيشُ الحلبيّ يومين يجمع الأسلابَ ويُفرغ بيوتَ الخوالد من محتوياتها. وكان أوَّل ما فعلوه هو جمع الخراف التي كانت مربوطةً أمام البيوت ومعدَّةً أضاحي للعيد. ذبحوها كلّها، وأولموا للجيش بمناسبة أوَّل يومٍ من أيَّام عيد الأضحى المبارك؛ فهو عيدٌ للطرفين!

داخل السرداب قبع خالد وأمُّه وسط الظلمة الحالكة. ورغم أنَّ هناك سراجًا يمكن إشعالُه إلَّا أنّ الشيخ عبد الله كان قد طلب منهما عدَم فعل ذلك. خلال الأيَّام الثلاثة الأولى لم يأكلا أيّ شيء، وإنَّما

كانا يشربان الماء فقط كلّما جفَّ الحلق. عافت نفساهما الأكلَ حزنًا وغمًّا على ما تصوَّرا حدوثه في الخارج. في اليوم الرابع، امتلأ السردابُ بالروائح النتنة، بعد أن كان قد امتلأ في اليومين الأوَّلين بقليل من دخان حرائق البيوت. الدخان أمكن احتمالُه؛ أمّا هذه الرائحة التي تدفعهما إلى التقيُّؤ فلا يمكن احتمالُها بأيِّ شكل. ورغم ذلك همست الأمُّ لابنها طالبةً منه الصبرَ. في اليوم الخامس لم تعد هي نفسُها تستطيع تحمُّل نتانة الهواء الثقيل الراكد في السرداب، فزحفتْ إلى باب السرداب، وبحذرٍ وهدوءٍ فتحتْه قليلًا كما علَّمها الشيخ عبد الله. زمّت عينيْها ومسحت المكانَ بنظرتها، فلم تر أحدًا. فاجأها خلوُّ البيت من الأثاث، كما فاجأتها آثارُ الحريق على الأبواب والنوافذ الخشبيّة. تأكَّدتْ من عدم وجود أحد، فصعدتْ إلى الطابق العلويّ. وبنظرة مواربة نظرتْ إلى الخارج: ثعالب وذئاب وضباع تنهش الجثثَ قرب المسجد. وكانت مئات الطيور الجارحة تحوّم فوق المكان أو تحطّ على بقايا الجثث.

نزلتْ بسرعة. دخلت السردابَ وأشعلت السراجَ بصعوبة شديدة. عاينتْ كلَّ الصناديق والجرار المليئة بالذهب. خلعتْ رداءها الخارجيّ ومدَّته أرضًا، ثم أفرغتْ به إحدى الجرار الصغيرة، وجعلته صرّةً مُحْكمة. أخرجتْ خالد وأطفأت السراج. أغلقت البابَ بإحكام، ومن الطرف المعاكس لمكان القتلى سارت مسرعةً. أخذت حماريْن من الحمير التي أصبحت سائبةً بموت أصحابها من آخر قرية من قرى الخوالد، ولم تتوقَّف إلى فجر اليوم التالي عندما وصلت المعبدَ الإغريقيّ. داخل خرائب المعبد خبَّأت الصرّة، وناما على الأرض المتربة، إلى أن لسعتهما أشعَّةُ شمس الصباح في اليوم التالي، وابتدأتْ سلالةٌ جديدةٌ لآل خالد، كانا أوَّل شخصين ويعمِّران بيتًا في الخالديّة.

وأكمل الشيخ عبد الهادي:

ـ لا شكَّ في أنَّ الإسلام هو دين الحقّ، وقد رسم للإنسان المسلم الطريقَ الذي يجب أن يسلكه لكي يعيشَ مؤمنًا ويموتَ مؤمنًا. حدَّد له في القرآن أو في السُّنَّة كيف يعيش، يتزوَّج، يطلِّق، يرث، يورث، والكثيرَ الكثيرَ من التفاصيل الحياتيّة الصغيرة. ولكنْ لحكمةٍ قد لا نُدركها ترك مسألةَ الحُكْم والمُلْك من دون أن يحدّد أسسًا لها. لو أنَّ محمَّدًا حدَّد طريقةً لانتقال الحكم والمُلْك قبيْل وفاته لبقي المسلمون يدًا واحدةً ولم يتفرَّقوا إلى شيع كثيرةٍ كلُّها تتوسَّل الدينَ وتدَّعي أنَّها الإسلامُ الصحيح لكي تصل إلى الحكم!

* * *

نهض الشيخ عبد الهادي ليذهب إلى الصلاة بعد آخر درس. بعضُ الحضور أخذ يودِّع من سيبقى لأنَّه عائد إلى بلاده الآن. الغريبان، أنا وأصلان، وقفنا جانبًا نراقبهم وهم يتوادعون. التفت إليّ أصلان وقال:

ـ ليس لنا مكان هنا الآن. ما رأيك أن نذهب إلى البيت؟

مشينا بصمت بضع دقائق، ونحن لم نزل تحت تأثير ما سمعناه خلال هذين اليومين. بعد أن ابتعدنا عن المجلس اقترب منّي أصلان، وبصوتٍ خافتٍ قال:

ـ حكاية الجدّ الأكبر الذي هرب مع أمِّه إلى هنا وبنى الخالديّة والسلالةَ من جديد، هل انتبهتَ إليها جيِّدًا؟ وكيف أنَّ الشيخ عبد الله اختار ابنَ أخيه لينجو، ولم يختر أحدًا من أولاده هو؟

ـ نعم انتبهت. ماذا في الأمر؟

ـ ألم تتساءل لماذا فعل ذلك؟ أليس من الطبيعيّ أن تدفعه عاطفةُ

الأبوّة إلى أن يختار واحدًا أو اثنين من أبنائه للنجاة من المذبحة؟

ـ نعم صحيح! ما هو تفسيرك للأمر؟

ـ ليس تفسيرًا. لقد سمعتُ وأنا صغير كلامًا لا يُقال هنا إلّا همسًا وعلى نطاق ضيّق جدًّا. سمعتُ أنَّ الشيخ عبد الله كان يعشق زوجةَ أخيه هذه، وأنَّ حبًّا عنيفًا قد جمع بين الاثنين، وأنَّ هذا الولد الذي اسمُه خالد هو ثمرةُ هذا الحبّ وهذا العشق! وما يبدو إيثارًا ليس كذلك، بل الحقيقة أنَّه اختار إنقاذَ المرأة التي يحبّ وابنَه منها!

فكَّرتُ قليلًا في الأمر. أصلان يفاجئني دائمًا. وبقليلٍ من المناكدة قلتُ له:

ـ حتى لو كان الأمر كما تقول فليس ذلك خسَّةً أو نذالةً. أن يسعى إلى إنقاذ المرأة التي يحبّ عملٌ فيه الكثيرُ من النبل والرجولة.

ـ لا أدري أهو نبل أمْ نذالة! وهو، في كلِّ الأحوال، تفصيلٌ لا أهمِّيَّة له. المهمّ هنا هو أصلُ الحكاية برمّتها ومن أساسها.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

وقف أصلان وهو ووضع يده على كتفي، واستأنف كلامه:

ـ منذ الصغر وأنا أسمع هذه الرواية عن إبادة الخوالد. أنا لستُ متخصِّصًا في التاريخ، ولكنْ عندما كبرتُ بدأتُ أبحث في المصادر التاريخيّة عن صحَّة هذه الحكاية. هل تعلم إلَامَ وصلتُ؟

ـ لا . . . هاتِ أخبرني.

ـ وصلتُ إلى أنَّ الحكاية كلَّها مشكوكٌ فيها! فالدولة الحمدانيّة التي قامت في حلب لم تكن في يوم من الأيَّام دولةً علويّة! صحيح أنّها كانت تتعاطف مع العلويين، ولكنَّها ليست دولتهم! بل لو افترضنا أنَّها كانت علويّة، فإنّها لم تقم بأيّةِ مذابحَ كالتي يتكلّمون عنها.

نظرتُ إليه بدهشةٍ وسألته:

ـ ولكنْ إذا كان كلامُكَ صحيحًا فمن الذي قتل الخوالدَ؟

ـ لا أدري... ربَّما قصَّة الداعي المتعصِّب قد تلامس الحقيقة! في لحظةٍ ما يستطيع رجلٌ متعصِّبٌ أن يجمع حوله حشدًا من الأنصار. وربّما استمال بعضَ الجنود، وأعمى بصيرتَهم بصيحة: «يا لَثارات الحسين...»، فهبُّوا يحاصِرون ويَقتلون أناسًا عاشوا حياتَهم بترف واسترخاء ولم يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم كما يجب. وربَّما حدث سيناريو آخر! ولكنْ من المؤكَّد أنَّ الدولة الحمدانيّة لم تفعل ذلك، أو على الأقلّ لم أعثرْ على أيّ مصدر تاريخيّ يشير إلى أنَّها فعلتْ شيئًا مماثلًا.

توقَّف أصلان عن الكلام وأمسك يدي. نظر في عينيّ. قال:

ـ إسمعْ.. في تلك الأيَّام كانت القبائلُ البدويّة دائمًا تُغِيرُ على المدن والقرى ويغزو بعضُها بعضًا. فلماذا لا تكون مذبحةُ الخوالد قد جرت نتيجةً لإحدى هذه الغزوات؟

# (٧)

فور عودتنا إلى حلب قبل ستَّة أشهر، أخذني الشيخ حسن إلى «بيتي» الذي هو عبارة عن شقَّة واسعة وحديثة في واحد من أحياء المدينة الراقية. وبعد أن سلَّمني مفاتيحَ الشقَّة أعطاني مظروفًا فيه راتبي الشهريّ، الذي كان أكثر من كافٍ. صافحني وهو يبتسم وتكلّم بسرعة:

ـ منزل مبارك. لقد قدَّمتُ باسمك طلبًا من أجل الحصول على هاتفٍ لك. أوراق المنزل كاملة وموضوعة في الخزانة. ضع توقيعك عليها. أراك بخير إنْ شاء الله.

أغلقتُ باب الشقّة من الداخل. فحصتُ الأوراق التي ينقصها توقيعي فوقّعتُ عليها. ألقيتُ بنفسي على السرير الوثير وأنا في كامل ثيابي. صرختُ كالمجنون أهذا معقول؟ قفزتُ عن السرير. تجوَّلت في الشقّة. ناديتُ بصوتٍ عالٍ:

ـ لمييييس.

عليَّ أن أصدِّق، هذا ليس حلمًا! سأذهب مساءً إلى سلام لأشكره.

ستَّة أشهر من التبطُّل والاسترخاء... والملل أيضًا. حلب مدينة

هادئة وجميلة، سرعان ما يشعر الإنسانُ بالتآلف والحميميّة معها. بعد أسبوع من تعرُّف سلام إلى بيتي حضر عصرًا ففتحتُ له الباب. بوز معيوف من خلفه وهو يحمل صندوقًا كرتونيًّا ثقيلًا. دخلا ووضع معيوف الصندوقَ في مطبخ الشقَّة. نزل وعاد يحمل صندوقًا ثانيا: نبيذ وويسكي وجن وڤودكا وعرق وروم. قال سلام ضاحكًا:

ـ أصبحتْ لدينا هنا مؤونةٌ لا بأس بها. أرجو أن لا نتحوّل إلى كحوليين وسكارى!

يقضي سلام أغلبَ وقته عندي في الشقَّة. وما عدا بعض الأعمال الحزبيّة ـ وقد انتظمنا في العمل الحزبيّ مجدَّدًا ـ فلا عمل لدينا أبدا! وكان دائمًا يعنّ على بالي سؤال: «كيف كان يقضي وقته قبل دخولي إلى حياته؟ نحن الاثنان نسلّي بعضنا بعضًا، ورغم ذلك نشعر بكلّ هذا الملل! فكيف كان يبدِّد ملله قبل مجيئي؟». وأجيب دائمًا بعبارة «لا أدري!».

أقلّ من عام على بداية تعارفنا الحقيقيّ. خلال هذه الفترة سألتُه عدَّة مرَّات عن الأسباب التي دفعتْه إلى الانخراط في حزبٍ ذي توجُّه اشتراكيّ، هدفهُ الرئيسُ القضاءُ على أمثاله وأمثال أبيه! غير أنَّه في كلّ المرَّات لم يكن يجيب، بل يرواغ وينتقل بالحديث إلى مواضيع أخرى.

في إحدى السهرات، وكنَّا وحدنا، سألته هذا السؤالَ وأنا أبتسم. أجاب:

ـ كعب حذاء!

قال هاتين الكلمتين وهو يضحك. نظرتُ إليه. قلت:

ـ كعب حذاء! ماذا تعني؟

عبد السلام طفلٌ مدلَّل، كان دائمًا يحصل على ما يريد وأكثر،

ولم يتعوَّد أن يَرفضَ له أحدٌ طلبًا، إلى يوم أن فَقَدَ مريم بتلك الطريقة التي اعتبرها خيانةً ومؤامرة! ثم أحسَّ بعد ذلك أنَّه فَقَد مكانته لدى والده، الشخص الوحيد الذي يقدِّسه ويعتبره مثلَه الأعلى، فكان ردّ فعله الانغماس في الدراسة. وقرَّر أن ينجح في نيل البكالوريا بتفوُّقٍ ساحق، علَّه يعيد مكانته السابقة لدى والده، بل أن يبهره أيضًا.

أنهى امتحانَ الثانويّة العامَّة وقرَّر البقاءَ في حلب طوال أشهر الصيف الثلاثة، وبدأ يطارد شبحَ مريم. شابٌّ في عزِّ مراهقته، سَبَقَ أن دخل جنَّة المرأة من أوسع الأبواب، ثم فجأةً يُحرم ذلك كلّه، فيقرِّر أن يغوصَ في بحر الجنس والمرأة الغنيّ والواسع والعميق. ولكنْ لم يكن يعرف من أين يبدأ أو كيف يبدأ. هي رغبةٌ في النفس فقط، وحريقٌ في الجسد والخلايا عندما يستعيد تفاصيلَ ما مرَّ به مع مريم.

ذاتَ يوم أراد الذهاب إلى مطعم وسط المدينة اعتاد أن يتناول طعامَه فيه. اقترب من المطعم وأراد الانتقال إلى الرصيف المقابل، فتعثَّر بحافَّة الرصيف الذي يقف عليه، ولكنَّه تماسك ولم يقع؛ انخلع كعبُ حذائه فقط. رجع خطوتين إلى الوراء وهو يعرج، والتقط الكعبَ عن الأرض. رجل يقف أمام محلِّه التجاريّ رأى كلّ ذلك، فأخبره أنَّ ثمَّة إسكافيًّا في قبو على بعد خمسة محلَّات. نزل عبد السلام إلى القبو فرأى الإسكافيّ جالسًا إلى الطاولة وهو يهمّ بتناول غدائه. روائح الطعام المليئة بالتوابل زكمتْ أنفَ عبد السلام الجائع. ألقى التحيّة. ردّ الإسكافي التحيّة. أشار إليه عبد السلام بالكعب. ابتسم الإسكافيّ وسأله إنْ كان مستعجلًا أمْ يستطيع الانتظارَ إلى حين انتهائه من تناول الطعام. خجل عبد السلام وأجاب أنّه يستطيع الانتظار. نهض الإسكافيّ واقترب من عبد السلام وهو يدعوه إلى أن يجلس مكانه، قائلًا:

ـ في هذه الحالة تفضَّلْ شاركْني الطعام.

شكره عبد السلام واعتذر عن تناول الطعام. ولكنّ الإسكافيّ كان قد بدأ يدفعه بلطفٍ نحو الكرسيّ. أجلسه وسحب كرسيًّا آخر لنفسه. وجهُه البشوش، وطريقةُ تعامله، ثم توجُّهُه بالحديث مباشرةً وببساطة وكأنّه يواصل حديثًا كان بينهما ثم انقطع؛ كلّ هذا أجبر سلام على أن يفكِّر في مجاملته بلقمة أو اثنتين. ولكنَّه بعد أوَّل لقمة لم يستطع التوقُّف، إلى أن تناول كلٌّ منهما قطعةَ خبزٍ مَسَحا بها بقايا الطعام عن أطراف الصحن. وفيما كان الإسكافيّ ينظِّف الطاولة قال:

ـ أمّا الآن فإنّك سوف تشرب أطيبَ كأس شاي من يد عمّك مهران.

أثناء الشرب رأى عبد السلام في أحد أركان المحلّ كتابًا ضخمًا عليه صورةُ رجل أصلع ذي لحيةٍ صغيرةٍ مشذَّبة ومدبَّبة. تناول الكتاب. المكتوب بلغة أجنبيّة لا يعرفها. نظر إليه مهران وسأله:

ـ هل تعرف هذا الرجل؟

ـ لا. هل هو مؤلِّف هذا الكتاب؟

ـ نعم. واسمه لينين. ألا تعرف لينين؟

ـ لا... لم أسمع به، عمَّ يتحدَّث هذا الكتاب؟

واستمرَّت الجلسة بينهما أكثر من ثلاث ساعات. لم يفهم عبد السلام أغلبَ حديث مهران، لكنَّه كان يحسّ أنَّه قد دخل عالمًا جديدًا ومسحورًا. في نهاية الجلسة مدّ مهران يده إلى جيب سترته الداخليّة، وأخرج أوراقًا مطويّةً بعناية وضعها في يد عبد السلام وهو يقول بصوتٍ خافتٍ يوحي بالأهمِّيَّة:

ـ هذه جريدةُ حزبنا، وهي جريدةٌ سرِّيَّة. أرجو أن تقرأها ثم ارجعْ لزيارتي لتقول لي رأيك بما قرأت. ولكنْ إيَّاك... ثم إيَّاك أن

تَدَعَ أحدًا يراها.

أخذ سلام الجريدة وذهب إلى البيت. جريدة صغيرة الحجم من أربع صفحات. قرأها ثلاث مرّات، لكنّه لم يفهم منها شيئًا. طواها ودسّها تحت مخدَّته.

بعد يومين ذهب مرّةً أخرى إلى مهران في الصباح. رحَّب به كثيرًا. بعد بضعة أحاديث سأله مهران إنْ كان يمانع في إعداد إبريق من الشاي ريثما ينتهي من العمل. وافق عبد السلام واتَّجه إلى موقد الكيروسين. حاول تشغيله لكنَّه لم يعرف؛ فقد كانت تلك أوَّلَ مرَّة يحاول فيها تشغيلَ موقد. كما أنَّه لا يعرف كيفيّة إعداد إبريق من الشاي. وقف حائرًا وظهرُه إلى مهران. رآه مهران فاقترب منه. وعندما عرف أنَّه لا يعرف كيف يعدّ الشاي ضحك كثيرًا. قال:

ـ ألم تطلب منك أمُّكَ مرَّةً أن تساعدها في تشغيل الموقد؟

ردّ عبد السلام ببساطة:

ـ ولكن أمّي أيضًا لا تعرف كيف تشغّله!

ـ ومن الذي يعدّ الطعامَ والشايَ في بيتكم؟

ـ الخدم.

ـ الخدم! تقول الخدم؟ خدم بالجمع، لا خادم؟ كم خادمًا عندكم؟

ـ لا أدري. كثير.

ـ كثير... كثير!! حدِّد لي رقمًا. ثلاثة.. أربعة.. خمسة؟

ـ أكثر... أكثر.

ـ أكثر؟! ماذا يعمل والدك؟

ـ إنّه لا يعمل شيئًا... هو شيخ.

أجلسه مهران وأخذ يستجوبه عن وضع عائلته. لم يعرف الشيء

الكثير ولكنَّه عرف أنَّهم واسعو الثراء وأنَّ والده رجلُ دين. فرك مهران يديه وهو يقول مبتسمًا:

ـ إذا أصبحتَ في حزبنا، فسيكون ذلك انسلاخًا طبقيًّا.

ـ وما هو الانسلاخ الطبقيّ؟

ـ سأشرح لك فيما بعد. الآن سأعطيك كتابًا باللغة العربيّة لتقرأه، ثم ارجعْ لعندي بعد يومين لأعرِّفكَ إلى شابٍّ في مثل سنِّك.

بعد يومين رجع حسب الموعد، فوجد شابًّا في مثل سنِّه تقريبًا. عرّفهما مهران الواحد إلى الآخر، وتفاجأ عبد السلام عندما قال مهران، وهو يعرّف الشابّ الآخر إليه، إنَّ اسمه إبراهيم، ولم يقل عبد السلام. نظر إليه مندهشًا، فسحبه من يده وهمس بأذنه: «إنَّ اسمك الآن هو إبراهيم، وهو اسمٌ حركيٌّ. لا تقل لأحد عن اسمك الحقيقيّ». لم يفهم عبد السلام شيئًا، ولكنَّه هزّ رأسه.

أخذه الشابّ وذهبا إلى الحديقة العامَّة القريبة. في الطريق، وحين جلسا على أحد المقاعد، كان الشابّ وحده الذي يتكلّم، وعبد السلام يسمع فقط. حدَّثه عن الصراع الطبقيّ، وعن دور الشغِّيلة والكادحين في المجتمع، عن العدالة الاجتماعيّة... عن... عن...، وفكَّر سلام: «القرآن الكريم، الذي هو معجزةٌ حفظتُه طفلًا، فهمتُ معظمَ شرحه من خلال الكتب التي أعطاني إيّاها والدي عندما دخلتُ الخلوة. ولكنْ ما يقوله هؤلاء الناس وما يكتبونه لا أستطيع أن أفهمَ منه شيئًا!». كان شعوره مزيجًا من العجز والتحدِّي. فكَّر للحظة أن يدير ظهره ويمضي إلى بيته ليطلب من معيوف أن يعدَّ له كأسًا من الشاي المعطَّر. لكنَّه طرد هذه الفكرة وقرَّر مواصلَة الاستماع. كان الشابّ ما يزال يتكلّم عن المادِّيّة التاريخيّة. وبعد أن انتهى، سأل عبد السلام:

ـ ما رأيك في كلّ الكلام الذي قلته لك؟

ـ جيِّد.

ـ هل تريد أن تستمرّ معنا وتكون مناضلًا في سبيل بناء الاشتراكيّة في بلدنا؟

ـ نعم.

ـ يا رفيقي.. يا رفيقي، لا تستعجل قولَ كلمة نعم. إنَّ النضال ليس سهلًا. إنَّ طريقه مليئةٌ بالقهر والحزن والسجن والموت. فكِّرْ قليلًا قبل أن تقول كلمة نعم.

نظر إليه سلام مستغربًا. هذا الكلام مفهوم! لماذا لا يتكلّم دائمًا كلامًا مفهومًا؟ ثم ماذا عن السجن والموت؟ هل سبق لهذا الشابّ أن دخل السجن؟ سأله:

ـ السجن؟ ولماذا السجن؟ هل سنَقتل أو نَسرق أو لا سمح الله نرتكب أيّة جريمة؟ تقول السجن وكأنّك دخلتَه. هل دخلتَ السجن؟

ضحك الشابّ ضحكةً ملؤها الثقةُ بالنفس. أجاب:

ـ لا يا رفيقي... لا. أنا أوضح لك فقط. الكثيرُ من رفاقنا دخلوا السجن، وبعضُهم ماتوا. والآن أريد أن أُعيد عليك السؤال: هل ما زلت مصرًّا على أن تكون معنا؟

ـ نعم.

ـ إذًا اذهبْ غدًا إلى الرفيق مهران وهو سيتدبَّر الأمر.

ذهب عبد السلام إلى الرفيق مهران في اليوم التالي، فاستقبله بالعناق والترحيب. شعر عبد السلام أنَّه ضعيف وصغير وضئيل. لأوَّل مرَّة في حياته يحسّ هذا الإحساس. جلس كالمُذْنب بين يدي القاضي. مهران يفيض بالأحاديث. عبد السلام يريد أن يتوازن قليلًا. مهران يقول لعبد السلام إنَّهما سيتناولان طعامَ الغداء معًا. سلام يردّ أنَّه

سيدعوه إلى الغداء اليوم، ومن دون أن ينتظر الجواب نهض مسرعًا وذهب إلى المطعم القريب. أوصى على طعام يكفي لخمسة أشخاص. أجزل النادلَ العطاءَ لكي يوصله إلى دكَّان مهران. أحسَّ أنَّه قد فعل شيئًا ما!

بعد الغداء والشاي والاسترخاء، صمت مهران على غير عادته لبضع دقائق، ثم التفت إلى عبد السلام، وسأله بجدِّيَّة:

ـ هل فعلًا تريد أن تكون معنا كما أخبرني الرفيق؟

وبعناد كبير يحمل الكثيرَ من التحدِّي والضعف الممزوجيْن بعدم الثقة بالنفس، أجاب سلام:

ـ نعم.

تجشَّأ مهران بعد أن وضع يدَه على فمه. وفيما يبدو أنَّه قرار حاسم قال:

ـ هل تريد أن نضمَّكَ إلى إحدى الفرق الشبابيّة؟ نحن في العادة نحدِّد للرفيق الجديد المكانَ الذي سيكون فيه، ولكنْ أنت بشكل خاصّ أريد أن أسألك: هل تريد ذلك؟

ـ نعم.

بعد ستَّة أيَّام كان عبد السلام يَحْضر اجتماعَ الفرقة الشبابيّة. ثلاثة شبّان وفتاتان... وكانت مارال هي إحدى الفتاتين. سيحكي عبد السلام لاحقًا قصَّةَ لقائه الأوَّل بمارال، فيقول:

ـ عندما دخلتُ إلى غرفة الاجتماع مع الرفيق الذي جاء بي التقت عينايَ بعينيْ مارال وأحسستُ أنّني لن أستطيع تحويلَ نظري عنهما. وعندما صافحتُها ورحَّبتْ بي «أهلًا رفيق إبراهيم» قلتُ في نفسي: هذه هي المرأة التي أريد أن أعيشَ معها كلّ حياتي.

ظلّ عبد السلام يحضر الاجتماعات الأسبوعيّة للفرقة مدّة

شهرين، ظهرتْ خلالها نتائجُ امتحان البكالوريا ونجح نجاحًا ممتازًا. هنَّأته مارال وقالت له إنَّه يستطيع أن يدرس الطبّ حسب العلامات التي حازها، وأخبرته أنَّها ستدرس الطبَّ عندما تنتهي من البكالوريا في العام المقبل. أجابها أنّه سيدرس الاقتصاد. بعد أيَّام بدأ إجراءات التسجيل في الجامعة في كلِّيَّة الاقتصاد.

رغم نجاحه ومضيّ كلّ هذه المدَّة وهو يحضر الاجتماعات الحزبيّة فإنَّه يكاد لا يتكلّم داخلها أبدًا. كلّ رفاقه يتناقشون في السياسة والاقتصاد وشؤون الحزب وفي الكتب التي قرأوها والكتب التي يجب أن يقرأوها، ويبقى هو صامتًا. صحيح أنَّه بدأ يفهم قسمًا من نقاشاتهم إلَّا أنَّه يحسّ أنَّه متخلّف عنهم في هذا المجال كثيرًا، وهو ما كان يربكه ويشعره بالعجز. فكَّر كثيرًا في كيفيّة تجاوز الأمر، وأخيرًا توصّل إلى قرار:

سأل رفاقه وسأل مهران عن أهمّ الكتب في الفكر الاشتراكيّ. سجَّلها وبدأ الدورانَ على المكتبات. بعد أن يشتري ما هو مسجَّل لديه يسأل صاحبَ المكتبة إنْ كانت هناك كتبٌ أخرى عن الموضوع نفسه، فيشتريها أيضًا. إلى أن أصبحتْ لديه مجموعةٌ كبيرةٌ من الكتب. بعدها أخبر مهران ورفاقه أنَّه مضطرّ إلى الغياب سنةً كاملة، وعاد إلى الخالديّة. قال لوالده إنَّه يريد أن يدخل الخلوةَ مرَّةً أخرى. «ودوامك في الجامعة؟» سأله الشيخ عبد الهادي. ردّ بهدوء:

ـ أجّلتُه عامًا كاملًا. ثم لماذا أنا مستعجل على الشهادة؟ هل سأستفيد منها شيئًا؟!

وخلال يومين كان قد أدخل إلى الخلوة الكثيرَ من المأكولات المجفَّفة («لن أعيش على التمر فقط وأنا لا أدخل الخلوة لكي أتأمّل!»). أدخل كلَّ الكتب التي اشتراها. ثم دخل إلى الخلوة وأغلق البابَ من الداخل.

أمرٌ واحدٌ ندم عليه وهو في الخلوة: لماذا لم يصارحْ مارال بحبِّه؟ ماذا لو أحبَّت شابًّا آخر غيرَه خلال هذه السنة؟ هل ستنتظره حتى يخرج؟ لو أنَّه لمّح لها فقط بحبِّه لاختلف الأمر! رغم ذلك انكبّ على الكتب. لم يكن يقرأ؛ كان يَدْرس وكأنَّه سيقدِّم امتحانًا جامعيًّا بها. كلُّ المقولات المهمَّة حفظها غيبًا. الأحداث وأغلب التواريخ، أسماء روَّاد الفكر الاشتراكيّ والمناضلين من أجله في العالم، أعمالهم، أقوالهم، مآثرهم. عام كامل. لم يملّ ولم تفترْ همَّتُه.

عندما خرج من الخلوة وبهره ضوءُ الشمس كان قد أصبح إنسانًا آخر. وكما قال هو مرَّة عن ذلك: «كأنَّكَ قد وضعتَ في رأسي عيونًا جديدة». اختلفتْ نظرتُه إلى الحياة والبشر، نظرتُه إلى مَنْ حوله وعائلته وأقاربه. حتى معيوف لمس هذا التغييرَ. الرقَّة واللطافة اللتان أصبحتا تميِّزان تعامله مع الآخرين هما ثمرة هذه السنة.

عاد إلى حلب بعد يومين. ومن فوره ذهب عند مهران، الذي استقبله بالأحضان. وبعد مرور عدَّة دقائق انحصرتْ في الأسئلة ذاتِ الطابع الشخصيّ، سأل عبدُ السلام عن الرفاق وعن أوضاع الحزب. أخذ مهران يتحدَّث بإسهاب عن ذلك، وقد تعوّد أن يكون عبد السلام مجرَّدَ مستمعٍ مع هزَّة رأسٍ فقط. ولكنْ، هذه المرَّة، وعند نقطة معيَّنة، رفع عبد السلام يدَه اليمنى أمام وجه مهران طالبًا الكلامَ. كان في البداية متردِّدًا ومتلعثمًا، ولكنْ مع سكوت مهران انطلق في الحديث. اتّسعت عينا مهران دهشةً وهو يستمع إلى عبد السلام. عبد السلام التقط هذا الأمر ومضى يتكلّم. امتدَّ بهما الحديثُ طويلًا. في النهاية وقف مهران. احتضن عبد السلام وهو يهزّه. كان مسرورًا جدًّا، وكأنّه يقول:

ـ هذا الشابّ من صنعي أنا.

حدث أمر مماثل في أوّل اجتماع للفرقة الشبابيّة؛ إذ عندما همّ عبد السلام بالحديث لم يعيروه أيَّ اهتمام. لكنْ بعد أنْ تزوَّد بالثقة من خلال لقائه بمهران انطلق غيرَ عابئ بنظراتهم، وفرض الحديثَ نفسه. لم تمضِ بضعةُ اجتماعات حتى أصبح عبد السلام هو حجرَ الزاوية في الفرقة. يدعهم يتكلّمون، ولكنْ عند وقوع أيِّ خلافٍ في الرأي ووصول النقاش إلى طريقٍ مسدودٍ أصبح الجميع ينظرون إليه وينتظرون أن يدلي برأيه في الموضوع. وحين يتكلّم يهزّ الجميعُ رؤوسَهم، ويوافقون على كلّ الآراء التي يدلي بها.

انتصف العامُ الدراسيّ وانتهت الامتحاناتُ النصفيّة. عبد السلام راضٍ عن دراسته، وراضٍ عن الاجتماعات الحزبيّة. أصبح يلحظ بعضَ النظرات من مارال. أحيانًا يلاحظ أنَّها تتعمَّد الجلوسَ قبالته، يضبطها وهي تسترق النظرَ إليه. هذا الأمر شجّعه، وفكَّر في أن يصارحها بحبِّه. لم يعد لديه أيُّ شكّ في أنَّه يريد هذه الفتاة ويريد أن يربط مصيرَه بمصيرها. ذاتَ يوم تغيَّبت الفتاةُ الأخرى وواحدٌ من الشباب، ولذلك كان اجتماعُهم قصيرًا. في نهاية الاجتماع بادرتْ مارال وقالت له:

ـ هل من الممكن أن تبقى قليلًا لأنَّ لي حديثًا خاصًّا معك؟

طار من الفرح. كان ينتظر اللحظةَ التي ينفرد فيها بها لكي يصارحَها بحبِّه لها. ذهب الرفيقُ الثالث وقرَّر عبد السلام أن يصارحها قبل أن تفتح الحديث الذي تريد أن تقوله. قال لها وهو ينظر في عينيها الخضراوين نظرةَ ولهٍ:

ـ قبل أن تبدإي أيّ حديثٍ أريد أن أقول لك شيئًا.

نظرتْ إليه مستطلعةً مستفهمة. أجابت:

ـ تفضَّل، قل ما تريد.

دفعةً واحدة، ومن دون شروح أو مقدِّمات، ألقى بالكلمات التي حبسها طويلًا:

ـ أنا أحبِّك، أحبِّك حدّ الألم، أريد أن يرتبط مصيري بمصيرك.

أرجعتْ ظهرَها إلى الوراء وأسندته إلى مسند الكرسيّ. ابتسامة على شفتيها. وكأنَّها تطلق رصاصةً أو قذيفةَ مدفعيّة، نطقتْ:

ـ أنت شخص غبيّ.

أُرتج عبد السلام وأُحبط. شعر بيأس فظيع. لم يقل له أحد في السابق مثل هذا الكلام. كان اعتاد المديحَ وتقبيلَ اليد. الآن الفتاة التي أحبَّها ومستعدٌّ أن يَهَبَها حياتَه تقول له بكلِّ بساطةٍ ووضوح: أنت شخص غبيّ! سكت ولم يردّ.

ـ لماذا لا تردّ؟ لماذا لا تسألني عن سبب قولي لك إنّك إنسان غبيّ؟

قالت هذا بحدَّة وقد تقدَّمتْ بجذعها إلى فوق الطاولة التي يجلسان إليها. نظر إليها نظرةً منكسرة. قال بخفوت:

ـ تفضّلي، قولي.

ـ تفضّلي... تفضّلي! أنت بارعٌ في قول الكلمات المهذَّبة، ولكنْ يا غبي... لقد أحببتُكَ منذ اليوم الأوَّل، وطوالَ زمن تعارفنا وأنا أنتظر منكَ أن تنطق هذه الجوهرة: «أنا أحبّكِ.» كدتُ أيأس منكَ. طلبتُ الانفرادَ بكَ فقط لأسألكَ عن مشاعرك نحوي لأنّني عرفتُ من نظراتك أنّك تحبّني. وقبل أن أسأل، وبكلِّ برودة وبلادة تقول لي العبارة التي انتظرتُها طويلًا: «أنا أحبّكِ!». هل عرفتَ الآن لماذا أنت غبيّ؟!

مع كلّ كلمة كانت تنطقها كانت معنويّاتُ عبد السلام ترتفع. في منتصف كلامها اعتمد بيديه على الطاولة وبدأ النهوض، ومع نهاية

كلامها قفز أمامها. احتضنها وغابا في قبلة طويلة. دار بها في الغرفة وشفاهُهما متعانقة. رجلاها مرتفعتان عن الأرض، وهي تدور معه، والقبلةُ الطويلة لا تنتهي. عندما وقفتْ على قدميها وقد انفصلت الشفاه راسمةً ابتسامةً فيها الكثيرُ من النشوة، قالت وهي نصفُ مغمضة العينين:

ـ أحبّك.

قال:

ـ أحبّك.

أشارت بيدها إلى الكرسيّ وطلبت إليه الجلوس. جلس وهو ما يزال متعلّقًا بأصابع يدها. جلستْ على كرسيِّها بعد أن سحبتْ يدها من يده. وبجدِّيّة كبيرة قالت:

ـ سأُخبر أبي بالموضوع، وأرجو أن يتفهَّم الأمر.

ـ عرِّفيني إلى أبيك وسأخطبكِ منه رسميًا. أيّ شيء تريدينه أنا على استعداد لتنفيذه.

ـ ولكنَّك تعرف أبي. هو حكى لي عنك حتى قبل أن أعرفك.

ـ أعرف أباك؟ مَن هو؟

ـ مهران.

صُعق عبد السلام. أنت ابنة العمّ مهران؟! أنت أرمنيّة؟ لغتك العربيّة سليمة جدًّا، لا تتكلّمين مثلَ باقي الأرمن بلهجةٍ مكسَّرة، أنتِ ابنة الرفيق مهران؟!

ـ نعم أنا ابنته... وهذا بيته.

ـ يا إلٰهي، أيّة مفاجأة هذه! هل سيَقْبل العمّ مهران أن يزوِّجك إلى مسلم؟

ـ وهل أنت مسلم؟! لم أكن أظنّ أنّك قد تكون مسلمًا!!

قالت هذه الجملةَ باستغرابٍ واستنكارٍ واضحيْن، فقابله استنكارٌ مماثلٌ على تعابير وجه عبد السلام، وسألها وقد اتّسعت عيناه:

ـ ولماذا كنتِ تعتقدين أنّني غير مسلم؟

ـ لا أدري، ربّما لأنّك جميل ووسيم جدًّا.

احمرّ وجهُ عبد السلام، وضحكتْ مارال. أفهمتْه أنَّ الدين لا يعني لها شيئًا. يكفي أنّها تحبّه ويحبّها.

ـ والآن ما هو اسمكِ الحقيقيّ؟

ـ مارال، وأنت؟

ـ عبد السلام.

وغرقا في أحاديث الحبّ، والكثيرِ الكثيرِ من القبل، وبدأا التخطيطَ للمستقبل.

في العشرين انتقل عبد السلام إلى السنة الثانية في الجامعة، وأصبح في الوقت ذاته مسؤولَ منظّمة الشباب للحزب في حلب. ومع مرور الأيّام بدأ التعرُّفَ إلى شباب الحزب، وإلى الكثير من قياداته أيضًا. ولكلِّ حزبٍ في العادة حياةٌ داخليّةٌ خاصّة، يختلط فيها السياسيُّ بالاجتماعيّ. فإلى جانب النشاط السياسيّ لأعضاء الحزب تنشأ شتّى أنواع العلاقات الإنسانيّة: تعارفٌ وصداقاتٌ وعلاقاتُ حبّ وزواج أو فشل. وفي الحياة الداخليّة هذه أصبح عبد السلام معروفًا، وتمّ تناقلُ اسمِه وأعمالِه بإعجاب.

لكنْ، في الوقت الذي كان فيه الحزبُ يعاني ضغطًا أمنيًّا كبيرًا من قِبل السلطة الحاكمة، ترافقه حملةٌ إعلاميّةٌ متنامية لتشويه صورته وأفكاره، جاءت ابنةُ أحد القياديّين الكبار في الحزب ذاتَ يوم

وأخبرتْ أمَّها وهي تبكي إنّها قد تكون حاملًا!

لطمت الأمُّ وجهَها. يا للفضيحة، إذا كان هذا الذي تقوله البنتُ صحيحًا! بعد بضعة أسئلة اصطحبتْها إلى طبيبةٍ نسائيّةٍ كانت هي أيضًا من أعضاء الحزب، فأكَّدت لها أنَّ الفتاة التي تبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا حامل. حاولت الأمُّ والطبيبةُ معرفةَ تفاصيل كيف حدث ذلك، لكنَّ البنت رفضت التفوّه بأيّة كلمة، واكتفت بالبكاء. مساءً أخبرت الأمُّ زوجَها، فجُنّ جنُونه: ذلك أنّ أمرًا كهذا، في مجتمع كهذا، سيُلْحق العارَ بجميع أفراد العائلة والأقارب. قضى الليلَ بطوله يحقِّق مع ابنته، على غير طائل. وبحجَّة ذهابها إلى المرحاض حاولت البنتُ الانتحار بابتلاع علبةٍ من حبوب الأسپرين، لكنَّ الأمّ التي كانت تراقبها ضبطتْها وانتزعت العلبةَ منها. عندها غيَّر الأبُ من معاملته وأصبح ليِّنًا ورقيقًا. سمح لها بأن تنام. وفي اليوم الثاني، وبسرِّيّة تامَّة، أجرت الطبيبةُ عمليّةَ الإجهاض.

طلب أبو الفتاة عقدَ اجتماع لأعلى هيئةٍ قياديّةٍ حزبيّة، وهو عضو فيها. أبلغهم بالأمر، وشرح لهم أنَّه فهم من ابنته، رغم تكتُّمها، أنَّ هناك العديدَ من فتيات الحزب في مثل وضعها. وقرّ رأيُ القيادة على التحقيق في الأمر لأنَّ الموضوع، إذا ظَهَرَ إلى العلن، فسيشكِّل فضيحةً أخلاقيّةً كبيرة، وخصوصًا في مثل هذه الظروف التي يمرُّ بها الحزب. ولأنَّ القضيّة شبابيّة، وعبد السلام مسؤولُ منظَّمة الشباب في المدينة ويتمتَّع بسمعةٍ طيِّبة، فقد تمّ استدعاؤه إلى اجتماعٍ لاحقٍ للهيئة نفسها. عند دخوله الاجتماع شعر بالرهبة: فهو أمام رجالٍ طالما سمع عنهم وعن إمكاناتهم وتاريخهم وبطولاتهم، وقد تحوَّلوا إلى أساطيرَ حيّةٍ لدى أعضاء الحزب. جلس معهم، واستمع إلى ما قالوه، فطلبوا إليه أن يحقِّق في المسألة بسرِّيَّةٍ تامَّةٍ وبشكل غير مباشر إذا أمكن. وكرَّر

أحدُ الأعضاء على عبد السلام: «نقول بسرِّيَّةٍ تامَّة... سرِّيَّةٍ تامّة، أرجو أن لا تنسَى هذا».

قضى سلام يومين وهو يفكِّر كيف سيُنجز المهمّةَ التي أوكلها إليه أكبرُ قادة الحزب. في البداية وبَّخ نفسه قليلًا لأنَّه لم يستفسرْ بما فيه الكفاية عن الكيفيّة التي سينجز بها هذه المهمَّة؛ فلقد منعتْه من ذلك هيبةُ هؤلاء القادة، والرهبةُ التي كان يشعر بها تجاههم. لكنْ، فيما بعد، أخذ يفكِّر بطريقةٍ عمليّة؛ فهو، بحكم وجوده في قيادة المنظَّمة الشبابيّة، عرف مَنْ هم أعضاءُ فرقة الفتاة التي حملتْ. ثم أخذ يتحرَّى عن أصدقائها والأشخاص المقرَّبين إليها. بعد عشرة أيّام أضحت لديه شبهات، من دون دلائل ولا مؤشِّرات. المعلومات البسيطة التي توفَّرتْ لديه أشارتْ صوب شخص محدّد: الرفيق مروان. ومروان عضوٌ في قيادة المنظَّمة الشبابيّة، يوصف بأنّه كادر سياسيّ وفكريّ واعد، مثقَّف بطريقةٍ تميِّزه من بقيّة الرفاق، ولولا سلوكُه الاستعلائيّ الذي ينفِّر الآخرين منه لكان هو الأجدرَ بأن يكون على رأس منظَّمة شباب الحزب. مروان يكره عبدَ السلام، وعبد السلام لا يستسيغه ولا يحبِّذ الجدلَ معه. حاول عبد السلام إبعادَ الخاطر هذا، لكنَّ الخاطر بقي ملحًّا. وبعد يومين طلب مقابلةَ القيادة وأبلغهم أنَّه يشكّ في مروان!

بعد مداولاتٍ عديدة بينهم التفتوا إليه وسأله أحدُهم:

ـ ماذا تقترح؟ لا نملك أيَّ دليل، ولا نستطيع التحقيق معه من دون هذا الدليل.

ـ لا أعرف. ولكنْ لديه مجموعة من الأصدقاء المقرَّبين داخل الحزب، وهم دائمًا معًا.

وقف والدُ الفتاة وسأل سلام وهو يمدّ يدَه في اتّجاهه:

ـ أنت... أنت، ألا تستطيع أن تكون صديقَه؟

كانت هذه بدايةَ الفكرة التي تطوَّرتْ لاحقًا. أرسلوا الاثنين، عبد السلام ومروان، إلى پراغ لحضور بعض النشاطات التي تهمّ الشبابَ العالميّ، بناءً على دعوةٍ أُرسلتْ إلى الحزب. منذ لحظة صعودهما إلى الطائرة أخذ عبد السلام يتعامل معه بأريحيّة وبساطة. في پراغ نزلا في فندق واحد، يأكلان معًا ويخرجان معًا. بقيا أسبوعًا كاملًا، تخلَّلته ثلاثُ سهراتٍ مشتركة مع كأس وأحاديث حميمة. وعندما عادا إلى الوطن كانا قد أصبحا صديقين.

بعد دعوتين إلى العشاء والسهرة في أحد أرقى مطاعم المدينة بدأ مروان يشرح ما سمَّاه «نظرته إلى الحياة»:

ـ الحياة قصيرة ويجب أن لا نضيِّعَها في توافه الأمور. ليس هناك من حقائق في هذه الدنيا سوى المتعة، وأُولى هذه المتع الإنسانيّة هي الجنس. الجنس هو أعظمُ شيء أعطتنا إيّاه الطبيعة. لذلك علينا أن نستغلّ حياتَنا القصيرة لكي نعبّ قدرَ استطاعتنا من كلّ متع الحياة...

مضت السهرة وهو يتكلّم عن فهمه للحياة وضرورة «أن نَضْرب بعرضَ الحائط كلَّ المحرِّمات والعاداتِ والمفاهيمِ البالية». وتابع الحديث بعد أن خرجا من المطعم، وفي نهاية كلّ مقطع من حديثه كان يلتفت صوب عبد السلام ويسأله: «ما رأيك؟» فيهزّ عبد السلام رأسَه موافقًا.

بعد أربعة أيّام كان عبد السلام في الشقَّة الصغيرة التي سمَّاها مروان «العشّ»:

ـ سأدعوك إلى سهرة في العشّ لن تنساها طوال حياتك!

مروان وثلاثةٌ من أصدقائه الذين يَعْرفهم عبد السلام، وخمسُ فتيات جميلات يعرف بعضهنّ. الحرج والارتباك باديان على الفتيات بوجود عبد السلام. علَّق مروان همسًا في أذن عبد السلام:

ـ سوف ترى بعد قليل. كلُّهنّ عاهرات. فلا تصدِّق هذا الخجل!

بدأ عبد السلام يستوعب الأمر. مروان هو الزعيم والمحرِّك الأساس لهذه المجموعة. هو مَن أقنع أصدقاءه الثلاثة بما يسمِّيه «نظرته إلى الحياة» حول المتعة والحرِّيّة الجنسيّة. وفي مثل هذه السنّ يقتنع الشبابُ والفتياتُ سريعًا بهذا الفهم الذي يلبِّي حاجاتهم الغريزيّة. الشباب ثابتون في المجموعة، أمَّا الفتيات فيتغيَّرن تبعًا لظروفِ كلّ واحدةٍ منهنّ.

حفلة جنس جماعيّة. طعام وشراب ورقص. بعد أن تدور الرؤوس تبدأ الفتيات بالتخفّف من الملابس أثناء الرقص.

مال سلام برأسه صوب مروان وهما يراقبان رقص الفتيات وتعرِّيهنّ. سأل:

ـ أرى أنَّ عددنا كذكور مساوٍ لعدد الفتيات، فهل لكلِّ شابٍّ فتاةٌ محدَّدة؟

ـ لا... شعارنا هو: الكلّ للكلّ!

ـ وإذا حملتْ إحدى الفتيات؟

ـ نحاول أن لا يحدث ذلك. ولكنْ إذا حدث فهي لن تعرف من هو والدُ الطفل.

قال هذا وهو يضحك، أردف بعدها:

ـ نجري لها عمليّةَ إجهاض، وهو أمرٌ لا نحبِّذه ولا نريده لأنَّه يكلِّفنا الكثيرَ من النقود، ويُضعف ميزانيّتنا. والآن اتركْنا من هذا الحديث. ألن ترقص وتشارك؟

ـ لا. أشعر أنّني مريض.

تذرَّع عبد السلام بمرضه المفاجئ وغادر السهرة.

ككلّ اجتماع له مع القيادة يبدو المشهدُ غريبًا نوعًا ما. شابّ في العشرين من عمره يجلس بين رجالٍ في الستّين والسبعين. في هذا الاجتماع الجديد كان الأمرُ أكثرَ غرابةً لأنَّه كان الوحيد الذي يتكلّم، بينما عيونُ الجميع مشدودةٌ إليه. حين انتهى من كلامه ساد صمتٌ عميق، وهم يتبادلون النظرات.

ـ يجب أن نفصلهم ونطردهم من الحزب جميعًا.

هكذا قال أحدُهم، كاسرًا جدارَ الصمت. هزّ آخرُ رأسَه، وبحسرةٍ وأسفٍ قال:

ـ ليتنا كنّا نستطيع أن نوقع عقوبةً أقسى من ذلك!

استمرّ النقاش بين أعضاء القيادة طويلًا حول أفضل السبل للتخلُّص من هذه المجموعة من دون أن تنفجر فضيحةٌ أخلاقيّةٌ مدوِّية تستغلُّها كلُّ القوى المعادية للحزب. وأخيرًا اتّخذوا قرارَهم: إرسال مروان إلى إحدى الدول الاشتراكيّة بحجَّة التحاقه بدورةٍ تثقيفيّةٍ لمدَّة عامين. وبعد أن يمضي بضعة أشهر يُطرد من هناك بذريعةٍ ما. أمَّا باقي المجموعة فتتمّ مراقبتُهم وطردُهم واحدًا واحدًا من الحزب، وعلى فتراتٍ زمنيّةٍ متباعدة درءًا لكلِّ الشبهات.

طُويتْ صفحةُ المشكلة. ومن نتائجها أنّ عبد السلام أصبح يَعرف كلَّ قيادة الحزب، وهم جميعًا يعرفونه، وغدا محطَّ إعجابهم وتقديرهم.

أمّا بالنسبة إليه فقد سقطت الهالةُ الكبيرة من الاحترام والتقديس التي كانت داخله تجاه هذه القيادات. لم يعد ينظر إليهم برهبة وخشوع كما يفعل كلُّ أعضاء الحزب الذين لا يعرفونهم ولا يحتكُّون بهم. بل مع مرور الأيَّام أخذ يُحسّ بالقرف من بعضهم، إذ كلَّما انفرد به أحدهم طَرَقَ موضوعَ «المجموعة الخليعة» كما أسماها بعضُهم. أحدُ

أعضاء القيادة، وكان عجوزًا يضع في فمه طقمًا من الأسنان الاصطناعيّة، التقاه بالمصادفة في الشارع، فدعاه إلى أحد المطاعم لتناول العشاء وشرب «كأسٍ من العرق»، وكان طوال السهرة يلحّ على عبد السلام بسرد تفاصيل ما كانت تفعله الفتياتُ أثناء الرقص. وبين لقمةٍ وأخرى كان يحرِّك أسنانَه الاصطناعيّة مبرزًا إيّاها إلى الأمام ويضحك في الوقت ذاته، فتَظْهر قطعٌ من البقدونس والبندورة وبقايا الطعام ملتصقةً على أسنانه. ثم يفرك يديه وتلمع عيناه، ويعاود السؤال:

ـ وهل خلعتْ إحداهنّ ملابسَها الداخليّة أمامك؟

ويردّ عبد السلام بصبر كبير:

ـ انسحبتُ من السهرة قبل حدوث ذلك. ولا أعرف ما حدث بعد أن غادرتُ.

ـ يا لك من جبّار! كيف يستطيع شابٌّ في مثل عمرك أن يترك مشاهدَ كهذه وينسحب؟

مع الأيّام أصبح عبد السلام بارعًا في التملُّص من هذا الحديث. وبعد مضيّ فترة من الزمن غرق القادةُ هم أيضًا في مشاكل الحزب وملاحقة السلطات.

لكنْ، رغم كلّ شيء، كان هذا الموضوع هو أحدَ الأسباب الرئيسة التي فتحتْ أمام عبد السلام أبوابَ النجاح والصعود في السلّم التراتبيّ الحزبيّ الصارم.

# (٨)

قبل أن نقع في فخِّ الرتابة أثناء وجودنا في حلب بلا عمل، وفي اليوم الذي عدنا فيه من الخالديّة، قال لي سلام:

ـ غدًا سأكون عند العمّ مهران في محلّه لكي أتّفق معه على الوقت المناسب لذهابنا إلى بيتهم من أجل بحث موعد الزفاف والأمور الأخرى كما طلب والدي. فأرجو أن تأتي عندي مساءً لكي نسهر، وأخبركَ بما اتّفقنا عليه.

حين يتكلّم سلام عن مارال وموعد الزفاف أو كلّ ما له علاقة بها، فإنّه يبدو في قمّة النشاط والفرح؛ فهو لم يستطع أن يحظى بموافقة جميع الأطراف إلّا بعد عناء وتعب شديديْن.

منذ اليوم الأوّل الذي تصارحا فيه بالحبّ وتفاجؤ مارال بأنّ عبد السلام مسلم، ورغم أنّها قالت له إنّ الدين لا يعني لها شيئًا، فإنّ سلام شعر أنّ الأمر لن يمرّ بالسهولة التي كان يتصوّرها أو يتمنّاها.

انتظرتْ مارال يومين ثم ذهبتْ إلى محلّ والدها لأنّها لا تريد مناقشتَه أمام أمّها أو أخيها. رحّب بها وظلّ يتابع عمله طالبًا منها الجلوس، فجلستْ. سألها عن سبب مجيئها. قالت:

ـ لقد عوّدتني يا أبي على الصراحة. وهناك مسألة أريد أن أخبرك

بها كما كنتُ أفعل دائمًا.

تابع مهران عمله معتقدًا أنَّها ستكلّمه عن إحدى مشاكلها الصغيرة كما تفعل في كلّ مرَّة. اكتفى بهزَّات من رأسه دلالة التشجيع على متابعة الحديث. حينها ألقت مارال بما لديها دفعةً واحدة:

ـ أنا والرفيق إبراهيم نحبّ بعضنا بعضًا.

توقَّفتْ يدا مهران عن الحركة وظلّ ينظر إليها بثبات دقيقةً أو دقيقتين. حاول أن يصفِّي ذهنه، أن يفكِّر بهدوء. تقدّم بجسده إلى الأمام وسألها:

ـ هل تعرفين أنَّه مسلم؟

ـ نعم أعرف أو بالأحرى عرفت. أبي، لطالما علَّمتني أنَّ البشر كلّهم إخوة، وأنَّ الدين شيء مصطنع ويفرِّق الناسَ. أليست هذه كلماتك؟

كان كلامُها قاطعًا ومفحِمًا. اضطرّ إلى السكوت. خطر له أنَّ أفضل حلٍّ هو التأجيل، تأجيلُ الحديث في الموضوع كلّه، حتى يتسنَّى له التفكير في طريقةٍ ما لحلِّ هذه المشكلة. قال:

ـ نعم... نعم صحيح. ولكنْ يجب أن نفكِّر في الموضوع جيِّدًا. لنؤجِّل الحديث فيه بضعة أيَّام فقط.

ـ طيِّب، كما تريد.

كلامها الأخير كان مغلَّفًا بنبرةٍ فيها عتبٌ وغضب. حيّت أباها وخرجتْ من المحلّ بسرعة.

«هؤلاء المراهقون!» حدَّث مهران نفسَه.

والآن؟ يبدو أنَّ ساعة الحقيقة قد حلَّت. لم يعد إلى العمل. وعلى طريقته في التفكير والمحاكمة، شرد بنظره بعيدًا:

هذه البقعة من العالم الواقعة شرقَ البحر الأبيض المتوسّط؛ البقعة التي أنتجتْ ثلاثةَ أديان سماويّة وتحتكر عمليًّا العلاقة مع السماء؛ هذه البقعة التي أنتجتْ أوَّلَ أبجديّة في تاريخ الإنسان وأوَّلَ تشريع قانونيّ؛ البقعة التي هي عبارة عن ممرّ مرَّت فيه جميعُ الأقوام والشعوب، جميعُ الغزاة وهواةِ الحروب، وعادوا من حيث جاؤوا؛ البعض استقرَّ فيها وقد استهوتْه وخلبتْ لبّه، وهي التي فتحتْ صدرَها لكلِّ مظلوم ولاجئ ومضطهد.

وحلب، هذه المدينة بالتحديد، يسكنها العربُ والكردُ والتركمان والأرمن والشركس والأرناؤوط والشيشان والداغستان والبلوش والفرس وبقايا التتار. يسكنها المسلمون بكلِّ طوائفهم ومذاهبهم، والمسيحيُّون بكلِّ طوائفهم ومذاهبهم، واليهود بكلِّ طوائفهم ومذاهبهم... الأيزيديون، الصابئة، وبعضُ البوذيين والهندوس، يعيشون جميعًا معًا في هذا المكان!

كلَّ يوم جميعُ الناس فيها يحيُّون بعضهم بعضًا تحيّةَ الصباح، ويعملون جنبًا إلى جنب، يشترون بعضهم من بعض، والابتسامة لا تفارق شفاههم، وهم يردِّدون عباراتِ المجاملة والودّ والاحترام. يتزاورون في الأعياد الخاصّة لكلّ منهم وفي الأفراح والأحزان. لكنْ، في الوقت ذاته، كلُّ مجموعة منهم تلتفّ على ذاتها، تذمّ المجموعاتِ الأخرى في الأحاديث الخاصّة بين أفرادها، وتضع جدارًا كتيمًا في وجه الآخرين، من دون أن يتخلَّى أحدٌ منهم عن تلك الابتسامة.

هؤلاء الناس، الجماعات، الطوائف، المذاهب، يعيشون معًا ويتبادلون كلّ شيء، يكوِّنون صداقات مختلطة، يجلسون معًا في المقاهي والحانات ويتبادلون الأنخاب. قد يحبُّون بعضهم بعضًا، وقد يفضِّل شخصٌ مسلمٌ صديقَه المسيحيّ المقرَّب إليه على كلّ المسلمين،

والعكس أيضًا صحيح. ولطالما عاش جاران: مسيحيّ ومسلم، شركسيّ وعربيّ، أرمنيّ وكرديّ...، كعائلة واحدة، يعرفان بعضهما عن بعض كلّ شيء، ويتعاونان في كلّ شيء.

إلى أن يصل الأمرُ إلى موضوع الزواج! ليس مسموحًا لأيّ طرف أن يتزوَّج إلَّا من جماعته، طائفته، مذهبه. حتى ضمن الدين الواحد، المسلم السنِّيّ لا يتزوَّج مسلمة شيعيّة أو علويّة أو درزيّة، المسيحي الكاثوليكيّ لا يتزوَّج أرثوذوكسيّة أو بروتستانتيّة، الشركسيّة لا تتزوَّج إلَّا شركسيًّا ولو عنّستْ طوال حياتها...

* * *

يتذكَّر مهران ما حدث في العام الماضي في حيِّ المسيحيين المجاور لحيّ الأرمن، وقد كتبَتْ عنه كلُّ الصحف آنذاك:

صديقان، أحدُهما مسلم والآخر مسيحي، نشأا في أحد الأحياء المختلطة. كبرا وكبرتْ صداقتُهما. عملا معًا منذ الصبا في خياطة القمصان الرجّاليّة، ثم استقلّا بعملهما وافتتحا ورشةً صغيرةً للخياطة مناصفةً، ازدهر عملُها، وتحسنَّتْ أحوالهما المادِّيّة. تزوَّج المسلم وسكن مع زوجته في أحد أحياء المسلمين. بعده بقليل تزوَّج المسيحيّ وسكن في حيِّ المسيحيين. كانت عقليّة الاثنين منفتحة وبعيدة عن التعصُّب. وممَّا وطَّد علاقتَهما أنَّ الزوجتين نشأتْ بينهما صداقة عميقة، امتدَّت إلى الأولاد، فأحبَّ جورج فاطمة منذ الطفولة. لكنْ، رغم الصداقة العميقة، الممتدَّة لأكثر من خمسة وعشرين عامًا، فقد عارضتْ أُمَّاهما أن يتحوَّل هذا الحبُّ إلى زواج. لم تكونا تجرؤان على خرق قانون التحريم الصارم الذي صاغته ضمنًا كلُّ الجماعات المتعايشة. وعندما علم أبواهما بالأمر صُدِما، ونظر كلٌّ إلى الآخر وكأنَّه يراه لأوَّل مرَّةٍ في حياته.

في البيت قالت فاطمة لأبيها عندما حاول أن يُقْنعها بالحسنى بأن تكفَّ عن التفكير في الزواج لأنَّ هذا مستحيل:

- جورج أو لا أحد.

ولكنَّها كانت أكثر عنادًا وتصميمًا أمام أمِّها:

- جورج أو الانتحار.

ولم يختلف جوابُ جورج لأبيه وأمِّه عن جواب فاطمة. وظلَّ الحبيبان يتقابلان رغم كلّ الحظر والتهديدات التي وجَّهها إليهما الأهل، وخصوصًا من من عمّ فاطمة، وهو رجلٌ متعصِّبٌ جدًّا، ذهب إلى مشغل أخيه عندما علم بالأمر، والشررُ يتطاير من عينيه، ووجَّه كلامَه إلى أخيه وإلى صديقه وشريكه «أبو جورج»:

- إذا لم يتمّ وضعُ حدٍّ لهذه الفضيحة فستكون العاقبةُ وخيمة. لديَّ سبعةُ أولاد شباب، أيُّ واحدٍ منهم على استعداد للزواج منها، وأيُّ واحدٍ منهم على استعداد لقتلها، وقتلِ ذلك الكلب الكافر المُسمّى جورج.

وفزع الصديقان، وزادا من ضغوطهما على ولديْهِما فاطمة وجورج. جورج طلب المساعدة من أصدقائه، فنصحه أحدُهم بأن يصبح مسلمًا لأنَّ القانون يمنع زواجَ المسلمة من غير المسلم، فذهب إلى المحكمة الشرعيّة وأعلن إسلامَه أمام القاضي الشرعيّ، وتسلَّم شهادة تُفيد بأنَّه قد أصبح رجلًا مسلمًا، وسلَّمها من ثم إلى أبي فاطمة. ولكنّ هذه الخطوة قوبلتْ بردود فعل مختلفة:

فوالدا جورج كانا مملوءيْن بالعار الداخليّ والحرج من كلّ المسيحيين. وأبو فاطمة، الذي كان ميَّالًا في داخله إلى الموافقة، لم يجرؤ على اتِّخاذ أيّ خطوة قبل أن يأخذ رأيَ أخيه الأكبر، الذي رفض رفضًا قاطعًا، وزاد من تهديداته: «حتى لو ابتلع المصحفَ ولبس عمامةً

وجبّةً فلن يتمّ هذا الأمر إلّا على جثّتي». وكان يدعم موقفَ العمّ هذا جميعُ الأقارب وبعضُ رجال الدين المسلمين الذين علموا بالأمر.

بعد انتظار عامين قرَّر الحبيبان أن يسلكا الطريقَ الوحيد الباقي أمامهما، فهربا إلى مدينةٍ أخرى، وساعدهما صديقٌ لأبي جورج في إيجاد مسكن وتسجيل زواجهما لدى المحكمة.

ظلّا في تلك المدينة ثلاثة أشهر. زارهم أبو جورج مرَّتين ليطمئنَّ إليهما ويزوِّدَهما بالنقود. وبعد أحاديث طويلة توصَّل إلى إقناع صديقه أبي فاطمة بقبول الأمر الواقع، مخصِّصًا لهما راتبًا. وعند انتهاء الأشهر الثلاثة ذهب أبو فاطمة، وعاد الزوجان الجديدان إلى حلب معه، فسكنا في بيت أبي جورج بعد أن أوصاهما بالحذر: «أنا أعرف أخي جيِّدًا، إنَّه سيِّئ وأولاده أسوأ منه. لا تخرجا من البيت إلَّا إذا تأكَّدتما أنَّ الأمور في أمان».

عاشا في ما يشبه السجن، لكنَّهما كانا سعيدين لأنَّهما باتا يعيشان تحت سقفٍ واحد. وفي بداية الشهر الخامس حملتْ فاطمة. وبعد شهريْن أخبر الطبيبُ جورج أنّ على فاطمة أن تمشي يوميًّا، فأخذ يُخرجها صباحًا ويمشي معها في الشوارع المحيطة بالبيت لمدّة نصف ساعة. في اليوم العاشر لبدء برنامج المشي، أحاطت بهما فجأةً مجموعةٌ من الشباب يحملون في أيديهم البلطات الحادَّة: لقد اختار العمّ هذه الأداة لتنفيذ حكمه عليهما!

ساقوهما إلى منتصف الشارع. مع الصراخ والصياح خرج جميعُ أهالي هذا الحيِّ السكنيّ إلى الشرفات يستطلعون السببَ. عرفتْ فاطمة أولادَ عمِّها فخرجتْ من فمها عبارة:

ـ دخيلك... يا بن عمِّي.

وبزمجرةٍ ردَّ عليها أحدُ أبناء عمِّها:

ـ الآن عرفتِ ابنَ عمّكِ يا عاهرة.

وانهالت البلطةُ على رأسها. صاح عندها جورج، ولم يكن قد مسَّه أحد:

ـ آخ... آخ، لقد قتلتها يا حيـ...

لم يستطع أن يكمل عبارته فقد انهالت على رأسه بلطةٌ أخرى شقَّته إلى نصفين. سقط جورج وفاطمة أرضًا وانهالت عليهما شفراتُ البلطات الحادَّة. ضجيجُ انهيال البلطات على الجسدين اختلط بضجيج الناس المتفرِّجين من على الشرفات. السيَّارات متوقِّفة، الكثير من المارَّة بالصدفة توقَّفوا يشاهدون غير مصدِّقين ما يجري أمامهم. لم يكتفِ أصحابُ البلطات بقتلهما، بل قطَّعوا جَسَدَ جورج وجسدَ فاطمة وجسدَ الجنين الذي كان في بطنها.

عندما أوعز إليهم كبيرُهم وهو يرفع يده بالتوقُّف، كانت أكبرُ قطعة من الأجساد الثلاثة تكاد تكون بحجم الكفّ. تحلَّقوا حول قِطَعِ اللحم في منتصف الشارع، وهم ملطَّخون بالدماء، ورفعوا البلطات عاليًا وهم يهزجون:

ـ لقد غسلنا العارَ بالدم.

خفي الطريق وعلى الشرفات أخذ الناسُ يشيحون بوجوههم عن قِطَعِ اللحم المتناثرة على الإسفلت. الأمَّهات غطَّين عيون الأطفال بأيديهنّ كي لا يروا هذا المنظر. حضرتْ عائلتا جورج وفاطمة، وجمدت الدموعُ في أعين الرجال، بينما سقطت النساءُ أرضًا. عندما حضر رجالُ الشرطة والأطبَّاء الشرعيُّون والممرِّضون وجدوا صعوبةً في تمييز قطع اللحم؛ فكثيرٌ من قِطَعِ جورج وُضع في تابوت فاطمة، وكثيرٌ من قطع فاطمة وُضِع في تابوت جورج، وتوزَّعتْ قطعُ الجنين على التابوتيْن.

ظلّ التابوتان في ثلّاجة المشفى ثلاثة أيّام. رجال الدين المسيحيُّون رفضوا دفنَهم في المقبرة المسيحيّة لأنَّ فاطمة مسلمة ولأنَّ جورج كان قد أعلن إسلامه. وبعضُ رجال الدين المسلمين المتنفِّذين رفضوا دفنَهم في مقابر المسلمين لأنَّهم يعتقدون أنَّ جورج لم يعلن إسلامَه عن قناعة وإنَّما نفاقًا وفقط من أجل أن يتزوَّج فاطمة، ولأنَّهم اعتبروا فاطمة مرتدَّةً عن الإسلام لأنّها تزوَّجتْ من رجلٍ غير مسلم.

أخيرًا حَسمت السلطاتُ الأمرَ: هي لا تعترف بكلِّ هذه الأقاويل، فالسجلّات لديها تقول إنَّ الشخصين مسلمان. لذا دُفن التابوتان في مقبرة المسلمين. ولكنْ، في اليوم التالي للدفن، ذهبت العائلتان لزيارة القبرين، فوجدتا أنَّ العديد من الأشخاص تبرّزوا فوقهما ليلًا.

الصحفيّة التي كتبتْ عن «الجريمة البشعة» كما سمّتها قابلت الكثيرَ من المسيحيين والمسلمين لاستطلاع ردّ فعلهم على ما جرى، وقد تفاجأتْ كثيرًا بالردود التي سمعتْها. غالبيّةُ المسيحيين لم يُبدوا أسفَهم على ما جرى وسط حيّهم، بل كان ثمَّة نوعٌ من التشفِّي والموافقة على ما جرى. وكان هذا ظاهرًا لدى النساء أكثر من الرجال الذين يميلون إلى قول عباراتٍ عامَّة. امرأة مسيحيّة في الأربعين من عمرها تقريبًا أجابت الصحفيّة التي سألتها عن رأيها فيما حدث لابن حيّها جورج:

- يستأهل، هذا جزاء مَنْ يخون المسيح ويترك دينه من أجل واحدة «شرشوحة ومقمِّلة»!

على الضفّة الأخرى، لدى المسلمين، كانت الآراء وردودُ الفعل ذاتَها، وإنْ بعباراتٍ أخرى. وفي كلِّ الأحوال لا وجود للأسف أو التأسِّي. أحدُهم أجاب:

- إلى جهنَّم وبئس المصير! عاهرة لحقتْ شهوتَها النجسة وتركتْ

دينَها، دينَ الحقِّ، من أجل ولدٍ نصرانيّ نتن لا يعرف حتى كيف يغسل مؤخّرته!

* * *

هذه الحادثة، والعديدُ من أمثالها، جالت في ذهن مهران. تذكّر قولَ أحد أصدقائه: «هذا التجمُّع البشريّ قائمٌ على الكراهيّة والنفاق! هو برميلٌ من البارود ينتظر شرارةً ما... عندها سينفجر ويغدو ألفَ قطعةٍ وقطعة... وكم من الأهوال والفظائع سوف تحصل!»

مهران يومها لم يوافق صديقَه على آرائه. كان مؤمنًا إيمانًا عميقًا بإمكانيّة التعايش بين مختلف أجناس البشر وأديانهم. لكنَّه لم يشأ أن يجادل آنذاك، واكتفى بالقول:

ـ منذ مئات السنين يعيش مختلفُ البشر هنا، وما يزالون. لا أوافقكَ على هذا الرأي المتشائم.

كان قد جمد على كرسيِّه منذ مغادرة مارال. تنهَّد بعمق وأعاد ما طاف في ذهنه بدايةً: هؤلاء المراهقون! يظنُّون أنَّهم يستطيعون تحقيقَ ما يريدون لمجرَّد أنَّهم يريدون ذلك!

مارال، التي ظنَّت أنَّ أباها طلب تأجيلَ الحديث في الموضوع لمدَّة يومٍ أو يومين، بقيتْ تنتظر ستَّة أشهر. لم يبادر مهران إلى ذكر المسألة، لا من قريب ولا من بعيد. أخبرتْه لأنَّها لا تريد أن تفعل أيّ شيء خفيةً عنه، وفسَّرتْ سكوتَه موافقةً ضمنيّةً على استمرار علاقتها بعبد السلام، وإلَّا لكان قد طلب منها أن تكفّ عن لقائه أو تدخَّلَ لإبعادهما واحدهما عن الآخر في اجتماعات الفرقة الشبابيّة ـ وهو يستطيع ذلك من خلال مركزه في الحزب. ولذلك استمرَّت في لقاءاتها بعبد السلام، وبشكل شبهٍ يوميّ. ومع الأيَّام كانا يزدادان حبًّا وعشقًا.

مهران، من جهته، لم يغب الموضوعُ عن ذهنه أبدًا. في البداية

كان حائرًا جدًّا؛ فلولا مسألةُ اختلاف الدين لَمَا وَجَدَ زوجًا لابنته أفضلَ من سلام. كان حائرًا ما بين مبادئه التي يؤمن بها إيمانًا عميقًا، وبين ما قد يترتَّب على موافقته على زواج ابنته من مسلم من نتائج خطيرة عليه وعلى عائلته. سيقاطعه جميعُ الأرمن، وعملُه سوف يتأثَّر، وزوجتُه لا يمكن أن تستوعب هذا الأمر، وابنُه هو أيضًا يجب أن يتزوَّج في يومٍ ما ـ لكنْ أيُّ العائلات الأرمنيّة ستقبل أن تزوِّجه ابنتَها إذا كانت أختُه متزوِّجةً من مسلم؟!

بعد ستَّة أشهر قرَّر أن يستشير صديقيْه: المحامي سركيس، ومعلِّمَ المدرسة آرتين. فهما أرمنيّان مثله، وحزبيّان أيضًا، وفي مثل سنِّه، ولديهما أولادٌ في عمر أولاده:

ـ ماذا؟ ماذا تقول؟ هل تسألنا إذا كنّا نرضى أن نزوِّج بناتنا من شبَّان مسلمين؟ لا... وألف لا... لن يكون ذلك أبدًا!

كان هذا جوابَ آرتين الفوريّ. سركيس بقي صامتًا ينظر إلى مهران باستغراب. عندها قال مهران:

ـ ولو كان رفيقًا من رفاقنا وهو إنسان جيِّد جدًّا بكلِّ المعاني؟

ـ ولو كان كذلك. ابنتي أرمنيّة ولن تتزوَّج إلَّا شابًّا أرمنيًّا مثلها، وليذهبْ هذا الرفيقُ «الجيِّدُ جدًّا بكلِّ المعاني» ويتزوَّجْ رفيقةً مسلمةً «جيِّدةً جدًّا بكلِّ المعاني».

المحامي سركيس، الذي لم يشارك كثيرًا في النقاش، حاول في النهاية أن يَطرق الموضوعَ من الزاوية التي يعرف أنَّ مهران يأخذها كثيرًا في الاعتبار:

ـ لا تنسَ يا رفيق مهران أنَّ هذا الزواج سيُضِرُّ كثيرًا بمصالح الحزب التنظيميّة. نحن نعمل داخل هذا المجتمع، وعلينا أن نأخذ عاداتِه وتقاليدَه في الاعتبار. إنَّ الناس عندما يروْن أنّنا نشجِّع على

الزواج المختلط سينظرون إلى حزبنا نظرةً سلبيّةً، وسنفقد القاعدةَ الاجتماعيّةَ التي كوَّناها عبر سنوات طويلة.

خرج مهران وقد حسم تردُّدَه. تمتم وهو يصف صديقيْه التاريخيين بأنَّهما «حقيران ومنافقان». في اليوم التالي طلب من مارال أن تُخبر سلام بأن يأتي إلى محلِّه؛ فقد كان يعرف أنَّهما يلتقيان يوميًّا.

لأوَّل مرَّة يغلق مهران محلَّه من الداخل. لا يريد لأحد أن يقاطع جلسته هذه مع سلام. جلس قبالته وأخذ يتملَّاه بصمت. قال في نفسه إنّ ابنته محقّةٌ في اختيارها؛ فهو أيضًا يحبّ هذا الشابّ ويتمنّى أن يكون صهرَه. أخذ متَّسعًا من الوقت لينظّم أفكاره، وانشغل بإعداد إبريق من الشاي. بعد أن رشف الرشفةَ الأولى قال لسلام الذي بقي ساكتًا ينتظر:

ـ لقد قالت لي مارال إنّكما تحبّان بعضكما بعضًا. هل هذا صحيح؟

أومأ عبد السلام برأسه دلالةَ الموافقة.

ـ لا تهزّ رأسَكَ فقط؛ أعرفُ أنَّها تحبّكَ لأنَّها قالت ذلك. إذا كنت تحبُّها قل هذه العبارة أنتَ أيضًا!

ـ نعم يا عمِّي أنا أحبّها.

ـ «عمِّي؟!» لماذا لا تقول «رفيق مهران» كالعادة؟ على كلّ، هذا ليس مهمًّا الآن. ما هو في رأيك مستقبلُ علاقة الحبّ هذه؟

ـ الزواج يا رفيق مهران.

ـ «رفيق مهران»! جيِّد! وهل كلمة «الزواج» التي نطقتَها خرجتْ من قلبك؟ يعني هل أنت مصمِّم فعلًا على الزواج من مارال، أمْ أنَّها نزوةُ شباب؟

ـ أنا مصمِّم كلَّ التصميم يا رفيق مهران. وقد قلتُ لمارال إنَّها الإنسانة التي ستكون زوجتي إلى الأبد، ولن يفرِّق بيننا سوى الموت.

ـ ولكنْ أنتم المسلمين يحقّ لكم أن تتزوَّجوا أربعَ نساء. هل سيأتي يوم تتزوَّج فيه مرَّةً ثانيةً ومارال عندك؟

ـ مستحيل... يا عمّي مستحيل. ثم إنّني رفيقٌ في حزبكم، هل شاهدتَ يومًا ما رفيقًا من رفاقنا تزوَّج مرَّةً ثانية؟

ـ طيِّب.. طيِّب. والآن القضيّة الأهمّ. هل يعرف أهلُك ـ وخصوصًا والدك الذي هو، كما أخبرتني، رجلُ دين ـ بأنَّك تريد أن تتزوَّج من واحدة ليست عربيّة ولا مسلمة؟ هل أخبرتَهم سابقًا بنيِّتك الزواج وأخذتَ موافقتهم؟

ـ لا... لم أخبرهم لأنّني لم آخذْ موافقتَكَ بعد. سأخبرهم عندما تقول لي إنّك موافق، وعندها أعتقد أنَّهم سيوافقون. ولكنْ حتى لو لم يوافقوا فسأتزوّج مارال إذا وافقتَ أنتَ على هذا الزواج وباركتَه.

بقي مهران صامتًا عدَّة دقائق. سلام جامد على كرسيِّه ينظر إلى شفتيْ مهران. عندما التفت مهران إليه وقال إنَّه موافق قفز من كرسيِّه وقَبَّلَه. ابتسم مهران وأشار بيده إلى الباب وهو يقول:

ـ الآن اذهبْ وابدأْ معركتك مع أهلك.

خرج سلام من محلّ مهران وهو مفعمٌ بطعم السعادة والانتصار. كان يتوق إلى رؤية مارال ليزفّ إليها ما جرى، ولكنّ موعده معها غدًا، ولولا هذا الموعد لسافر إلى الخالديّة اليوم. لا بأس سيراها غدًا ومِنْ ثم يسافر. ولكنْ هل يذهب مباشرةً إلى أبيه ويتكلّم معه بكلِّ صراحة، أمْ يذهب إلى أمّه ويخبرها وتتولّى بنفسها إبلاغَ أبيه وإقناعه؟ فكَّر: في النهاية سيوافقان؛ فهما لم يرفضا له طلبًا منذ أن كان طفلًا،

وقد سبق لأبيه بعد حكاية مريم أن قال له اخْتَرِ البنتَ التي تريد أن تتزوَّجها، وكان عبد السلام هو مَن رفض حينها. الآن سيقول لأبيه هذه هي البنتُ التي اخترتُها أو التي اختارها قلبي. لا يهمّني أنّكم منذ أكثر من ألف وثلاثمائة سنة تحافظون على تقليد أنّ الشيخ عندما يتزوَّج يجب أن يختار امرأةً مخزوميّةً أبًا عن جدّ، ويجب أن تكون من أحفاد خالد بن الوليد وذريّته الصافية. ولكنْ حتى لو كانت المرأةُ التي سأتزوّج أرمنيّةً لا عربيّة، فإنّ أولادي سيكونون من بني مخزوم، لأنّني أنا مَن سينجبهم!

في اليوم التالي احتفل ومارال بما حقَّقاه من نيل موافقة مهران ـ وإن انزعجتْ مارال لأنَّ أباها فضّل أن يتكلّم معه لا معها في الأمر. أوصلها بسيَّارته إلى البيت، وقاد السيّارة نحو الخالديّة. وبعد ساعتين كان يدخل قصره.

صباحَ اليوم التالي أرسل إحدى الخادمات لتخبر أمّه أنَّه يريد زيارتها. استقبلته كالعادة في بهو القصر الكبير. قبَّل يدَها وقبَّلتْه مرحِّبةً به. دار الحديثَ بدايةً عن الصحَّة والشؤون الشخصيّة والعائليّة. لم يكن يعرف كيف يسوق الحديث بأفضل الطرق حتى لا يكون الأمر مفاجئًا لها فتتحفَّز وتصبحَ حذرةً شكَّاكة. لكنَّها ألقت إليه طوقَ النجاة عندما سألتْه مازحةً:

ـ أَمَا آن لك أن تفكِّر بالزواج؟ لقد كبرتَ وكان يجب أن تكون متزوِّجًا منذ عدَّة سنوات. نريد أن نرى أحفادنا قبل أن نموت.

لم يجبها على سؤالها. سكت عمدًا كي يشعرها بأنَّه يخفي أمرًا ما. طال سكوتُه. أمُّه تنظر إليه مستفسرةً، والابتسامةُ تتضاءل على شفتيها. وضع رأسَه بين يديه وأطرق إلى الأرض. سألته بقلق وقد وضعتْ يدَها على كتفه بحنان:

ـ سلام. . . ماذا تخفي عنّي؟ ماذا في الأمر يا ولدي؟ قل فأنا أمّك.

انتظر قليلًا. رفع رأسه ببطء وأنزل يديه اللتين كانتا تحضنان رأسه. زفر من صدره بعمق. نظر إلى عينيْ أمّه، وبهدوء قال:

ـ لا. . . لا يوجد أيُّ خبر سيّئ، على العكس يمكن أن يكون خبرًا جيّدًا إذا نلتُ رضاكِ. تريدين أن أتزوّج؟ نعم أنا أيضًا أريد أن أتزوّج، ولكنْ لن أتزوّج إلّا الفتاةَ التي أريدها. لن أتزوّج من أيّة مخزوميّة. إمَّا الفتاة التي أختارها أنا، أو لن أتزوّج أبدًا.

استمعت الأمُّ إلى حديثه بقلق وقد عقدتْ حاجبيْها. أحسَّت بحدسها الأنثويّ أنَّ وراء هذا الكلام حكايةً. سألتْ بلطف:

ـ سلام. . . ما الأمر؟ هل هناك فتاة معيَّنة تريدها؟ هل أنت عاشق يا ولدي؟

نهض واقفًا. وبكلِّ ما تعلَّمه من أساليب الكلام مضى يحدِّثها عن مارال وحبّه لها، عن أبيها وأهلها، عن مزاياها وجمالها. وظلّ يكرِّر بعد كلّ مقطع أنَّه لن يتزوَّج إلّا هذه الفتاة:

ـ قولي لأبي، إذا كان يريدني أن أتزوَّج فليوافقْ على زواجي من مارال. وإلّا فلن أتزوّج أبدًا.

استمعتْ إليه كأمٍّ بكلِّ جوارحها. تعاطفتْ معه بعد أن سألته عشرات الأسئلة. عرفتْ كلّ ما يجب أن تعرفه، ووعدته بعد ذلك أن تكلّم والده في الموضوع.

عاد إلى قصره وظلَّ ينتظر. بعد عشرة أيّام عند العصر حضر إليه أبو معيوف وأخبره أنَّ والده يريد رؤيته في المكتبة. ذهب وقلبُه لا يتوقَّف عن الخفقان. بعد التحيّة المعتادة طلب إليه والده أن يجلس، وبمنتهى الهدوء قال له الشيخ عبد الهادي:

ـ أخبرتني أمُّكَ أنّك تريد الزواج من واحدة ليست عربيّة ولا

مسلمة أيضًا. هل هذا صحيح؟

ـ نعم.

ـ أخبرْني عنها كلّ شيء، كيف تعرَّفتَ عليها، عن أهلها، أين يعيشون، ماذا يعملون؟

حدَّثه سلام بصدق وصراحة عن كلّ شيء. عندما أخبره بعمل والدها تصلَّب جسدُ الشيخ عبد الهادي ورفع رأسَه، ثم سأل بلهجة أقرب إلى الحدَّة:

ـ إسكافيّ؟! مصلح أحذية؟! هل تريد أنت أن تتزوَّج من ابنة إسكافيّ؟!

ـ نعم يا أبي. إنّه يعمل إسكافيًّا، ولكنَّه إنسان شريف وعظيم.

في نهاية الحديث سأله والده سؤالين:

ـ هل هي على استعداد لأن تلبسَ الحجاب؟

ـ لا... وأنا لا أريد لزوجتي أن تتحجَّب.

ـ هل عرضتَ عليها أن تصبح مسلمة؟

ـ لا... الإسلام يا أبي يسمح بأن أتزوَّج مسيحيّةً وأن تبقى على دينها.

عندها مدّ الشيخ عبد الهادي يده وسحب الكتابَ الذي كان يقرأه قبل مجيء سلام. نظر إلى سلام نظرةً عميقةً قائلًا:

ـ الموضوع يحتاج إلى دراسة. يجب أن نسأل عن الفتاة وأهلها. لا تستعجلْ في اتّخاذ قرار الزواج. سأناقشكَ وأُخبركَ في الوقت المناسب.

ثم بدأ يقرأ في الكتاب، وكان هذا إيذانًا بالانصراف.

صُدم سلام عندما سمع كلامَ والده. صحيح أنَّ والده لم يرفضْ رفضًا قاطعًا ولكنّه لم يوافقْ أيضًا. التأجيل شيء أقربُ إلى الرفض.

ولم يكن من خيارٍ أمامه سوى الانتظار، علّ الزمَن يغيِّر من موقف الشيخ عبد الهادي.

وطال الانتظارُ سنوات. أنهى عبد السلام دراسته الجامعيّة، وتفرَّغ نهائيًّا للعمل الحزبيّ، وارتقى سريعًا في المناصب الحزبيّة. لكنّ موضوع موافقة والده على الزواج بقي معلَّقًا، رغم أنَّه حاول عدَّة مرَّات خلال هذه السنوات أن يعود إلى فتح الموضوع عن طريق أمّه. سلام كان يتهرَّب من نظرات التساؤل المطلّة من عيون مهران ومارال، وكأنَّ هذه النظرات تتّهمه بالضعف وتلومه وتذكِّره بما كان يقول عندما تأخَّر مهران بضعة أشهر قبل أن يعطي موافقتَه. ومع هذا تعمَّق حبُّهما واحدهما للآخر، وازداد تصميمُ مهران على إتمام الزواج.

لم يَعرف أحدٌ سببَ تحوُّل موقف الشيخ عبد الهادي بعد بضعة أيَّام على خروجنا من السجن. لعلَّها محنةُ السجن وإحساسه أنَّه إذا زوَّج سلام فقد يخفِّف من اندفاعه تجاه العمل السياسيّ، رغم أنَّه لم يحاول ولو مرَّةً أن ينصحه بترك هذا العمل.

كما اتّفقنا ذهبتُ عند سلام مساءً فوجدتُه جالسًا ينتظرني. أخبرني أنّنا سنذهب الآن إلى بيت العمّ مهران للاتّفاق على موعد الزواج وكلّ الأمور الأخرى.

جلسنا حول الطاولة المعتادة بعد أن ملأتْها الأمّ نازليك بالصحون والكاسات. رشف سلام رشفةً من كأس العرق. اعتدل في جلسته وشمل الجميعَ بنظرته، ثم توجَّه بالحديث إلى مهران الذي كان يجلس قبالته وعلى شفتيْه ابتسامةٌ وديعة. قال:

ـ أبي يبلغكم جميعًا تحيّاته القلبيّة، وقد طلب منّي أن آتي إليكم لكي نتّفق أوَّلًا على تحديد موعد الزواج، وهو يريد أن يكون هذا الموعد قريبًا، ثم نتّفق على الأمور الأخرى من مهرٍ وخلافِه.

في صوت سلام رنّةُ انتصارٍ واضحة. مهران اتّسعت ابتسامتُه. رفع يده متمهِّلًا وأشار صوب مارال، ثم قال بصوت هادئ:

ـ هذه مارال وهذا أنت. اتّفقا على ما تريدان، ونحن معكما فيما تقرِّران.

التفتتْ كلُّ الأعين صوب مارال التي أمسكتْ بطرف الطاولة. سألها سلام:

ـ متى نحدِّد موعدَ العرس؟

ـ ليس قبل سنةٍ من الآن!

فوجئ الجميعُ بجوابها. سلام بدا كالمصدوم. سألها باستغراب:

ـ سنة؟! ولماذا سنة؟

ـ لن أتزوَّج قبل تخرُّجي من الجامعة. بقيتْ سنةً لأصبح طبيبة. لن أذهب إلى الجامعة وخاتمُ الزواج في يدي. هذا قراري النهائيّ.

حاول سلام مناقشتَها في الموضوع، ولكنّ مهران منعه بلباقة ولطف. كان يعرف ابنته جيِّدًا: عندما تقول شيئًا بهذا التصميم فلا وسيلةَ تجعلها تتراجع عن قرارها. وكي لا يحتدّ النقاشُ اقترح مهران تأجيلَه إلى وقتٍ آخر «لأنّنا الآن نحتفل بخروجكما من السجن»، وسرعان ما طَرَقَ موضوعاتٍ أخرى. لكنّ هذا لم يخفِّف من آثار الصدمة البادية على وجه سلام؛ فعدا عن كونه قد «حارب» طويلًا حتى يظفرَ بالزواج من مارال فها إنّ معركة جديدة تُفتح الآن مع الطرف الذي لم يكن يتوقّع منه الممانعةَ يومًا.

انتهينا من تناول الطعام بعد حوالى الساعتين. التفتتْ مارال إلى سلام وإليّ واقترحتْ أن نخرج من البيت للتمشّي. في الشارع، وبلهجةٍ مصالحةٍ ودودة، بعد أن أمسكتْ بذراعه، قالت:

ـ هل أنت زعلان؟

نظر إليها جانبيًّا بحنق، وسألها بلهجةٍ أقربَ إلى الحدَّة:

ـ هل تستطيعين أن تفسِّري موقفكِ هذا؟ ألا تستطيعين أن تكملي دراستك ونحن متزوِّجان؟! ماذا سأقول لوالدي الآن؟

وقفتْ والتفتتْ إليه. وبصوتٍ ممزوجٍ بالدلال والأنوثة قالت:

ـ أنا التي يجب أن تسألك عن سبب استعجالك! ألا نعيش الآن معًا كلّ يوم؟ ثم... (والتفتت نحوي وهي محرجة) ألا ننام معًا وكأنّنا متزوِّجان؟ يا حبيبي، يا سلام، نحن الآن نعيش أحلى أيَّام عمرنا. لنتركْ هذه الفترة تطول قدرَ الإمكان، لأنّنا بعد سنة سنغرق في مشاكل الزواج والروتين وما إلى ذلك.

قبل أن نتابعَ السير وجّهتْ حديثَها إليّ قائلةً:

ـ ألستُ محقَّة؟ أرجو أن تُفهِمَ صديقَكَ العزيزَ ذلك.

قالت الجملة الأخيرة بعد أن أومأتُ لها برأسي موافقًا.

لانت تقاسيمُ سلام. أمسك يدَ مارال والتفت صوبي. خاطبني وهو يغالب ضحكته:

ـ هل رأيتَ أيَّ امرأةٍ لديَّ؟ لم أفكِّر أبدًا في الأمر من هذه الزاوية! نعم صحيح... صحيح! هل عرفتَ الآن يا صديقي لماذا أحبُّ هذه الصبيّة كلَّ هذا الحبّ؟ هل تتذكَّر أحاديثي عنها ونحن في السجن؟ ألم يكن كلُّ ما قلتُه لك عنها صحيحًا؟

مشينا أكثر من نصف ساعة، ثم عدنا إلى بيت مهران الذي نظر إلينا متسائلًا. ضحك سلام وقال برخاوة:

ـ لقد اتّفقنا أن يكون موعدُ العرس بعد سنة!

انفجر مهران بضحكةٍ مجلجلةٍ وهو يخبط ركبته. ومن بين اهتزازات ضحكته قال:

ـ هذه هي البداية. ليكن اللهُ في عونِكَ يا سلام!

## (٩)

أولاد العمَّة، أولاد عفراء، أولاد العمَّة عفراء!

كان قد بقي شهران على تخرُّج مارال من الجامعة طبيبةً، ومن ثم شهران على موعد الزفاف. أجلسُ مع سلام وأصلان في شقَّتي على جري العادة. كنتُ أرى سلام كلّ يوم. أمَّا أصلان، ونتيجةً لطبيعة عمله، فقد كان يحضر سهرةً واحدةً كلّ أسبوع أو أسبوعين. استمرَّت السهرة حتى منتصف الليل. ذهب سلام إلى بيته بعد أن قرَّر أصلان أنَّه سيبيت عندي. لملمنا ما هو موجود على الطاولة ونقلناه إلى المطبخ. وفيما كان يحضّر بقايا الصحون والكؤوس سألني وهو شبهُ مخمور:

ـ هل ستذهب الأسبوعَ المقبل معنا إلى الخالديّة؟

ـ ولماذا ستذهبون إلى الخالديّة؟

ترك أصلان الصحونَ والكؤوس والتفت إليّ وعيناه شبهُ غائمتين. قال ببطء:

ـ الأسبوع المقبل هو الموعد السنويّ لاستقبال أولاد العمَّة، أولاد العمَّة عفراء!

وفي الأسبوع التالي كنّا في الخالديّة.

* * *

أولاد العمَّة: هذه التسمية جاءت بعد أكثر من أربعمائة عام على مذبحة الخوالد. الدولة العلويّة، التي يُفترض أنَّها نَفَّذتْ مقتلةَ الخوالد، سقطتْ واضمحلَّتْ بعد سنواتٍ قليلةٍ من تلك المذبحة! وهذا السقوط كان حتميًّا في زمنٍ كان فيه نشوءُ الدول وسقوطُها أمرًا طبيعيًّا. فالخلافة العبّاسيّة التي نشأتْ قويّةً وحيويّةً بدأ الضعفُ يدبّ فيها، ونشأتْ دولٌ صغيرةٌ مستظلَّةً بهذه الخلافة التي بدأت وكأنَّها انتصارٌ للحزب العلويّ الهاشميّ، خصوصًا عندما قامت بإبادة الحزب الأمويّ. لكنّ العبّاسيين سرعان ما تبنُّوا المذهب «السُّنِّيّ» انطلاقًا من مصلحتهم لأنَّه مذهبُ أكثريّة المسلمين. وعلى الفور أصبح أتباعُ عليّ بن أبي طالب في حالة عداءٍ شديدٍ معهم.

هذه الدول الصغيرة التي كانت تنشأ في ظلِّ الدولة العبَّاسيّة تبقى دائمًا في حالة تناحر. أمر واحد كان يجمعها: كرهُها للدولة العلويّة في حلب. ولهذا عندما سقطت هذه الدولة لاقى العلويُّون، أتباعُ دولة حلب، كافَّةَ أشكال القمع والاضطهاد على يد الجيران، وعلى يد الدولة الجديدة التي قامت على أنقاض الدولة العلويّة، فتخفّى الكثيرُ منهم، وسيبقى بعضُهم متخفِّين في حلب حوالى الألف عام، يتظاهرون بأنَّهم على المذهب السُّنّيّ ولكنَّهم يعلِّقون في غرفهم الداخليّة صورةَ عليّ بن أبي طالب وهو جالسٌ على الأرض ويضع في حضنه سيفَه الشهير، وفي أسفل الصورة عبارة كُتبتْ بالخطّ الفارسيّ الجميل: «لا فتى إلَّا عليّ ولا سيفَ إلَّا ذو الفقار». ولكنّ أكثريّة من العلويين بدأتْ هجرةً صوب الغرب، صوب سفوح الجبال الساحليّة الوعرة، البعيدة عن مراكز المدن.

ولأنَّ هذه المنطقة ـ منطقةَ شرق البحر الأبيض المتوسِّط ـ هي ممرُّ العالم الذي عَبَر منه جميعُ غزاة العالم، فقد جاءها ـ بعد ما يزيد

على أربعة قرون من سقوط الدولة العلويّة ـ غازٍ جديد: العثمانيُّون. . . الأتراك.

هؤلاء الأتراك، بعد أن ظلُّوا تحت الحكم العربيّ الإسلاميّ لقرون طويلة، أصبحوا من غلاة المسلمين، وبرزوا قوّةً ناشئةً ضاربةً أخذتْ تجتاح أقاليمَ المنطقة، يراودها حلمُ توحيد العالم الإسلاميّ في إمبراطوريّة واحدة تحت زعامتهم. وإذ انتصروا على المماليك في شمال حلب، فقد أخذوا يسعون إلى توطيد حكمهم، وأنظارُهم تتّجه إلى الجنوب.

قبل أن يتقدَّم السلطانُ العثمانيّ المنتصر على رأس جيشه صوب حلب، أمر جميعَ جنوده بأن يخلعوا أحذيتَهم لأنَّهم سيدخلون «شام شريف»، هذه الأرض المقدَّسة، الطاهرة، التي يجب ألَّا تُلوَّث بالأحذية والقذارات الملتصقة بها.

رحَّب أهالي حلب بالعثمانيين؛ فهم كانوا قد ضاقوا ذرعًا بتصرُّفات المماليك الجائرة. أقام السلطان عدَّة أيَّام في المدينة حتى استقرّ الوضعُ له ولقوّاته، وقرَّر زيارَة قبر جدِّه الأكبر الذي مات غرقًا قبل حوالى ثلاثة قرون، وما يزال قبرُه موجودًا في إحدى القلاع على ضفَّة النهر الكبير.

أخذ السلطان معه بضع مئات من الجند وجميع أقاربه من آل عثمان وتوجَّه شرقًا. استغرقت الرحلة بضعة أيَّام لأنَّ الموكب كان يتوقَّف كثيرًا في كلِّ البلدات والقرى التي يمرُّ بها لتلقِّي التهاني من الناس على الانتصار الكبير الذي وهبه اللهُ السلطانَ.

وفي حين انصرف الجندُ إلى إقامة خيم المعسكر، وقف السلطانُ، ومن خلفه مباشرةً آلُ عثمان، وخلفَهم ضبَّاطُ الجيش، على الضفَّة الغربيَّة للنهر. فتوجَّهوا نحو القِبلة الإسلاميَّة، فاتحين أكفّهم نحو

السماء، وقرأوا سورةَ الفاتحة على روح الجدّ الذي غرق في هذا المكان قبل ثلاثمئة عام؛ ثم أقاموا صلاة الجماعة. توجَّه بعدها السلطانُ إلى خيمته التي تتوسَّط المعسكر، وبقربها فقط خيمة واحدة أصغر منها تُقيم فيها الزوجةُ الأثيرةُ والمحبوبةُ، التي لم تلبث أن انضمَّت إليه في خيمته وبقيا معًا حتى صباح اليوم التالي.

من عادة السلطان أن يُقيم علاقات شخصيّةً مع رجال الدين والوجهاء وزعماء العشائر، ويجزل لهم العطاءَ، ليضمن ولاءهم وولاءَ أتباعهم. فبدأ في صباح اليوم الثاني يسأل أهلَ المنطقة الذين توافدوا للسلام والتحيّة عن الشخصيّات المؤثّرة والمحترمة في المنطقة، فذكروا له بضعة أسماء. ولكنَّ الآراء أجمعتْ على الشيخ عبد الرحمٰن آل الشيخ، المُقيم في قرية الخالديّة التي تبعد عن المعسكر مسيرةَ نصف يوم في العربة، وأنَّهم ينحدرون من صلب البطل الإسلاميّ الأسطوريّ خالد بن الوليد.

النقيب شوكت شابٌّ في السابعة والعشرين من عمره، من أبناء عمّ السلطان وموضعُ محبّته وثقته. طويلُ القامة، متينُ البنية، وسيمُ الملامح، ذو شارب أشقر كثيف، طرفاه ملفوفان ومرفوعان نحو الأعلى بعناية ملحوظة.

سار النقيب شوكت، في موكب مؤلَّفٍ من سبع عربات، من أجل دعوة الشيخ عبد الرحمٰن آل الشيخ إلى أن يكون في ضيافة السلطان المعظَّم. وصل الموكب عند الظهيرة إلى الخالديّة. سأل عن الشيخ ودخل إلى مجلسه. رحَّب به الشيخُ كثيرًا بعد أن عرّفه بنفسه. وبإشارةٍ خفيّةٍ من يد الشيخ خرج جميعُ مَن كان في المجلس من أتباعٍ ومريدين وأهالٍ.

الشيخ عبد الرحمٰن يجيد اللغتين التركيّة والكرديّة، إضافةً إلى

العربيّة، ككلِّ أبناء المنطقة التي يعيش فيها العربُ والكردُ والتركُ جنبًا إلى جنب منذ زمن طويل. لهذا عندما بقيا وحدهما انطلق الحديثُ بيسر وسهولة. حدَّثه النقيب شوكت عن الانتصارات التي حقَّقها جلالةُ السلطان، وكان حديثُه ممزوجًا بالفخر والاعتزاز، مع التعريج على دوره كنقيب في الجيش وعلى ما قام به في مختلف المعارك.

بعد حوالى الساعة من حديث المعارك والانتصارات تطرَّق النقيب إلى المهمَّة التي جاء من أجلها. وبكثير من الأبَّهة والتفخيم أبلغ الشيخ عبد الرحمٰن الذي كان يستمع بأدبٍ وهدوء:

ـ إنَّ جلالة السلطان المعظَّم يوجِّه إلى حضرتكم دعوةً رسميّةً لتكونوا ضيوفًا أعزّاءَ لديه، وقد أرسل إليكم عربةً خاصَّةً لتقلُّكم إليه ثم تُعيدَكم إلى دياركم العامرة والمباركة. ويشرِّفني، أنا النقيب شوكت، ابن عمّ السلطان المعظَّم، أن أكون برفقتكم في هذه الرحلة.

الشيخ عبد الرحمٰن كان عمره أكثر من ضعف عمر النقيب شوكت، ويملك الكثيرَ من الخبرة في الحياة، ممزوجةً بالعلم وحكايا الآباء والأجداد. إنَّه رجلٌ على وشك مغادرة الحفلة التي اسمُها «الحياة»، في مواجهة رجلٍ يكاد الآن أن يدخل إلى هذه الحفلة. سمع الشيخُ وعرف أنَّ المستقبلَ لهؤلاء: بني عثمان. سمع بانتصاراتهم، ولمس قوَّتهم وعظمتهم، والآن يريدون منه أن يذهب لمقابلة كبيرهم وعظيمهم، أي السلطان ذاته. وتذكَّر وصيّةَ جدّه الأكبر:

ـ لا تقربوا الملوكَ وما يملكون!

القرار حاسم: هو لن يذهب لمقابلة السلطان. ولكنْ كيف سيقدِّم رفضَه بأكبر قدْرٍ من الكياسة واللطف، بحيث لا يُثير غضبَ الحاكم الجديد المزهوّ بانتصاراته؟

النقيب شوكت ينظر إلى الشيخ منتظرًا الجوابَ الذي يَفترض أن

يعلنِ الشيخُ من خلاله شكرَه لهذه الالتفاتة السلطانيّة الكريمة! أمّا الشيخ فما يزال يفكّر في أفضل السبل للخروج من هذا المأزق الذي برز له فجأةً. عندما رفع الشيخ رأسَه ونظر في عينَي النقيب وهو لا يعرف كيف سيبدأ اعتذارَه، ارتفع صياحٌ خارج المجلس. كان صوت امرأةٍ تنهر العبدَ الجالسَ أمام الباب. أصغى الإثنان إلى هذا اللغط. ثم سمعا صوتًا نسائيًّا يقول بنبرةٍ استعلائيّة:

ـ ابتعدْ عن طريقي أيُّها القذر. أنا ابنةُ الشيخ عبد الرحمٰن!

وقف الشيخ عبد الرحمٰن وهو ينظر إلى باب المجلس الذي فُتح بقوّةٍ في اللحظة نفسها. دخلت امرأةٌ مسربلةٌ بالسواد. وقفتْ قليلًا أمام الرجلين أمامها: الشيخ الواقف، والنقيب الذي ظلّ جالسًا وقد أخذ يمسّد شاربيْه ويفتلهما نحو الأعلى. بعد لحظة استرداد الوعي والأنفاس أشار الشيخُ بيده اليمنى نحو المرأة، وبصوتٍ غاضبٍ سأل:

ـ من أنتِ؟ وكيف تدخلين مجلسًا لا تدخله النساءُ أبدًا؟!

ساد صمت قصير. المرأة تواجه الرجلين، وبحركة بطيئة رفعتْ يدها اليمنى وأزاحت النقابَ عن وجهها وهي تقول بصوتٍ متهدّج:

ـ أنا ابنتُكَ عفراء يا أبي، وقد دخلتُ إلى هذا المجلس لأنَّه ليس به سوى أبي وزوجي!

استغرق كلامُها بضعَ ثوانٍ كانت كافيةً لأن يرى النقيب شوكت وجهَها ويتملّى جمالَه وسحرَه، فحذا حذوَ الشيخ، ووقف مشدوهًا وهو يحملق بها. سأل الشيخُ باستنكار:

ـ زوجك؟!! ومن هو زوجك؟ وكيف تتزوَّجين من دون أن أعلم؟!

رفعتْ ذرَاعها وأشارت إلى النقيب شوكت:

ـ هذا هو زوجي!

النقيب شوكت، ككلّ أبناء المنطقة، يفهم العربيّة ولكنّه يجد صعوبةً في الردّ. فهم كلّ ما دار من حديث بين الأب وابنته. جمد واقفًا في مكانه لبضع دقائق، ثم عاد إلى الجلوس دفعةً واحدة.

الشحوب والاصفرار يغطّيان وجهَ الشيخ عبد الرحمٰن. يداه أخذتا بالارتجاف غيظًا وغضبًا. بادرتْ عفراء بالكلام متوجّهةً إلى أبيها وكأنّها تتوسّله:

- أرجوكَ يا أبي اسمعني، اسمعني أوّلًا ثم احكمْ بما تراه مناسبًا وسأكون راضيةً بحكمك مهما كان. قبل نصف ساعة استيقظتُ من نومي خائفةً. رأيتُ في المنام رجلًا لم أر في حياتي إنسانًا في جماله وهيبته. كان يرتدي الثيابَ البيضاء ويغطّي رأسه بكوفيّة بيضاء أيضًا. ناداني باسمي قائلًا: «قومي يا عفراء واذهبي إلى أبيك في مجلسه، ستجدين في مجلسه رجلًا واحدًا فقط... هذا الرجل سيكون زوجَكِ! وستكون ذرّيّتكما مباركة...». عندها يا أبي سألتُه بعد أن فُكّت عقدةُ لساني: «ولكنْ يا سيّدي مَن أنت؟» التفت إليّ فيما هو يغادر وعلى وجهه ابتسامةٌ ساحرة، وبصوت عميق قال: «أنا النبيّ محمّد!!». لقد رأيتُ الرسول في منامي يا أبي، وهو الذي أمرني أن أدخل على هذا المجلس الذي أدخلُه لأوّل مرّة. أفقتُ من نومي ولبستُ ثيابي وأتيتُ إلى هنا. سألتُ عبدك الواقف على الباب عن الناس الموجودين عندك فقال إنّه لا يوجد إلّا شخصٌ واحد. عندها تأكّدتُ أنّ الرؤيا صحيحة وأنّني قد رأيتُ سيّدنا محمّد في المنام! هذه حكايتي وهذا ما جرى لي، واحكمْ أنت يا أبي بما تشاء، وسأقبل حكمكَ شاكرةً مهما كان.

قالت جملتها الأخيرة وهي تقترب من أبيها. تناولتْ يده اليمنى التي لا زالت ترتجف وقبّلتْها ثلاث مرّات. أمسكتْ به من كتفيْه بلطف ومحبّة، دافعةً إيّاه برفق إلى أن أجلسته مكانه مرّةً أخرى. جلستْ

متربِّعةً على الأرض أمام الرجلين وأسدلت الغطاءَ على وجهها.

ساد صمت ثقيل لمدَّة دقيقتين أو ثلاث. رفع الشيخ عبد الرحمٰن رأسه وزفر:

ـ لا إلٰه إلَّا الله، محمّد رسول الله.

قال هذه العبارة التي حرَّكت الجوّ الراكد، في اللحظة التي التفت فيها الرجلان بعضهما إلى بعض. عندما التقت عيونُهما أمسك الشيخ بيد النقيب شوكت وأراد أن يبدأ الحديث باللغة التركيّة ليشرح له الأمر. لكنّ النقيب سحب يده، وبإشارة تحتوي على الكثير من النبل طلب الإذنَ بالكلام، وقال باللغة التركيّة:

ـ أرجو أن تعذرني، لكنّني فهمتُ كلّ شيء. لا أستطيع التكلُّم باللغة العربيّة ولكنّني أفهمها جيِّدًا. أنا سعيد جدًّا... ولي الشرف الكبير أن يأمر بزواجي الرسول محمّد ﷺ. وأتشرَّف كذلك بأن أكون صهرًا للشيخ عبد الرحمٰن، حفيدِ سيِّدنا خالد بن الوليد، «سيف الله المسلول»، فهل تَقْبل يا سيِّدي أن أكون زوجًا لابنتكم هذه على سُنَّة الله ورسوله؟

بصعوبة ارتسمت ابتسامةُ رضا على وجه الشيخ، وأخذ يستعيد لونه الطبيعيّ بعد أن كان شاحبًا. قال بهدوء:

ـ يجب أن نسأل صاحبةَ العلاقة، فهكذا يأمرنا الدينُ والشرع!

التفت إلى ابنته بعد أن سأل النقيب عن اسم أمِّه، ثم سأل ابنته:

ـ يا عفراء... هل تقبلين شوكت بن ناريمان بعلًا لكِ؟

بخفرٍ وحياءٍ شديدَيْن أجابت عفراء بصوتٍ خافت:

ـ الأمرُ لك يا أبي... أنت تقرِّر ونحن ننفِّذ!

التفت الشيخ صوب النقيب وقال له بجدِّيّة فائقة:

ـ لقد قبلنا بك زوجًا لابنتنا عفراء. والآن... هل تريد متّسعًا من الوقت لكي تناقش الأمرَ مع أهلك؟ أمْ تريد أن نُحضر أحدَ رجال الدين لإتمام عقد الزواج؟ الخيار لك.

ـ الآن... يا عمِّي... الآن. ثم أين سيجد لي أهلي زوجةً أفضلَ من ابنتكم الفاضلة؟! أرجو أن تأمر بإحضار رجل الدين ليتمّ عقدُ الزواج.

التفت الشيخ إلى ابنته متسائلًا عندما رآها قد وقفتْ ورفعتْ يدها كمن يطلب الإذنَ بالكلام:

ـ نعم يا عفراء، ماذا تريدين؟

ـ بعد إذنك يا أبي، وقبل أن يحضر رجل الدين. لديّ شرط أشرطه، إذا وافق عليه هذا الرجلُ الذي سيصبح زوجي يمكننا عندها إتمامُ كلّ شيء!

ـ وما هو الشرط يا عفراء؟

سأل الشيخ بنبرة يشوبها بعضُ الاستغراب ونظر إلى النقيب الذي ارتسمتْ على وجهه علاماتُ الترقُّب:

ـ الأولاد يا أبي... أولادي. إذا أراد الله أن يتمّ هذا الزواج ورُزقنا بأولاد فإنّني أريد أن يتعلَّم أولادي هنا في الخالديّة. أريد أن يتعلَّموا القرآنَ والدينَ على يديك ويدِ أخوتي، وأن يتعلَّموا اللغة العربيّة أيضًا، وأن نأتي أنا وأولادي لنُقيم هنا فترةً من كلّ عام. هذا هو شرطي!

قالت هذا الكلام وانصرفتْ بعد أن ألقت التحيّة وكأنّها لا تريد سماعَ الجواب.

قَبِل النقيبُ بالشرط وأحضر رجلُ الدين الذي عقد الزواجَ بين النقيب وبين الشيخ عبد الرحمٰن بصفته وليَّ أمرِ العروس. وعندما

فرغوا من الأمر برمّته عاد النقيب ليتطرَّق إلى المهمَّة التي جاء من أجلها. حينها لم يجد الشيخ حرجًا في مصارحته بعد أن أصبح زوجَ ابنته على سُنَّة الله ورسوله:

ـ اسمعْ يا شوكت. أنت الآن بمثابة ابن لي، ولذلك أتوقَّع أن تتفهَّمني. نحن آل الشيخ، ومنذ مئات السنين، لدينا مبدأ ثابت لا نُحيد عنه، وهو وصيّةُ أحد أجدادنا الكبار، بأن نبتعد عن الملوك وبألَّا نخالطهم. ولأنَّ السلطان هو ابنُ عمّك فإنّني أرجو أن تتدبَّر الأمر بمعرفتك. لا أريد أن أذهب، ولا أريد أن يغضب السلطان.

في اليوم التالي دخل النقيب عند ابن عمِّه السلطان وقدَّم له الهديّة التي كان الشيخ قد أعطاها إيّاه: مصحفًا مذهَّبًا مكتوبًا من قِبل أحدِ أشهر الخطَّاطين قبل نحو مائتيْ عام، واعتذر عن عدم مجيء الشيخ متعلِّلًا بكبر السنِّ والمرض. ثم أخبره عن مسألة زواجه من ابنة الشيخ عبد الرحمٰن، طالبًا منه الإذنَ بإتمام مراسم الزواج. ضحك السلطان الذي قَلَّما يضحك، ومازح ابنَ عمِّه شوكت قائلًا:

ـ أرسلناك لتُحضر لنا الشيخ، فأحضرتَ لنفسك زوجةً جميلةً وذاتَ أصل عريق. مبروك لك هذا الزواج، وأتمنَّى أن تعيش معها حياةً سعيدةً وأن تُرزق بأطفال أصحّاء.

ثم أمر أن تكون جميعُ مصاريف الزواج على حسابه، وأن يُمنح النقيب شوكت إجازةً كافيةً لكي يتزوَّج ويعود مع زوجته إلى أهله.

عاد النقيب شوكت إلى الخالديّة وبقي فيها ثلاثة أيَّام إلى أن تمّ تجهيزُ عفراء، التي طلبتْ أن تسافر هي وخادمتها الزنجيّة في عربة واحدة، وأن لا ترى شوكت قبل الوصول إلى دياره وإقامة العرس عند أهله.

أهل شوكت فوجئوا وكانوا متوجِّسين قليلًا من هذا الزواج، إلى

أن رأت أمُّ شوكت وأخواتُه عفراءَ وتعرّفن إليها، وكذلك عرف والدُ شوكت نسبَها وأصلَها، فقرّروا إقامةَ عرس ضخم استمرَّ سبعة أيّام بلياليها، حضره أهلُ المنطقة والمناطق المجاورة والكثير من آل عثمان وأقربائهم. في نهاية العرس دخل شوكت إلى غرفة عروسه، ثم... لم يره أحدٌ طوال خمسة أيّام.

كان والده خلال هذه الأيّام الخمسة يغلي غيظًا وغضبًا: «من المعيب ما فعله شوكت! يُفترض أن يجلس في اليوم التالي لزواجه صباحًا لتلقّي التهاني من الأهل والأصدقاء».

في صباح اليوم الخامس أرسل الوالدُ واحدًا من الخدم إلى بيت شوكت وأمره بأن يطرق البابَ بقوّة وألّا يعود إلّا ومعه شوكت! ظلّ الخادم ينتظر أكثر من ساعة خرج بعدها شوكت. قابل والدَه متورِّدَ الخدَّيْن وفي منتهى الأناقة، وتلقّى توبيخات أبيه وهو يبتسم:

ـ ما أنت إلّا عابدٌ للفَرْج! لا يليق بواحدٍ من آل عثمان أن يفعل ما فعلتَ. ألا تخشى كلامَ الناس؟ هل تريد أن يقول عنك الآخرون إنّك قد أصبحتَ عبدًا لزوجتك العربيّة؟ هل استطاعت أن تجعلك تنسى أهلك وأصدقاءك وواجباتك؟

هدَّأ شوكت من غضب أبيه وعانقه طويلًا. بقي معه أكثر من ساعتين تناولا خلالها الغداءَ مع بعض من آل عثمان الذين باركوا الزواجَ الميمون. ثم عاد إلى عفراء ونسي توبيخَ والده.

ثلاثة أشهر عاشاها معًا، منعزليْن تقريبًا عن العالم المحيط بهما، مبهوريْن بشبابهما وجمالهما وحرارةِ الرغبة التي تفور في داخلهما كلّما نظر أحدُهما في عينَي الآخر أو تلامسا، وكلّما همس أحدُهما بكلمةٍ عذبةٍ في أذن الآخر! يمارسان الجنسَ عدّة مرّات في اليوم، في الليل وفي النهار.. ولكنْ في جميع المرّات كانت عفراء حريصةً على أن

يكون ذلك وسط الظلام! في الليل، عندما تحسّ أنّهما قد نضجا جسديًّا، وقبل أن تخلع كاملَ ثيابها، تهرع لإطفاء النور. وفي النهار تُسدل الستائرَ السميكةَ ولا تترك شعاعَ ضوءٍ واحدًا. بدايةً فسَّر شوكت الأمرَ بالخجل والحياء. لكنْ، على الرّغم من أنَّ نوعًا من الغموض والإثارة يغلِّفان الأمر، فإنَّ الحيرة بدأت تنتابه! بيديه تلمَّس وداعب كلّ جسدها، بشفتيه قبَّلها من منابت شعرها حتى أصابع قدميها، ولكنّه لم يرها مرَّةً عاريةً! كان يتوق إلى هذه الرؤية، لكنَّها كانت تمانع بنعومةٍ ولباقةٍ، مبطّنتيْن بحزمٍ لا يلين.

مرَّةً في الليل، وفيما كان يجوس بشفتيه على جسدها، وصل فمُه إلى بداية عانتها، فانتبه رغم كلّ شبقه وتوتُّره إلى النعومة الفائقة لملمس العانة. هدأتْ حركته قليلًا ولمع سؤالٌ في ذهنه كالبرق:

ـ أنا وعفراء متلازمان طوال هذه الفترة، وبشرتُها دائمًا بهذه النعومة! حتى لو كانت تزيل شعرَ جسدها في الحمَّام فيجب ان أشعر بعد يوم أو يومين بمنبت الشعر الجديد. كيف لم أشعر مرَّةً بذلك؟!

توقَّف ونزل عن السرير. أمسك اللحافَ وجمع ثيابها المرميّة إلى جانب السرير. قذف بكلِّ شيء إلى الركن البعيد من الغرفة وأشعل النور.

تكوَّرتْ على نفسها وقد غطَّت عانتها بكفَّيْها ودفنتْ وجهَها في الفراش. اقترب منها بهدوء، وضع يده على ركبتها ودفع بلطف. كان يطلب منها بصمت أن تستلقي على ظهرها. تجاوبتْ معه واستلقت مبقيةً يديْها فوق عانتها. أمسك معصمَ يدها، وبحركة ليِّنة دفع يدها لترفعها. أنزلتْ باسترخاءٍ يديها كلتيهما بعد أن فتحتْ عينيها لترى ما سيفعل. حدَّق في عينيها وأشار لها بيده أن تباعد ما بين فخذيها، ففعلتْ وهي تحسّ أنَّها تعطيه نفسَها كاملةً لأوّل مرَّة. إحساسُها بالعري

الكامل أمامه أشعلها وجعلها تتوق إليه بكلِّ قوّة. لكنَّه سألها بهدوء عن آخر مرَّة أزالت فيه شعرَ عانتها وجسدها. أجابت وهي ما تزال مستلقيةً على ظهرها وتحسّ أنَّها تريده بعنف:

ـ ولكنْ لا شعر في جسدي!

ـ مااااااذا؟

ذُهل. محادثة قصيرة ومتقطّعة كأنفاسهما تأكَّد خلالها ممّا قالت. ظلَّ واقفًا لدقيقتين أو ثلاث وهو يتملَّى جسدها العاري لأوَّل مرَّة ويمرِّر رؤوسَ أصابعه على فخذيها وعانتها، ودماؤه تضجُّ في عروقه. أحسّت أنَّ نظراته اللاهبة تخترقها وتملأها بالكامل! وانهدَّ فوقها. التحما كما لم يفعلا خلال الأشهر الثلاثة الماضية.

سيبقى موضوعُ نعومة عانتها وعضوِها التناسليّ مصدرًا للإثارة الدائمة لديه، حتى بعد أن تقدَّم في السنِّ ولم يعد يستطيع أن يفعل ما كان يفعله إلَّا بصعوبةٍ كبيرة.

كانت رسالةُ السلطان بعد الأشهر الثلاثة التي أمضياها معًا أشبهَ بماءٍ باردٍ سُكب على رأسيْهما، ليستفيقا من الحلم الذي استمرّ قرابة المائة يوم.

ـ انتهت إجازتُكَ. عليك الالتحاق بنا فور وصول هذه الرسالة إليك. نستعدّ للزحف جنوبًا صوب مصر. كتيبتك بانتظارك.

لم تحَتْج عفراء إلى جهد كبير لإقناع شوكت بأن يصطحبها معه إلى سوريا، مؤكِّدةً أنَّها إذا كانت عند أهلها في الخالديّة فستكون قريبةً منه ليحضر إليها كلَّما سنحتْ له الفرصة. فقط كان يخشى معارضة والده، لكنَّ الوالد سكت متذكِّرًا أنَّ السلطان نفسه يصطحب معه زوجتَه أينما ذهب ومهما كانت خطورةُ المعركة التي يخوضها.

بعد خمسة أيَّام من استلام رسالة السلطان وصلا إلى الخالديّة في

موكب صغير شبيه بالموكب الذي ذهبا فيه قبل أكثر من ثلاثة أشهر.

منذ أن قطن آلُ الشيخ في قرية الخالديّة لم تزد البيوتُ التي يقطنونها عن الثلاثة. فطبقًا لوصيّة الجدّ الأكبر كانوا يتوزَّعون في جميع أنحاء الأرض، فلا يبقى إلَّا الشيخُ الكبير يسكن أحدَ هذه البيوت مع زوجته (أو زوجاته) وأولاده، والبيت الآخر تسكنه أمُّ الشيخ إذا كانت ما تزال على قيد الحياة مع بناتها اللاتي لم يتزوّجن وكذلك مع ضرائرها إذا كان لدى الشيخ المتوفِّي أكثر من زوجة، والبيت الثالث يبقى فارغًا إلى أن يبلغ الابنُ الأكبر الثامنة عشرة.

عفراء هي أكبرُ أبناء الشيخ عبد الرحمٰن، تليها أختُها هند، ثم الأخت الثالثة فاطمة. أمّا أكبر إخوتها الذكور، وهو الخليفة المفترض لوالده، فكان لا يزال في الخامسة عشرة من عمره. وبقي شوكت مع عفراء في البيت الثالث، حيث أمر الشيخ عبد الرحمٰن بأن ينزلا يومين، واتّفقا خلالهما على ضرورة أن يكون لهما بيتُهما الخاصّ، مذكِّرةً إيّاه بشرطها قبل الزواج في أن يتعلَّم أولادُها في الخالديّة. وقد رحَّب والدُها بالفكرة، وأعطاهما قطعةَ أرضٍ قريبةً من بيوت آل الشيخ قائلًا لشوكت:

ـ إنْ شاء الله عندما تعود سالمًا سترى البيتَ جاهزًا.

التحق شوكت بالسلطان الذي كان موجودًا في دمشق ويجهِّز حملته على مصر. عفراء عادت إلى البيت الكبير حيث أمُّها وأخواتُها، وعقب عدَّة أيَّام من ذهاب شوكت ظهرتْ عليها علاماتُ الحمل التي لم تنتبه لها، ولكن أمّها كانت تبتسم فيما كانت تفرك لها ظهرها بعد نوبة من الإقياء وتقول لها ويداها تجوسان ظهرها:

ـ مبارك يا عفراء، إنْ شاء الله يكون صبيًّا جميلًا يجمع جمالك إلى جمال أبيه.

احمرَّت خجلًا والأمّ تشرح لها ما عليها فعلُه وما عليها عدم فعله، وأخذت تنتظر عودة شوكت الذي اشتاقت إليه كثيرًا ولتبلغه نبأ حملها بابنه الأوَّل. ولكنّ شوكت انغمس في تحضيرات الحملة على مصر، واستمرَّ غيابُه عن عفراء قرابة السنة.

خلال هذه السنة ولدتْ عفراء ابنَها الأوَّل. وبعد أربعة أشهر من ولادته، وقد بقي الطفل من دون اسم، توقَّفتْ في الصباح بضعُ عربات أمام مجلس الشيخ في الخالديّة. ترجّل من أولاها شوكت الذي بدا متعبًا لأنَّه بقي يسير تجاه الخالديّة يومًا كاملًا بلا توقُّف.

دخل المجلسَ الذي لم يكن فيه أحد بعد. أوصى العبد الواقف أمام الباب بأن يوقظه فور وصول الشيخ عبد الرحمٰن. وبمجرَّد أن استلقى راح في نوم عميق.

خلال سنة الغياب كان شوكت يرسل الرسلَ إلى الخالديّة لكي يبلغهم أخباره ويطمئنَّ إلى أخبارهم. عندما وَلَدَتْ عفراءُ طلبتْ من أبيها أن يرسل رسالةً إلى شوكت يسأله فيها عن الاسم الذي يقترحه لابنه. شوكت آثر السكوت. بعد عودته وفور استيقاظه من نومه الثقيل، عانق الشيخَ عبد الرحمٰن وذهب الاثنان إلى بيت شوكت الذي كان قد أصبح جاهزًا وتسكن فيه عفراءُ مع ابنها وخدمها.

وقفتْ على بعد مترين منه وحيَّته بخجل وحياء أمام أبيها. وفورًا سألها:

ـ أين مراد؟

لثانيتين نظرتْ إليه مستفهمةً مستغربة، وفورًا تذكَّرتْ أنَّ اسم أبيه مراد، ولامت نفسها كثيرًا لأنَّها لم تبادرْ إلى تسميته مرادا! أجابت:

ـ إنَّه نائم. هل تريد أن أوقظه وأحضره لك؟

ـ لا... لا داعي، سأنتظره إلى أن يستيقظ.

لاحظ أنَّ جسدها قد امتلأ نوعًا ما، وشعر بشوق عارم إليها. استغلَّ فرصةَ انشغال الشيخ عبد الرحمٰن بتفقُّد البيت وضغط على يدها مبتسمًا، سألها:

ـ هل ما زال من دون شعر؟

ـ نعم... وهو بانتظارك!

نال شوكت رتبتيْن عسكريتَّيْن: الأولى بشكل عاديّ، والثانية لدوره في معركة الريدانيّة التي فَتَحَتْ أبوابَ مصر للعثمانيين، وقد جُرح أثناءها جرحًا خفيفًا. أنعم عليه السلطانُ برتبة البكباشي، وعند العودة عُيِّنَ قائدًا للوحدة العسكريّة التي ستقيم بين حلب والخالديّة. وهكذا ظلَّ قريبًا من أهل زوجته، واستمرَّت إقامتُهم في الخالديّة أربعَ سنوات أخرى قبل أن يأتي أمرٌ بنقله إلى الأناضول. وفي هذه الفترة أنجب صبيْين آخريْن.

بعد أربعة عشر عامًا أخرى، أقام خلالها في مختلف أنحاء الأمبراطوريّة العثمانيّة، أصبح لديه ثمانيةُ أولاد، كلُّهم ذكور. كانت عفراء تتمنَّى أن تُنجب بنتًا، ولكنّ هذا لم يحصل. وكانت تأتي كلّ عام لزيارة أهلها، إمَّا بصحبة شوكت أو من دونه، ولكنْ دائمًا مع أولادها الصغار الذين يجتمعون مع إخوتهم المقيمين في الخالديّة لتلقِّي العلم ودراسة القرآنِ وعلوم الدين. كان آل الشيخ يطلقون عليهم تسمية أولاد العمّة عفراء، ثم بعدها أولاد العمَّة فقط. حتى الناس العاديُّون الذين لا يمتُّون بأيّة صلة لآل الشيخ استخدموا التسميةَ نفسها.

كان أولادُ العمّة، إضافةً إلى تعلُّمهم القرآنَ وأصولَ الدين، يسمعون الحكايا التي تُروى عن المذابح التي حلَّت بأجدادهم من جهة أمِّهم على يد مختلف الفئات المتصارعة على الحكم في الدولة الإسلاميّة، ويكبر حقدُهم، خصوصًا ضدَّ العلويين الذين أوقعوا أكبر

مقتلةٍ بذرِّيّة خالد بن الوليد منذ ما يقارب القرونَ الخمسة.

عندما بلغتْ عفراءُ الخامسةَ والسبعين من عمرها مرضتْ مرضًا شديدًا وأيقنتْ أنَّها النهاية. كان شوكت في الحادية والثمانين لا يزال منتصبَ القامة، وإنْ غدا شعرُه الخفيفُ على رأسه أبيضَ اللون، وتهدَّل شارباه اللذان كانا دائمًا نحو الأعلى وغطّيا فمه؛ حتى إنّ خادمةً خاصّةً كانت تقف إلى جانبه أثناء الأكل، وبيدها فوطةٌ لتمسح بقايا الطعام التي تَعْلق بشعرات شاربه.

كانت عفراء ممدَّدةً على سريرها لاهثةً، تنظر إلى سقف الغرفة. دخل شوكت إليها ووقف إلى جانبها. نظرتْ بطرف عينها نحوه ثم مدَّت يدها لتمسكَ يده اليمنى الممدودة صوبها. كانت عيناه مغرورقتين بالدمع. أحسَّت أنَّه يريد أن يمازحها ليخفِّف عنها عندما رأت إشارةَ يده الأخرى نحو وسطها. وقبل أن يتفوَّه بكلمة قالت بكلمات لاهثة ومتقطِّعة، متوقّعةً السؤالَ الذي لا يملّ من ترداده:

- إذا أردتَ أن تسأل عنه فإنّه لا زال دون شعر! أحبّكَ يا شوكت... ولكنْ أشعرُ أنَّ أيّامي قد نفدتْ. أرجو أن تجمع لي أولادي لكي أودِّعهم قبل أن أغادر.

خرج شوكت من عندها وهو ينتحب. بعد أن هدأ أَرسل الرسلَ إلى جميع أولاده المنتشرين في طول البلاد وعرضها، طالبًا إليهم الحضورَ لكي يودِّعوا أمَّهم.

تأخَّر الابنُ الأكبر مراد، الذي أصبح قائدًا لأحد جيوش الإمبراطوريّة العثمانيّة المترامية الأطراف. عندما حضر تحلَّق الأولادُ الثمانية حول سرير أمّهم. كانت أنفاسُها أقلّ لهاثًا واضطرابًا. نقّلتْ بصرها بين أولادها واحدًا بعد الآخر. شوكت يقف عند رأس السرير، والصمتُ يخيِّم على الجميع. أراد مراد أن يكسر حدَّةَ الصمت ويخفِّف

من مشاعر الحزن والأسى، فابتسم وأمسك بيد أمّه وقال:

ـ يا أمِّي لقد أفزعتِنا وأنتِ والحمدُ لله بصحَّةٍ جيِّدة، حتى إنّ خدّك ما زال ورديًّا. أعتقد أنَّه ما زال أمامك أكثر من عشرين سنة، أمْ أنَّه الدلال؟

لم تردّ عليه أمُّه حتى إنَّها لم تنظر إليه. سرحتْ ببصرها صوب نقطة في السقف. أفلتتْ يدها من يد ابنها ورفعتْها قليلًا، مشيرةً بها إلى أولادها. وبصوتٍ حاولتْ جاهدةً أن يكون هادئًا وغير متقطِّع، قالت:

ـ أريد منكم أمرين فقط. الأوَّل: لا تتركوا أباكم وحيدًا أبدًا، كونوا حوله دائمًا ولا تتركوا الحزنَ والوحدةَ يقتلانه. أمَّا الأمر الثاني فهو أنّني أريد أن أموتَ وأُدفنَ في الخالديّة. الوقت المتبقِّي قليل... لذلك يا مراد، بعد ساعتين أو ثلاث، يجب أن تكون العربة التي ستأخذني إلى الخالديّة جاهزة.

حاول مراد وبعضُ إخوته معارضتها ومناقشتها بالقول إنَّ صحَّتها لا تحتمل مثلَ هذه السفرة الطويلة. لكنَّها رفعتْ يدَها بحزم وقالت بقوَّة:

ـ نفِّذوا ما طلبتُ منكم. والآن اخرجوا جميعًا واتركوني مع أبيكم وحدنا.

عندما بقيتْ مع شوكت وحدهما رفعت اللحافَ الذي يغطّيها. ابتسمتْ قليلًا وقالت له:

ـ تعال استلقِ إلى جانبي، ولكن إيّاكَ والبكاء. ودّعني كما يليق بفارس من بني عثمان أن يودِّع زوجتَه حفيدةَ خالدِ بن الوليد.

وأردفتْ:

ـ هل رأيتَ يا شوكت كم كانوا جميلين؟! إنّهم أبناؤنا يا

شوكت، كالأُسُود كانوا واقفين حول سريري. وكيف لا يكونون كذلك؟! أليسوا ثمرةَ تمازجِ دماءِ سلالتيْن عظيمتيْن؟

تحمَّلتْ عفراء مشاقّ السفر الطويل بصبر وجَلَد. زوجُها وأولادُها رافقوها إلى الخالديّة. بعد يومين من وصولها انهارت صحّتُها فجأةً، واجتمع حولها أخوها الذي خلف الشيخ عبد الرحمٰن ومعه أولادُه وأحفادُه.

كانت شبه غائبة عن الوعي طوال اليوم. لكنْ عند العصر بدا أنَّها تصحو وأنَّها تبذل جهدًا كبيرًا لترفع رأسها. ساعدها أحدُ أبنائها بأن رفع رأسها ووضع تحته وسادةً أخرى. فتحتْ عينيها وتوجَّهتْ بالكلام إلى أبنائها:

ـ هؤلاء هم أخوالكم. أنتم سادة الأرض الآن، وأخوالكم كانوا سادة الأرض من قبل. لا تقطعوا صلتكم بأخوالكم. عزُّكم مِن عزّهم، وعزُّهم من عزّكم. لا تنقطعوا عن زيارة الخالديّة، أنتم وأولادكم وأحفادكم وأحفاد أحفادكم. تعالوا إلى زيارة الخالديّة وزيارة قبري دائمًا. ولتكن هذه وصيّتكم لأولادكم، ووصيَّتَهم لأولادهم.

سكتتْ قليلًا لتلتقط أنفاسها ثم توجَّهتْ نحو أخيها:

ـ يا أخي... الأرض المرتفعة قليلًا والقريبة من خرائب المعبد، أنت تعرفها، أليس كذلك؟

أومأ أخوها برأسه دلالةَ المعرفة.

ـ أريد أن يكون قبري هناك.

أومأ أخوها برأسه مرَّةً أخرى، وعلائمُ الحزن تكسو وجهه.

سكتتْ نهائيًّا بعد أن بذلتْ كلّ هذا المجهود. وعند الصباح أسلمتْ الروح.

«أريد قبرًا يليق بملكة. . . .»

هكذا قال شوكت بلهجةٍ عسكريّةٍ آمرة أمام أولاده وأمام شقيق عفراء.

ورغم أنَّ آل الشيخ يتَّبعون وصيّةَ النبيّ محمّد القائلة بأنْ «خيرَ القبور الدوارس»، ويعملون على أن يكون القبرُ بسيطًا وخاليًا من أيّة صنعة أو تكلُّف أو بناء، إلَّا أنَّهم هذه المرَّة تجاوزوا ذلك. وخلال بضعة أيّام تمَّ تسويرُ مساحة من الأرض تحيط بقبر عفراء، ضُمِّمتْ حديقةً، وبدأ البناءُ بقبر فخم «يليق بملكة» كما أراد شوكت.

طوال أكثر من أربعة قرون واظب أبناءُ العمّة عفراء وأولادُهم وأحفادُهم وأحفادُ أحفادهم على أمرين: الأوَّل هو المجيءُ إلى الخالديّة لتلقِّي علوم الدين الإسلاميّ وتعلُّم اللغة العربيّة وسماع قصص المذابح التي لحقتْ بآل الشيخ أو الخوالد أو ذرِّيّة خالد بن الوليد، وزيارةُ قبر عفراء الذي تحوَّل إلى تحفة فنِّيّة شرقيّة، تُحيط به حديقةٌ صغيرة لكنَّها بديعة، يقرأون الفاتحةَ أمامه ويتمسّحون به، كلٌّ منهم يطلب بركاتِها ومساعدَتها في تحقيقِ ما يصبو إليه. أمّا الأمر الثاني فهو تفريغُ الحقد المتراكم تجاه العلويين نتيجةً لسماع هذه القصص.

عمل أولادُ العمَّة، بدءًا من مراد وإخوته، على تكوين رأيٍ عامّ ـ «العلويُّون كفّار ويجب القضاءُ عليهم» ـ لدى أبناء عمومتهم سلاطينِ بني عثمان ولدى النخبةِ العثمانيّةِ الحاكمة. ولم يكونوا يحتاجون إلى جهد كبير؛ فالأرضيّة مهيَّأة، والجميعُ يميل إلى المغالاة والتشدُّد في أمور الدين مع مَن يعتبرونهم كفرةً ومارقين، خلافًا لسياسة التسامح الدينيّ الذي أبدته السلطنةُ تجاه المسيحيين واليهود! ولكنّ هذا التسامح كان يفسَّر على أنَّ هؤلاء من أهل الكتاب، وأمّا الحقيقة فهي أنَّ هذا التسامح كان محكومًا بحاجة السلطنة إليهم، لكون أكثرهم من أصحاب

المهن والحِرَف والمتعلّمين.

بدأ مراد الأمرَ بعد عام من وفاة أمّه عندما تلقّى أمرًا سلطانيًّا بانتقاله على رأس الجيش الّذي يقوده إلى حلب. هناكَ وزّع القسمَ الأكبرَ من وحداته العسكريّة، بحيث تحيط بالمنطقة التي يقيم فيها العلويُّون. وكان هؤلاء قد بدأوا بتسلُّق سفوح الجبال الساحليّة هربًا من الاضطهاد الذي لاقُوه طوال القرون التي أعقبتْ سقوطَ دولتهم الحلبيّة. وعندما بدأ مراد عمليّاته ضدّهم ناشرًا بين الجنود أنّهم كفرة وخونة، مضيفًا أنّهم تعاونوا سابقًا مع الصليبيين الذين غزوا ديارَ المسلمين، وأنّهم الآن عملاءُ لشاه إيران، «الرافضيّ الكافر والعدوّ الأوّل لمولانا السلطان المعظّم». عندها تسلّق العلويُّون الجبالَ أعلى فأعلى، ولجأوا إلى المناطق الوعرة، وإلى الغابات والكهوف وكلّ مكانٍ يصعب وصولُ الجيش إليه.

وهناك، بين أشجار الغابات وفي ظلمة الكهوف، في البرد القارس، كان الأطفالُ يتجمّعون حول جدّاتهم، ملتفّين قرب المواقد البدائيّة، وتحاول الجدّات إلهاءهم عن الجوع والبرد برواية الحكايات والقصص، وأغلبُها تدور حول الظلم الذي تعرّض له الآباءُ والأجداد على يد الطائفة الأخرى، فَيَعْمل الخيالُ على تضخيم كلّ هذا، ويَكْبر الحقدُ داخل الصدور، ويَكْبر معه الحلمُ بالانتقام والرغبةُ في قهر الأعداء.

بعد عامين من حرب مراد غير المعلنة ضدَّ العلويِّين، وفيما كان يجلس مع أحد أخوته، أبلغه الخدم أنَّ وفدًا كبيرًا من إقطاعيّي المنطقة ووجهائها ومن ملّاك الأراضي فيها يطلبون الإذنَ بالدخول. استقبلهم، بحضور أخيه، واستمع إلى مطالبهم وشكاواهم. بعد التحيّات والمجاملات قال كبيرُهم:

ـ مصالحُنا يا مولانا! مصالحُنا تضرَّرتْ كثيرًا. إنَّ القمح والشعير والعدس الذي نزرعه يبقى القسمُ الأكبرُ منه في الأرض لأنْ لا عمّالَ لدنا ليحصدوه.

ـ وأين العمَّال الذين كانوا يحصدونه سابقًا؟

وبسرعة أجاب الإقطاعي:

ـ لقد هربوا يا مولانا. صعدوا إلى الجبال خوفًا من القتل. إنّهم العلويُّون يا مولانا!

حملق مراد بوجه الإقطاعيّ! ما هذا الذي يقوله؟! لم يخطر في باله هذا الأمر. إنَّ جمع المحاصيل الزراعيّة والحبوب ضرورةٌ ملحَّة للدولة، وإلَّا فمن أين سيأكل الجنود؟ نظر إلى أخيه، فهزّ هذا رأسه بإشارةٍ تطلب من مراد إنهاءَ المقابلة مع الوفد.

ـ طيِّب... طيِّب، اذهبوا الآن وسنرى ماذا نستطيع أن نفعل.

بقي مراد وأخوه وحدهما. سأل الأخُ الأصغر:

ـ هل كنتَ تهدف من هذه الحرب إلى إبادة العلويِّين؟

ـ نعم... والصغير قبل الكبير، والمرأة قبل الرجل، هؤلاء الأفاعي!

ـ أعتقدُ أنَّ عليك اتِّباعَ سياسةٍ أخرى.

ـ كيف؟

ـ ببساطة... عندما يحتاج الأمرُ إلى القتل أقتلْ ولكنْ بحدود. ولا تنسَ أنَّ هناك أمرًا أشدَّ من القتل وأصعب: الذلّ! دعهم وسط الذلّ! ذلّهم أنتَ وجنودُك. حرِّضْ عليهم أهالي المدن من المسلمين ليذلُّوهم كلّما قَدِموا إلى المدينة؛ فهم لن يستطيعوا الاستغناءَ عن المدينة. اضغطْ عليهم ليعيشوا في الجبال مع الذئاب والوحوش.

احرصْ على أن يبقوا فقراء. وأنت تعرف ذُلَّ الفقر! عندما تحتاجهم كعمّال اجلبْهم واحمِهِمْ، ولكنْ يجب أن تكون نساؤهم دائمًا إمّا خادماتٍ أو عاهرات! وفي هذا ذروةُ الذلّ.

هزّ مراد رأسَه إعجابًا وهو ينظر إلى أخيه، ثم إلى نقطة بعيدة. وبقي ساهمًا لفترة طويلة، ثم تنهّد وقال:

ـ رحمة الله عليكِ يا أمّي.

استمرَّت الإمبراطوريَة العثمانيّة زهاء أربعة قرون بعد زواج عفراء من شوكت. وتكاثر خلال هذه الفترة أحفادُ عفراء وأحفادُ أحفادها، وتوزَّعوا في كافَّة أصقاع الدولة الشاسعة، وأضحى الكثير منهم لا يَعرف بعضُهم بعضًا، لكنَّهم جميعًا يعرفون أنَّ جدَّتهم الكبرى عربيّةٌ من قريةٍ تُسمّى الخالديّة؛ الخالديّة التي لم تعد تستطيع استيعابَ الوافدين إليها من أولاد العمَّة لتعلُّم اللغة العربيّة وأصولِ الدين، بل أصبحوا يكتفون بزيارة قبر عفراء، يتعلَّمون الدينَ عند آل الشيخ الذين استوطنوا كافَّة أنحاء الدولة ومدنها ضمن مبدئهم في التوزُّع والانتشار. عدَّة أفراد من أولاد العمّة تولُّوا منصبَ رئيس الوزراء «الصدر الأعظم»، وكثيرون أصبحوا وزراء، والأكثر كانوا ضبّاطًا في الجيش يقودون الفِرَق العسكريّة والجيوش.

جميعهم حافظوا على المبدأ الذي اختطّه مراد وأخوه في جلستهم المسائيّة تلك، وهو مبدأٌ بدا أنّ الدولة كلَّها قد اعتنقته سياسةً مضمرةً.

## (١٠)

أمضينا في الخالديّة عشرة أيّام مع أبناء العمّة، كان سلام خلالها منشغلًا جدًّا؛ فلا نراه إلّا في الليل عند العشاء، الذي يترافق دائمًا مع مختلف أنواع المشروبات التي تمتلئ بها خزائنُ قصره. أنا وأصلان لا يكترث بنا أحد، ولذلك أمضينا الأيّام الخمسة الأولى معًا، فنذهب بعيدًا عن قسم القصور والمجالس، إلى القسمين الآخرين، ونمضي وقتنا في مجالسة الناس والاستماع إلى أحاديثهم.

في اليوم الخامس قرّر أصلان العودةَ إلى حلب للالتحاق بعمله. قال وهو يودّعني:

ـ يبدو أنَّ أخانا الكبير ـ يقصد سلام ـ قد نسي نفسَه عندما التقى أولادَ العمَّة. ألا يعرف أنَّه على أبواب الزواج، وأنَّ هذا يتطلَّب عملًا كثيرًا؟ هل لاحظتَ كيف يتكلّم التركيّةَ بطلاقة؟! ومع أنَّ أصلي تركيّ فإنّني لا أعرف إلَّا بضع كلمات من هذه اللغة.

جلستُ في المقهى أراقب الناس وأستمع إلى الراديو الموضوع على رفٍّ في وسط المقهى، وكان يبثّ قرارات الحكومة الجديدة.

رئيس الجمهوريّة ذو الشعر الأبيض، وكان قد أطلق سراحَنا من سجن المزَّة العسكريّ، رَحَلَ بانقلابٍ عسكريٍّ شبيه بالانقلاب الذي

جاء به وأطاح الرئيسَ الذي كان قبله، وهذا الأخير هو نفسه جاء بانقلاب عسكريٍّ أيضًا. واستلمتِ الجيشَ والحكمَ مجموعةٌ من الضبّاط ذوي الأصول الريفيّة، تَجْمَعُ بينهم النقمةُ والحقدُ على أهل المدن.

طبَّق هؤلاء الضبّاط في حربهم على المدن قوانينَ التأميم والإصلاح الزراعيّ «وفقًا لمبادئ الاشتراكيّة والعدالة الاجتماعيّة»، ووصل الإصلاحُ الزراعي إلى الخالديّة.

الخالديّة، التي لم يكن فيها عندما جاءها الجدُّ الأكبرُ لآل الشيخ مع أمِّه هربًا من المقتلة إلَّا خرائبُ المعبد الإغريقيّ، أضحت الآن بلدةً مزدهرةً. وقد تبيَّن أنّها، وما عليها، ملكٌ لآل الشيخ، وفقًا للسجلَّات الحكوميّة الموروثة عن العهد العثمانيّ، ويُضاف إليها خمسٌ وأربعون قريةً تنتشر حول الخالديّة ويتوضَّع معظمها قرب النهر الكبير، حيث أخصبُ الأراضي! وعلى الأرجح أنَّ موظَّفًا عثمانيًّا كبيرًا من «أولاد العمَّة»، وبجرَّة قلم، قد قام بتسجيلها، زمنَ جدّ الشيخ عبد الهادي، أملاكًا لآل الشيخ.

نظر الشيخ عبد الهادي مبتسمًا باستغراب صوب الشيخ حسن ـ المحامي ـ الجالس إلى جانبه، ثم صوب رئيس اللجنة المكلَّفة بتطبيق قانون الإصلاح الزراعيّ في الخالديّة، وسأله:

ـ تقول إنّني أملك خمسًا وأربعين قرية. ولكنْ أين هذه القرى؟!

فتح رئيسُ اللجنة السجلَّ الكبيرَ الذي كان يحمله وبدأ بتعداد القرى. وعندما انتهى تقدَّم الشيخ حسن بصدره إلى الأمام، وبعد أن تنحنح سأل:

ـ ولكنْ أستاذي الكريم ـ أطال الله عمرك ـ هذه الأملاك ليست مسجَّلةً باسم الشيخ عبد الهادي، بل باسم جدّه ـ رحمة الله عليه وعلى

أمواتكم. أليس كذلك؟

ـ نعم... هذا صحيح.

ـ إذن هي ليست ملْكًا للشيخ وحده، بل لجميع ورثة الجدّ. علينا أن نبدأ بإجراءات حصر الإرث، ثم توزَّع الأملاكُ على أبناء الجدّ، وهم والدُ الشيخ عبد الهادي وأعمامُه، ثم على ورثة هؤلاء، وهم الشيخ عبد الهادي وإخوتُه وأولادُ عمِّه، ثم على أولادهم. وبعد أن تُوزَّع هذه الأراضي على مستحقِّيها تنظرون إذا كانت ملْكيّةُ أحدهم تدخل في نطاق قانون الإصلاح الزراعيّ، وعندئذ توزِّعونها. أليس كذلك؟

بعد أن ذهبت اللجنة، التفت الشيخ عبد الهادي نحو الشيخ حسن وسأله:

ـ هل نستفيد نحن من هذه الأراضي شيئًا؟

ـ لا يا عمِّي الشيخ، لأنَّ المرحوم جدّك أَمَرَ أن تُترك كلَّ هذه الأراضي للفلَّاحين الذين يعملون بها.

ـ إذن لماذا لا نتركهم يوزِّعونها على هؤلاء الفلَّاحين؟

ـ لأنَّه يا عمِّي لا أحد يعرف ماذا يخبِّئ المستقبل، ولأنَّ هؤلاء، «أصحابَ الإصلاح الزراعيّ»، مجموعةٌ من الحراميّة والنصّابين.

توقَّف تطبيقُ الإصلاح الزراعيّ في الخالديّة انتظارًا للانتهاء من الإجراءات القضائيّة التي لا تنتهي! ورغم ذلك استطاع هؤلاء الضبَّاط الريفيُّون الذين استلموا السلطةَ اختراقَ مجتمع الخالديّة الذي كان ملتفًّا حول آل الشيخ، فأقاموا مركزًا لحزب الحكومة في الخالديّة مستخدمين مجموعةً متباينةً من الناس؛ كان فيهم متعلِّمون آمنوا بالشعارات المرفوعة، ومتعلِّمون انتهازيُّون أيقنوا أنَّ فرصتهم حانت لاقتناص الغنائم، والكثيرُ من الناس العاديين الذين يريدون أن يتقرَّبوا من السلطة

الجديدة للاستفادة منها. وكلّ هؤلاء رأوا أنَّ مهمَّتهم الأساسيّة تكمن في محاربة «الإقطاع الدينيّ» ممثَّلًا في آل الشيخ، وفي النيلِ من الهالة التي تُحيط بهم بالقول أمام الناس:

ـ أنتم غرباء لا تعرفون حقيقةَ آل الشيخ، ولا كذبَهم ونفاقَهم! هؤلاء الأتراك الذين يملأون الخالديّة الآن أحفادُ واحدةٍ من آل الشيخ، كان اسمُها عفراء، تزوَّجتْ من ضابط تركيّ. ادَّعت عفراء وقتها أنَّها رأت الرسولَ محمّد ﷺ، وأنَّ الرسول أمرها بالزواج من هذا الضابط التركيّ الذي كان يزور الخالديّة. والحقيقة أنَّها لا رأت الرسولَ ولا مَنْ يحزنون ـ وكأنَّ الرسولَ المعظَّمَ لا عمل له إلَّا تزويج بنات آل الشيخ! ومختصرُ القصّة أنّ هذا الضابط التركيّ الوسيم أوقف عربته عندما دخل الخالديّة، ونزل بالصدفة قريبًا من النافذة التي كانت عفراء تقف خلف ستارتها، وعندما رأت شبابَه ووسامتَه جُنَّت به، وكانت في عزّ فوران الشباب، فاشتهته بقوّة كاسحة. والأكثر من هذا... هل تعرفون يا سادة لماذا أوقف الضابطُ العربةَ ونزل؟ لأنّه ببساطة كان محصورًا وأراد أن يتبوَّل، فاقترب من الحائط ـ أيْ قريبًا من النافذة التي تقف عفراء خلف ستارتها تسترق النظرَ إليه ـ وأخرج «آلتَه» وتبوّل. هي، إذن، لم ترَ شبابَه ووسامتَه فقط، بل رأت «آلته» أيضًا، ولم تعد تستطيع الاحتمال، فادَّعت أنَّها رأت الرسول وأنَّ الرسول أمرها بالزواج من ذلك التركيّ.

* * *

ويواصل المُشهَّرون بآل الشيخ حديثَهم فيقولون:

ـ إنَّ قصَّة عفراء تَهُونُ أمام قصَّة أختها هند! فقد كانت زوجةُ العبد الخاصّ بالشيخ عبد الرحمٰن، والدِ عفراء، قد وَلَدَتْ توأمًا، مسرور ومسرورة، قبل ولادة هند بستَّة أشهر تقريبًا. لذلك عندما وُلدتْ

هند، وكعادة آل الشيخ، عُيِّنَت مسرورة لتكون الأَمَةَ الخاصّةَ بهند، تنشأ معها وتبقى ملازمةً لها طوال الحياة.

كبر الأطفالُ الثلاثةُ معًا. وككلّ التوائم لم يكن مسرور ومسرورة يطيقان الابتعاد بعضهما عن بعض. ولأنّ على مسرورة أن تلازم هند، فقد لازمها مسرور أيضًا. ولأنَّ قانون العزل الصارم بين الرجال والنساء، الذي يتّبعه آلُ الشيخ، لا يسري على الأطفال، فإنَّ الثلاثة ظلُّوا في انسجام تامٍّ، إلى أن بلغتْ هند الثانية عشرة، ولاحظتْ أمّها أنَّ ثدييْها قد بدأا بالنتوء، فأمرتْ هند بملازمة جناح النساء، وأمرت أمَّ مسرور بالتوقُّف عن اصطحاب ابنها مسرور إلى هذا الجناح.

هند ومسرورة، طوال الأسبوع الأوّل من العزل، كانتا ضجرتين كثيرًا، ولا تتوقّفان عن القول إنَّ اللعب من دون مسرور لم يعد مسلّيًا. كانتا تشتاقانه كثيرًا: مسرورة لأنّها أختُه التوأم؛ وهند افتقدتْ ملامساته واحتكاكَ جسديْهما أثناء اللعب. مسرور أيضًا كان لا يقلّ شوقًا عن هند. كلّ يوم ينتظر حلول الظلام ليحوم قريبًا من غرفتها. مرّةً لاحظ أنَّ النافذة مفتوحةً قليلًا فاقترب ونظر من الشقّ، فرأى البنتين تتحادثان. دفع النافذةَ قليلًا وبان رأسُه لهند التي قفزتْ وصرختْ بصوتٍ مكتوم:

ـ مسرور!! تعال. هيّا اقفز من النافذة. ألا تستطيع القفز؟

كالهرّ، وخلال ثانيتين، كان مسرور قد أصبح داخل الغرفة. أغلقت الفتاتان النافذة والباب، وجلس الثلاثة على الأرض يحدِّقون بعضهم إلى بعض ويبتسمون.

طوال عشر سنوات كاملة استمرّ الثلاثةُ في اللعبة التي كانت في البداية غامضةً، وأصبحت بعد فترةٍ صريحةً ومشتهاةً. وجودُ أخت مسرور كان تغطيةً ممتازةً؛ فجميع مَنْ في البيت يعتقد أنَّ هند وعبدتَها

وحدهما في الغرفة. وما إنْ يتسلَّل مسرور من النافذة حتى تندسّ مسرورة في الفراش، فتغطّي رأسَها متصنِّعةً النومَ، وذلك كي يتصرَّف الحبيبان بحرِّيّة وكي لا يزداد الحريقُ المندلعُ في جسدها من جرّاء وشوشاتهما ورؤيتها ما يفعلان؛ كلّ هذا في تضحيةٍ وصبرٍ نادريْن. عدَّة مرَّات خلال هذه السنوات تعرَّضوا لخطر انكشاف أمرهم، لكنّ الحظَّ حالفهم حتى النهاية.

بعد زواج عفراء أيقنتْ هند أنّ أمر زواجها من أحد أقاربها في بلد آخر سيحصل في أيّة لحظة، واستهولتْ فراقَ مسرور؛ فهي تحبّه إلى درجة أنَّها صمَّمتْ ألَّا تكون زوجةً إلَّا له. وتأكَّدتْ من مشاعرها هذه عندما أرسل أبوها مسرورًا في عمل إلى بلدٍ آخر، وطال هذا العملُ شهرًا كاملًا، ففكَّرت: إذا كان غيابُه شهرًا واحدًا عذَّبها كلّ هذا العذاب فكيف ستتحمّل فراقَه النهائيّ؟! إنَّ هذا يجب ألّا يحصل أبدًا.

تداول الثلاثة مطوَّلًا، وأخيرًا اتّفقوا على خطَّة.

بدأتْ هند بالصلاة. كانت تلبس الثيابَ البيضاء ولا يظهر منها غيرُ وجهها وكفّيها. بعد عدَّة أيَّام لاحظ أهلُها أماراتِ التقوى والورع، وعبادتَها المستمرَّةَ ليلًا نهارًا؛ وحين لا تصلّي كانت تجلس والقرآنُ أمامها تقرأ منه بصوت خافت. بعد شهر، وقد أخذ بعضُ إخوتها في التندُّر من هذه المبالغة في العبادة، طلبتْ من أمّها مفتاحَ السرداب.

ـ ولماذا تريدين مفتاحَ السرداب؟

ـ لأنّني أريد أن أصلّي هناك بعيدًا عن أعين الخدم وإخوتي وتعليقاتهم.

أعطتها أمُّها مفتاحَ السرداب وهي توصيها بأن لا تدع أحدًا ينزل معها هناك، بمن فيهم مسرورة!

طوال ستَّة أشهر كانت تنزل كلَّ يوم لتصلّي بين جِرار الذهب.

وعندما تصعد كان جيبُها الداخليُّ منفوخًا بالليرات الذهبيّة، يستره رداءُ الصلاة الأبيضُ الفضفاض. كانت هذه فكرةَ مسرورة: «عندما تهربان يجب أن يكون لديكما الكثيرُ من المال حتى تستطيعا الفرارَ بعيدًا جدًّا، إلى مكانٍ لا يستطيع الشيخ عبد الرحمٰن أو رجالُه الوصولَ إليه، لأنَّه إذا اكتشف الأمرَ فمصيرُكُما ومصيري سيكون الموت».

كلَّ أسبوع كان مسرور يتسلَّل في الظلام عبر الغابات والأحراش المحيطة بالخالديّة، مخاطرًا بتعرُّضه لهجمة نمرٍ أو خنزيرٍ برِّيّ، حاملًا الذهبَ في أكياسٍ صغيرة. وهناك يدفنها في حفرةٍ أعدَّها لهذا الغرض.

هند استوحت الفكرةَ برمَّتها من جدَّتها لأبيها. فهذه، عندما كبرتْ قليلًا في السنِّ. زهدتْ في الدنيا، وأبلغتْ ابنَها الشيخ عبد الرحمٰن أنَّها قرَّرت الدخولَ في عمق الغابات لتتعبَّد اللهَ هناك، مع مخلوقات الله من الوحوش والبهائم، فمنعها ابنُها متّهمًا إيّاها بالجنون. لم تجبه حينها بشيء، ولكنْ بعد يومين لم يعد أحد إلى رؤيتها أبدًا؛ فقد اختفت في عمق الغابات الشاسعة، ولم تفلح كلُّ حملات التفتيش التي سيّرها ابنُها في العثور عليها.

قبل تنفيذ الفرار الكبير بأسبوع مرَّ مسرور بقريةٍ قريبةٍ من النقطة التي كان يدفن فيها الذهبَ، وهي التي يُفترض أن يَعْبرا النهرَ إلى الضفَّة الأخرى قريبًا منها «لإخفاء أيّ أثرٍ لنا إذا فكَّر أحد في اقتفاء أثرنا». أخذ يبحث عن بقرة جيِّدة وقويّة. شاهد واحدةً وعرض على صاحبها شراءها، واتّفق الاثنان على السعر. عندما استفسر الفلّاح عن سبب شراء أحد عبيد آل الشيخ للبقرة، أجابه مسرور أنَّها للشيخ وليست له، وأنَّه سيُبقيها أمانةً لديه أسبوعًا آخر، ثم أعطاه ثمنَها كاملًا.

تسلَّل الاثنان من النافذة تحت جنح الظلام الدامس، وذهبتْ مسرورة إلى بيت أهلها. سار مسرور وهند بين أشجار الغابة. أخرج الذهبَ المدفونَ وحشره في «خرج» ممّا يوضع على الدوابّ. أغلقه جيِّدًا وربطه ربطًا محكمًا على ظهر البقرة وقال لهند:

ـ أمسكي ذيلَ البقرة بقوّة، ومهما حدث لا تتركيه.

أمسك هو أيضًا بالذيل ودفع البقرة بقوَّةٍ نحو النهر. خاضت البقرةُ الماءَ وهما معلَّقان بذيلها، صوب الضفَّة الأخرى.

صباحَ اليوم التالي حضرتْ مسرورة متأخِّرةً قليلًا. فتحتْ غرفة سيِّدتها فلم تجدها. تظاهرتْ بأنَّها تبحث عنها في أرجاء البيت الكبير وتعمَّدتْ سؤالَ الجميع: «هل رأيتم سيِّدتي هند؟». وبعد ساعتين دخلتْ إلى السيِّدة الكبيرة وأخبرتها أنَّ ابنتها هند غير موجودة في البيت.

دخلت الأمّ غرفةَ ابنتها، فرأت ورقةً صفراء كبيرة ملقاةً على الأرض. التقطتها وقرأتْ بضع كلمات مكتوبة بخطٍّ رديء:

«أبي وأمِّي... سامحاني، لقد قرَّرتُ أن ألحقَ بجدَّتي وأدخلَ الغابة لأتعبَّد الله مع مخلوقاته من البهائم والوحوش. لا تبحثوا عنِّي فلن أعود مهما كان».

جُنّ جنونُ الأمِّ، وأرسلتْ في طلب الشيخ عبد الرحمٰن الذي حضر ملهوفًا. ناولته الورقة من دون أيّة كلمة. عندما قرأها انهدّ دفعةً واحدة على الأرض، ثم وضع رأسه بين يديه مفكِّرًا في هذه المصيبة. رفع رأسه بعد قليل وقال بحرقة:

ـ يا إلٰهي لماذا هذا الامتحان؟ ألا يكفي جنونُ أمِّي؟! والآن ابنتي وهي ما تزال شابَّة؟ ماذا سيقول الناسُ عندما يعلمون بالأمر؟

التفت نحو زوجته وسألها بحدَّة:

ـ مَن يعرف بالموضوع غيرك؟

ـ أنا ومسرورة فقط.

ـ لا أريد أن يعرف أيُّ إنسان بالأمر، هل سمعتما؟ هل سمعتِ يا مسرورة؟

ـ حاضر عمّي الشيخ.

بعد تفكير طويل طلب إحضارَ «قصّاص الأثر» الذي استمع إلى الشيخ وهو واقف:

ـ عندنا خادمة هربتْ ودخلت الغابة! أريد منك أن تتّبع أثرها وتجدها لي.

بعد أربع أو خمس ساعات عاد قصّاصُ الأثر وأخبر الشيخ:

ـ الأثر يبيّن أنَّ مَن دخل الغابةَ اثنان لا واحد، رجل وامرأة. يبدأ الأثر من النافذة الشرقيّة في المنزل، وينتهي عند نقطة على شاطئ النهر. من المؤكّد أنّهما عبرا النَهر بطريقةٍ ما، لأنَّ الأثر توقّف هناك.

ازدادت هواجسُ الشيخ عبد الرحمٰن ووساوسُه. بقي يومين لا يعرف ما يفعل. وفيما هو في مجلسه وحيدًا يفكّر دخل عبدُه الخاصّ أبو مسرور ووقف أمامه. رفع الشيخُ رأسَه مستفسرًا. وبصوت حزين قال أبو مسرور:

ـ يا عمّي الشيخ... ابني مسرور مختفٍ منذ ثلاثة أيّام ولا نعرف أين هو!

لم يبدُ على الشيخ أنّه استوعب ما سمع. مضى أكثر من دقيقتين وهو يحدّق إلى أبي مسرور. فجأةً هبّ واقفًا ويكاد يصرخ:

ـ ماذا قلت؟ ماذا قلت؟

بعد ساعة كان قد أخرج جميعَ الخدم والأولاد من البيت وظلّ

هو وزوجته ومسرورة، التي استجوبها بنفسه، فأصرَّت على أنَّها لا تعلم شيئًا. انهال عليها بالضرب المبرّح لساعات. فانهارت واعترفتْ بكلِّ شيء. ولم يرها أحد بعد ذلك.

استدعى الشيخ عشرةً من أبناء إخوته وأرسلهم للبحث عن هند ومسرور. زوَّد كلًّا منهم بمبلغ كبير من المال:

ـ خذوا سلاحكم. مَنْ يعثر عليهما فَلْيأتِني بالرأسيْن فقط.

بعد شهر عاد الأوَّل معلنًا فشلَه. في نهاية العام عاد آخرُهم، وهو ابن أخي الشيخ، وكان قد وصل إلى القاهرة:

ـ عمِّي الشيخ عبد الرحمٰن... أعتقد أنَّهما في القاهرة. كنتُ كلَّما مررتُ بمدينةٍ أسأل جميعَ الحانات فيها عن رجل أسود يصطحب امرأةً بيضاءَ عيناها خضراوان، فلم يقل لي أحد إنَّه رأى وجهَ المرأة أو عينيها، لكنِّي كنت دائمًا أجدَ من رأى رجلًا أسودَ ومعه امرأةٌ منقَّبة. إلى أن وصلتُ إلى القاهرة، وهي يا عمِّي الشيخ مدينة كبيرة يحتاج البحث فيها إلى زمن طويل. سآخذ عائلتي وأسكن في القاهرة. وإنْ شاء الله لن أعود إلَّا ومعي رأسُ ذلك العبد القذر.

بعد ستَّة وثلاثين عامًا عاد وحده وسأل عن الشيخ عبد الرحمٰن فأخبروه أنَّه مريض وربَّما مُشرفٌ على الموت. عندما دخل غرفة الشيخ وقبَّل يده، طلب أن يبقى وحده معه. التفت إليه الشيخ وسأله بإعياء ظاهر:

ـ مَن أنت؟

ـ أنا ابنُ أخيك َوكنتَ قد أرسلتني إلى القاهرة للبحث عن هند والعبد القذر.

ـ هند؟ وهل وجدتَها؟ يا إلٰهي كان هذا منذ زمن بعيد.

ـ نعم يا عمِّي... أظنّني وجدتُها! فعندما بحثتُ في القاهرة بيتًا

بيتًا ولم أجدها يئستُ. ثم صادقتُ رجالَ القوافل التي تذهب إلى كلّ الأنحاء. المهمّ منذ ستّة أشهر عاد أحدُ رؤساء القوافل الذي يتاجر مع منطقةٍ قد يكون اسمُها «مالي». وهناك سمع أنّه منذ أكثر من ثلاثين عامًا حضر عبدٌ أسود إلى هذه المنطقة، ومعه زوجة عربيّة بيضاء اللون وذات عينين خضراوين، فاستطاع شيئًا فشيئًا إنشاءَ مملكة قويّة بما يملك من أموال، وكانت زوجتُه إلى جانبه في كلّ خطوة. قال لي رئيسُ القافلة إنَّ الناس في هذه المملكة مسلمون جميعًا ويتكلّمون اللغة العربيّة، وإنّه غير متأكّد من عدد أولاد الملك، سبعة أو ثمانية أو تسعة، والغريب أنَّ بعضهم أسود وعينيْه خضراوان، وأنّ لبعضهم شَعرًا مسترسلًا رغم أنّه أسود اللون، وأنّه قد رأى الابنَ الأبيض الوحيد لهذا الملك ولكنّ شَعْره أجعد وأسنانه ناتئة. المهمّ أنّه أخبرني أنَّ الملكة أُصيبت بمرض منذ سنتين فتوفِّيت، وبعد شهر من موتها لحقها زوجُها من شدَّة الحزن، وخَلَفَه ابنه الأسود ذو العينين الخضراوين، والذي لا يستطيع أحد من أعوانه أو أتباعه النظرَ مباشرةً إلى عينيه. يا عمِّي، أعتقد أنَّ هذا الملك وهذه الملكة هما ابنة عمِّي هند والعبد مسرور. للأسف أنّهما ماتا قبل أن نصل إليهما. ولكنْ إذا أمرتني بأن آخذَ بعضَ الرجال ونذهبَ للقضاء على هذه الذرِّيّة النجسة فأنا جاهز يا عمِّي!

ـ ارفعني قليلًا.

هكذا أمر الشيخ عبد الرحمٰن ابنَ أخيه، الذي رفعه ووضع وسادة خلف ظهره. قال بصوت قويّ لا يتناسب وضعفَه:

ـ لقد حاول جدُّنا الأكبر، الوليدُ بن المغيرة المخزومي، أن يكون ملكًا لكنَّه لم يستطع، ومات ناقمًا على محمّد بن عبد الله، النبيِّ العربيِّ الذي اعتبره الوليدُ الشخصَ المسؤولَ عن إفشال مشروعه.

والآن استطاعت امرأةٌ مخزوميّة، ابنتي هند، أن تصبح ملكة! والله إنّه أمر عظيم.

* * *

لليوم العاشر وأنا في الخالديّة. خمسة أيّام من الضجر بعد ذهاب أصلان. أجلس في مقهى صغير في القسم التجاريّ من البلدة، ومعي رجل كبير في السنّ عرّفني إليه أصلان، يحدِّثني عن تاريخ الخالديّة. فجأةً انتصب أمامي معيوف، وبأدبٍ جمّ قال لي:

ـ عمّي سلام ينتظركَ في السيّارة.

رأيتُ سلام جالسًا خلف المقود، ومحرِّكُ السيّارة يدور. أشار إليّ بأن أصعد بسرعة، وانطلقت السيّارةُ على طريق حلب.

ـ هل حدث شيء يستوجب هذه السرعة؟

سألتُه وأنا ألتفت نحوه، بينما كان يضغط برجله على دعسة البنزين أكثر فأكثر.

ـ غدًا صباحًا يجب أن نكون أنا ومارال في مطار دمشق لأنّنا سنسافر إلى موسكو ضمن وفدٍ حزبيٍّ. سنبقى هناك خمسة أيّام ثم نعود. لقد أبلغوني هذا في اللحظة الأخيرة.

بقي في حلب ساعتين فقط ريثما استعدّتْ مارال للسفر. ذهبا إلى دمشق، وذهبتُ أنا إلى البيت. قرّرتُ أن أسترخي خلال فترة غيابهما. وفي اليوم السادس، الذي قدّرتُ أنّهما سيعودان فيه من موسكو. طُرق بابُ البيت، وكان سلام ومارال تبدو عليهما علائمُ الحيويّة والنضارة والسرور. أخبراني أنّهما عادا البارحة إلى حلب، وبابتسامةٍ لم يستطع أن يخفيَها قال لي إنَّ لديهما مفاجأةً لي ولكنّهما لن يخبراني شيئًا إلّا إذا قمتُ بتجهيز المائدة لسهرةٍ قد تطول.

فهمتُ من كلام سلام أنَّهما قد يقضيان الليلةَ عندي، وكان هذا يحدث دائمًا؛ ففي البيت غرفةُ نومٍ إضافيّة لم يستخدمها إلّا سلام، وعندما بدأ يضيق ذرعًا بأعين الخدمِ حين كانت تأتيه مارال إلى قصره وتدخل إلى غرفته لساعات طويلة، أخذا شيئًا فشيئًا يرتّبان لقاءاتهما عندي. وقد توطّدتْ علاقتي بمارال كثيرًا، حتى إنّها قالت لي مرَّةً أمام سلام في لحظة اندفاع عاطفيّ:

ـ كنتُ أتمنّى أن يكون لديّ أخ بمواصفاتك وشخصيّتك.

ـ لكنّني أخوكِ يا مارال!

نهضتْ وعانقتني، ثم قبّلتني من خدِّي والتأثُّرُ بادٍ عليها. ضحك سلام حينها وقال:

ـ ما دمتَ أخاها فأنا الآن صهرُك. وهذا رابط جديد بيننا.

استغرق تجهيزُ المائدة نحو نصف ساعة. جلسنا بعدها حول الطاولة وقلت:

ـ أنا بانتظار المفاجأة، أسارّةً كانت أَمْ حزينة.

نظرتْ مارال في عينيْ سلام، فأومأ برأسه موافقًا. فتحتْ حقيبةَ يدها وأخرجتْ مظروفًا كبيرًا. ناولتني إيّاه وهي تبتسم. أخذتُه وفحصتُه فوجدتُ أنْ لا شيء عليه سوى اسمي. ولأوّل وهلة توقّعتُ أن يكون فيه مبلغٌ من المال، وفكّرت: إذا صحّ هذا التوقُّع فإنّه أمر يثير الغضبَ والانزعاج، فأنا لست بحاجة إلى المال... ثم لماذا يتعمّد إعطائي إيّاه أمام مارال وبيدها؟! ازدحم رأسي بالأفكار المزعجة. وكأنَّه لاحظ علامات الانزعاج، فقال مبتسمًا:

ـ بدلًا من متابعة تقليب الرسالة افتحْها واعرفْ ما فيها. إنّها رسالة من لميس.

ـ لميس؟!

صرختُ اسمَها ثم رميتُ المظروفَ أمامي على الطاولة! حدَّقا بي وقد غابت الابتسامةُ عن وجهيهما. قالت مارال بجدِّيَّتها الفائقة والصارمة:

ـ ما بك؟ هل لسعتْكَ عقربٌ أو أفعى؟

شعرتُ بالخجل. مددتُ يدي وتناولتُ المظروفَ ثانيةً. قال سلام وقد عادت الابتسامة:

ـ تستطيع أن تأخذ كأسك ورسالتك وتدخلَ إلى غرفتك. رسالة كهذه يجب أن تقرأها وحيدًا.

فعلتُ كما قال سلام. ستُّ ورقات مكتوبة بخطّ اليد بعناية ودقَّة. التهمتُ الكلمات التهامًا سريعًا. توقَّفتُ عند آخر سطرين:

ـ إذا كنتَ قد ارتبطتَ بامرأة أُخرى فإنَّني أتمنَّى لك السعادة والتوفيق، ومعهما أقول لك للمرَّة الأولى والأخيرة إنّني أحبّك. أمّا إذا لم ترتبط وتريدني أن أعود فأَرسلْ إليَّ برقيّةً على هذا العنوان. ملاحظة: سأنتظر برقيّتك العتيدة ثلاثةَ أيَّام بعد وصول رسالتي إليك. إذا لم أتلقَّها فإنّني سأتزوَّج أوَّلَ رجلٍ أقابله في الشارع.

خرجتُ من غرفتي بعد أن ارتديتُ كامل ثيابي. نظرا إليّ مستفسريْن. سأل سلام:

ـ بهذه السرعة قرأتَ الرسالة؟

ـ هل سيّارتك معك؟

أومأ برأسه إيجابًا. أمسكتُ يده وسحبتُه خارج البيت قائلًا لمارال:

ـ نصف ساعةٍ ونعود.

عدنا إلى البيت بعد أن أرسلتُ برقيّةً مؤلّفةً من كلمتين:

ـ أنا بانتظارك.

ملأتُ كأسي حتى الحافّة ودخلتُ غرفتي. تمدّدتُ على السرير وأخذتُ أقرأ الرسالة بتمهُّل وتلذُّذ.

«... احترتُ بدايةً بماذا أخاطبكَ، هل أقول عزيزي... أمْ صديقي... رفيقي أمْ حبيبي؟ هذه الكلمة الأخيرة حذفتُها فورًا؛ فأنا لا أحبّ الكذب. لم أحبّك يومًا. فكيف أناديك بها؟

«... على كلّ حال، إذا عرضتَ عليّ أو ـ رجوْتَ منّي ـ أن أستأنفَ حياتي معك، فقد أقبل. أقبلُ ليس حبًّا بك أو شوقًا إليك إنّما مللًا وضجرًا! لقد مللتُ هنا من كلّ شيء: غرفتي ومعهدي وأساتذتي المتجهّمين، من المناهج الجافّة، وأعترفُ لك ـ لك فقط ـ بأنّني لا أفهمُ منها إلّا القليلَ. مللتُ من زملائي الطلّاب ـ دائمًا أتصوّر رؤوسهم وكأنها علبُ سردين متشابهة من الخارج والداخل ومرصوفة بانتظامٍ فوق رفٍّ ما، في حانوتٍ ما، في بلدٍ ما. هل تعلم؟ أعتقد أنَّه سردينٌ خالٍ من الزيت ومن الفلفل الحارّ، له الطعم نفسُه، والرائحة الزنخة نفسُها. لماذا لا يعرفون كيف يضحكون؟

«... يحرقني الحنينُ إلى بلدي، وأكثر ما أحنّ إليه هو الشمس. يا لَشَمسنا ما أروعها! وآهٍ ما أشدَّ نذالةَ بردهم ولؤمه! وأحنُّ إلى تحيّتنا ـ السلام عليكم ـ وأشتاق شخصًا يحيّيني بها. وقد سألتُ الطلّابَ من حولي، وهم كما تعرف من جنسيّات عديدة، وجمعتُ معاني خمس وعشرين تحيّةً، تقال بخمس وعشرين لغةً، فلم أجد أعمقَ وأجملَ من تحيّتنا... إذا أردتَ أن ترسل رسالةً فابدأْها بـ: السلام عليكم.

«... عندما رأيتُ صديقكَ عبد السلام ـ الرجلَ المغناطيس ـ تذكّرتُه فورًا وفرحتُ كثيرًا. الحقيقة أنَّ قلبي قد بدأ يخفق بشدّة.

تصوَّرتُ أنَّه أحبّني عندما رآني تلك المرَّة في المطبعة، ولذلك جاء يبحث عنِّي ليصارحني بحبّه! أنت تذكر أنّني كنت أتمنّى أن أجلس بحضنه ولو لدقائق ـ هل ما زلت تغار عليّ؟ ـ ولكنِّني هبطتُ فورًا ودفعةً واحدةً من السماء إلى الأرض الصلبة عندما عرَّفني إلى خطيبته الجميلة. أعترفُ أنَّها أجمل منِّي، وهذا الاعتراف لن تسمعه إلَّا من امرأة مثلي. ثم أخذ الاثنان يحدِّثاني عنك وعن أنّك تحبّني كثيرًا. طبعًا في هذه النقطة لم أصدِّقْهما أبدًا؛ فأنت كذّاب كبير. لقد استمتعتُ بصحبتهما كثيرًا، وأحببتُ مارال، وأسميتُها بيني وبين نفسي بـ: المرأة المغناطيس. وأعتقد أنَّها أحبّتني أيضًا إلى درجة أنّها تركت الفندقَ الفخمَ وجاءت لتنام معي في غرفتي الحقيرة. وقد نمنا في السرير الوحيد معًا مرَّتين، وتحدَّثنا عنك طويلًا.

«... اسمعْ يا عزيزي، سأبوح لك بسرّ: أعتقد أنَّ مارال تحبّك! عندما كنتُ ألمس هذا يتبادر إلى ذهني أن أطرح عليها صفقةً: ما رأيكِ يا مارال أن تتزوّجي حبيبي وأنا أتزوّج الرجلَ المغناطيس؟ ولكنّني لم أجرؤ على قول أيّ شيء قبل أن أسألك أنتَ، فما رأيك؟ أنت تقول الآن إنّني لست جادّةً وأمزح. إذًا خذْها من الآخر: أنا مستعدّة أن أتنازل عنك طوال الحياة مقابلَ ليلةٍ واحدةٍ مع الرجل المغناطيس.

«... سأقترب الآن من السؤال الذي يلحّ على ذهنك ـ فأنا أعرفك جيِّدًا. أنت تتساءل إنْ كنتُ لم أحبّ أحدًا غيرَك هنا أو إنْ كنتُ قد خنتكَ، أليس كذلك؟ أمَّا بالنسبة إلى الحبّ فأقول لك بصراحة إنّني لم أحبّ أحدًا ـ أصلًا لا يوجد هنا في محيطي شخص جدير بالحبِّ. أمّا الخيانة فإنّني، وبصدق شديد، أقول لك إنّني لم أخنكَ إلَّا ثلاثَ مرّات. المرّة الأولى كانت مع فريق لكرة القدم، بدءًا بالمدرِّب وانتهاءً باللاعبين الاحتياط. ولعلمك فقط فإنَّ هذا الفريق

أحرز الكأسَ في ذلك العام، وقد أهدوني هذه الكأس بعد أن اعتبروا أنّني ملهمتُهم والسببُ الرئيسُ للفوز. أمّا المرَّة الثانية والثالثة فأعترف أمامك أنّني قد تجاوزتُ حدودي وتصرّفتُ بما لا يليق بامرأة شرقيّة ـ ولكنْ لو ترى الهدايا التي تزدحم بها غرفتي إلى جانب الكأس، وهي بحاجة إلى سيّارة شاحنة لأحملها عندما أعود! أعرف أنّك رجل عصريّ وسوف تسامحني على هذه الخيانة الصغيرة؛ ففي حياةِ كلٍّ منّا نزواتٌ صغيرةٌ يمكن التغاضي عنها من قِبل الطرف الآخر.

«. . . أخبرتك عن الحنين إلى الوطن. ولكنْ، في الليالي الطويلة الباردة، وفي غرفتي الموحشة، أندسّ تحت اللحاف وتلاحقني الذكريات. تلك الساعات التي قضيناها معًا هي أعذب وأجمل ما أتذكّره هنا ـ وأنا الآن أتكلّم بعيدًا عن المزاح. وبقدْرِ ما أستمتع باستعادة تلك الصور والذكريات أحسُّها تجلدني بالسياط. أتَذْكُر كم مرَّةً أضعنا قطعةً من ثيابنا ونحن تحت تأثير هياجنا؟ عندما استعدتُ الصور مرَّاتٍ عديدةً انتبهتُ إلى أنَّ ثيابي هي التي كانت تضيع، وتساءلتُ: هل كان هو الذي يفعلها عمدًا لإغاظتي ولمآربَ أخرى؟ وأذكر الآن أوَّل مرَّة ضاع فيها سروالي الصغير. بحثنا عنه في كلّ البيت، لكنَّنا لم نجده. عرضتَ عليّ حينها أن تعيرني أحدَ سراويلك. عندما لبستُ سروالك بدا شكلي مضحكًا، فخلعتُه بسرعة، وبتحدٍّ قلتُ لك: إنّني أفضّل أن أسير من دون سروال على أن أرتدي سروالك. قلتَ لي محاولًا استفزازي إنَّكِ لن تستطيعي السيرَ في الشارع من دون سروال. ومشيتَ معي في الشارع عشرين مترًا ولا زالت كلماتك ترنّ في أذني: «عندما أنظر إليك الآن، وأنا عارف أنّك من دون سروال أشعرُ بالهياج». فَرَمَقْتُكَ بطرف عيني بعد أن وقفتُ وقلتُ لك «هل تريد أن نعود إلى البيت؟». وعدنا. . . أعرف أنَّ الفترة التي قضيناها معًا لم

تكن طويلة، ولكنَّها أكثرُ فترات حياتي التي أحنّ إليها».

* * *

خرجتُ من غرفتي أحمل كأسي الفارغة. نظرا إليَّ بودٍّ. علّق سلام أنَّه يعتقد أنّني مخمور ولكنْ لا يعرف إذا كان هذا بفعل الشراب أمْ بفعل الرسالة. بقينا معًا إلى منتصف الليل. انسحبتْ مارال إلى الغرفة، وبعدها تبعها سلام. وما هو إلَّا وقت قليل حتى بدأتُ أسمع صياحَها ونخيرَه. دخلتُ إلى غرفتي ورحتُ في نوم عميق لم أستيقظ منه إلَّا صباحًا على رنينٍ متواصلٍ لجرس البيت يرافقه طرقٌ شديدٌ على الباب.

# (١١)

رنينُ الجرس المتواصل والطَرْقُ الملحاح على الباب أيقظاني من نومي الثقيل. احتجتُ إلى بضع ثوانٍ كي أعرف أين أنا وما هو المطلوب منّي. وقفتُ وأخذتُ أبحث عن شيء أنتعلُه. ترنّحتُ قليلًا ـ يبدو أنّني قد أكثرتُ من الشراب البارحة. تذكّرتُ سلام ومارال، هل ما يزالان هنا؟ لماذا لم يستيقظا؟ لمحتُ أوراق رسالة لميس مرميّةً على الطاولة الصغيرة بجانب السرير. قلتُ لنفسي: مع القهوة الصباحيّة سأعودُ إلى قراءة الرسالة. نظرتُ إلى الساعة؛ إنّها السادسة صباحًا. مَن هذا الذي يدقّ بابَ بيتي في هذه الساعة المبكّرة؟

عندما فتحتُ الباب وجدتُ معيوف بعيْنيْن حمراويْن وآثارِ دموعٍ في عينيه. صرختُ:

ـ معيوف! ما الأمر؟ ماذا جرى؟

بدا أنَّ معيوف اختنق بدموعه ولم يعد يستطيع الكلام. وبعد جهد قال:

ـ عمّي سلام... يا أستاذ... عمّي... عمّتي مارال في السيّارة... عمّي سلام... البسْ... البسْ بسرعة، عمّتي مارال في السيّارة...

جمدتُ في مكاني. لم أفهم شيئًا ممّا قاله. تقدَّم نحوي ودفعني بلطف إلى الداخل:

ـ إلبسْ... إلبسْ... وانزلْ لتحت.

ارتديتُ ثيابي بسرعة ونزلت. سيّارة سلام أمام الباب، ومحرِّكُها يعمل. معيوف أصبح خلف المقود. اقتربتُ، فرأيتُ مارال في المقعد الخلفيّ تبكي، وعلى خدِّها الأيمن ضمَّادةٌ طبِّيّة. فتحتُ باب السيّارة وقذفتُ نفسي إلى جانب معيوف، وأنا ملتفتٌ بكامل جذعي صوب مارال، ويداي ممدودتان إليها. أمسكتْ بيديّ وزاد نشيجُها. سألتُ بخوف وحرقة:

ـ مارال... ماذا جرى أخبريني؟ هل سلام بخير؟

ردَّت مارال بكلمات متقطِّعة بين نشيجٍ وآخر:

ـ لا أعرف... تركناه في المشفى بين الحياة والموت. والآن أنا ذاهبة إلى هناك، وفكَّرتُ أنّ عليك أن تكون معي.

بعد أن نمتُ ليلة البارحة ظلّ سلام ومارال في البيت عندي حتى الساعة الثانية صباحًا. بعد خروجهما أوصلها إلى بيت أهلها، وأوقف السيّارةَ أمام بيت مهران ونزلا منها. وفيما هي تهمّ بفتح الباب هجمتْ عليهما مجموعةٌ من الملثّمين وبدأتْ بضربهم. كانوا بين ستَّة إلى ثمانية أشخاص. أمسك اثنان منهم مارال وبدأا بصفعها وركلها، فيما أحاط الباقون بسلام وانهالوا عليه ضربًا بالعصا وطعنًا بالسكِّين. على صوت الصياح والعراك فَتَحَ أصحابُ البيوت القريبة نوافذَهم يستطلعون ما يجري، فهرب المهاجمون. لكنْ قبل هروبهم بثوانٍ تقدَّم الشخص الذي طعن سلام بالسكِّين وشطب خدّ مارال وهو يقول بالأرمنيّة:

ـ هذا جزاءُ كلّ عاهرة تمرِّغ الشرفَ الأرمنيّ بالخراء.

الطَّرْقُ الهستيريُّ لمارال على باب بيت أهلها ـ بعد أن رأت سلام ممدَّدًا على الإسفلت ولا يُبدي أيّة حركة ـ أخرج مهران وزوجته وابنه من البيت. حملوا سلام إلى الداخل، يعاونهم بعضُ الفضوليين الذين تجمَّعوا فورًا. مهران، بخبرته الحياتيّة، فحص سلام وتأكّد أنَّه ما زال حيًّا، ثم فحص خدّ مارال: «لا تخافي إنّه خدش بسيط». وفيما هو يرتدي ثيابه أمر ابنَه:

ـ اذهبْ إلى الشارع وأَحضرْ سيّارةَ أجرة. سيّارة الإسعاف لن تحضر في مثل هذه الساعة وستكون دماؤه قد نزفتْ تمامًا عند حضورها.

بعدها زَجَرَ زوجتَه التي كانت تلطم خدَّيْها، وطلب من مارال أن تكون قويّة كما يعرفها.

في المشفى أدخلوا سلام إلى غرفة العمليّات. بعد ساعة تقريبًا نقلوه وهو ملفوفٌ بالضمّادات إلى غرفة من غرف المشفى. سأل مهران الطبيبَ عن حالة سلام، فسأله الطبيب بدوره:

ـ هل أنتم أهله؟

أشار مهران بيده إلى مارال التي كانت إحدى الممرِّضات قد عالجتْ خدّها ووضعتْ لها ضمادًا:

ـ هذه زوجته، وأنا أبوها.

ـ لا نستطيع أن نتأكّد من حالته إلّا بعد أربع وعشرين ساعة. لقد نزف الكثيرَ من الدماء. هو مصاب بثلاث طعنات من آلة حادّة: واحدة في الظهر، ولحسن الحظّ أنّها بعيدة عن العمود الفقريّ، ولكنَّها قد تكون سبّبتْ أذيّةً للرئة؛ وواحدة في الكتف؛ والأخيرة غير عميقة بين الخاصرة والبطن. وهناك جرح كبير في الرأس نتيجةً لضربةٍ قويّةٍ بهراوة أو عصًا غليظة، وهي السبب في حالة الإغماء، ونأمل ألّا تكون قد

سبّبت ارتجاجًا في الدماغ. على كلٍّ... يا عمّي لقد فعلنا كلّ ما علينا والباقي على الله.

طلب مهران من ابنه أن يذهب إلى البيت لأنَّ أمَّه وحدها، وطلب من مارال أن تُخبر أهل سلام «بطريقة لبقة» بالحادث، و«أنا سأبقى إلى جانبه».

جلس مهران إلى جانب سرير سلام يفكّر: إنّها الحرب! ولكنْ مَن هو الطرف الذي يشنُّ هذه الحربَ لمنع هذا الزواج؟ لا شكّ في أنّ مَنْ قام بالفعل ليلة البارحة هم من الشبّان الأرمن، ولكنْ هل تصرَّفوا من تلقاء ذاتهم؟ أستبعدُ هذا الاحتمال. أهي الكنيسة أو أحدُ رجالاتها، لكي لا يكون هذا الزواجُ سابقةً تشجّع آخرين على سلوك الطريق نفسه؟ هذا احتمال قويّ، خصوصًا أنَّهم سبق أن حذَّروه من مغبَّة إتمام هذا الزواج. أمْ أنَّه أحدُ رجالات حزب الطاشناق ـ أعدائه السياسيّين والإيديولوجيين ـ وبدافع التعصُّب القوميّ؟ هذا أيضًا احتمالٌ قويٌّ، ولا سيّما أنّ هذا الحزب هو الطرف الأكثر تنظيمًا.

ولكنْ... أنا مهران، ماذا عليّ أن أفعل؟ ماذا أستطيع أن أفعل؟ ولأنّني لا أعرف مَنْ هو خصمي أو عدوّي فلن أستطيع أن أفعل شيئًا. مَن قام بهذا العمل أراد أن يعرف نتائجَ عمله عليّ وعلى عائلتي؛ أراد أن يعرف إنْ كان قد أوقعَ الخوفَ في قلوبنا بحيث نتراجع عن هذا الزواج. لذلك إذا سكتُّ وتصرَّفتُ كأنَّ شيئًا لم يحدث فسيتقدَّم ليعرف مدى خوفي، أو سيزيد من ضغوطه ليُحْدث مزيدًا من الخوف. ومن المؤكَّد أنَّه لن يتقدَّم بلهجة الوعيد والتهديد حتى لا يكشف نفسه، بل سيتقدَّم بلهجة الناصح والمستفسر وكأنَّه يحبّني ويريد مصلحتي. إذًا الطرف الذي سيقدِّم إليّ نصائحَه سيكون هو مَنِ ارتكب هذا الفعل، وإذا عرفتُه فسأجعله يَعْلم جيِّدًا من هو مهران. هذا الزواج سيتمّ،

وبأكبر قدرٍ من التحدِّي. المهمّ الآن أن يتعافى سلام وأن لا يقع الخوفُ في قلبه.

نظر إلى سلام النائم على السرير وخاطبه في سرِّه: «لا تخذلني يا سلام... ابقَ قويًّا كعمّك مهران».

معيوف الذي كان يقود السيّارةَ بنا لا ينفكّ عن التمتمة والتحسُّر، وبين الفينة والأخرى ينظر إلى مارال من خلال المرآة ويسألها سؤالًا يعود بعده إلى التمتمة. قُبيل السابعة أوقف السيّارة أمام المشفى ونزلنا نحن الثلاثة. اجتزنا البابَ الخارجيّ، وأمام الباب الداخليّ رأيتُ الشيخ عبد الهادي واقفًا بهدوء وكأنَّه ينتظرنا. ركض معيوف إليه وقبَّل يده في وضعيّة الركوع مجهشًا بالبكاء. تقدَّمتُ وقبَّلتُ يده ـ وقد اعتدت هذا الأمر ـ بينما وقفتْ مارال تتطلَّع إلينا مستغربةً. كانت تلك هي المرَّة الأولى التي ترى فيها الشيخ عبد الهادي، الذي بدا وكأنَّه لم يلحظْ وجودَها. وضع يدًا على كتفي ويدًا على كتف معيوف. ثم قال:

ـ سيعيش... لا تخافا، سيعيش.

التفت صوب مارال رافعًا يده عن كتفي وسأل:

ـ أنتِ مارال أليس كذلك؟

أومأتْ برأسها ولم تجب. وضع يده اليمنى على رأسها، فأغمضتْ عينيها تلقائيًّا. ظلَّت يده على رأسها نحو دقيقة. رفعها وهو يقول:

ـ أدعو اللهَ أن يخفِّفَ شقاءك وشقاءَ سلام.

التفت صوبي وأردف:

ـ لا تترك أخاك سلام وحده؛ فهو سيحتاجك دائمًا، وأنت ستحتاجه. كونا معًا.

تَرَكَنا واتّجه إلى الباب الخارجيّ للمشفى. مارال كانت ما تزال مغمضةَ العينين. فتحتْهما وسألتني والطمأنينةُ تشعُّ من وجهها:

ـ من هذا الرجل؟

ـ إنَّه الشيخ عبد الهادي، والدُ سلام.

ـ ولماذا لم تخبرني؟

صرختْ ذلك وركضتْ صوبَ الباب الخارجيّ لتلحق بالشيخ. بعد قليل عادت وهي تقول:

ـ ولكنْ أين ذهب؟ بحثتُ عنه في كلّ مكان فلم أجده.

سكتنا أنا ومعيوف، تجمعنا نظرةُ تواطؤ، واستأنفتْ مارال حديثها وكأنَّها تكلِّم نفسها:

ـ يا إلٰهي... كم تمنَّيتُ أن تبقى يدُه فوق رأسي. ما هذه الطمأنينةُ التي شعرتُ بها!

نهض مهران لتحيّتنا عندما دخلْنا الغرفة. وبصوتٍ خافتٍ وكأنّه يخشى إيقاظَ سلام أخبرنا أنَّ الوضع على حاله، وأنَّهم أفهموه أنَّ الأطبّاء لن يأتوا إلَّا بعد الثامنة والنصف، فجلسنا في الغرفة ننتظر.

قُبَيْل حضور الأطبّاء دخل رقيبٌ وشرطيّان. تقدَّم الرقيب الشابّ صوب سرير سلام وسأل:

ـ هل تعرفون الأشخاص الذين كان يتشاجر معهم؟

رددتُ عليه بهدوء:

ـ لم تكن مشاجرة. كان اعتداءً من مجموعة على شخص يمشي مع خطيبته.

ـ ومَن أنت؟ هل كنتَ معه أثناء المشاجرة؟

ـ أنا صديقه، ولم أكن معه أثناء الاعتداء.

ـ إذا لم تكن معه فكيف عرفتَ؟ ثم بأيِّ حقٍّ تحشر نفسَكَ في الموضوع؟ وفوق كلّ هذا تريد أن تعلِّمنا عملنا؟ ابتعدْ عن السرير وقف جانبا.

تنحَّيتُ جانبًا. التفت إلى الآخرين وسأل:

ـ مَن كان معه أثناء المشاجرة؟

ـ أنا كنتُ معه، وقد أُصبتُ أيضًا بهذا الجرح. أنا خطيبته، قالت مارال.

كان رقيبًا مزعجًا جدًّا ويمارس سلطته بلهجة جنرال. أعلن أنَّ سلام ومارال موقوفان على ذمّة التحقيق حتى يتمّ القبضُ على الطرف الآخر والتأكُّدُ من الأقوال، وأمر بإخراجنا ـ أنا ومهران ومعيوف ـ من الغرفة. وَضَعَ الشرطيَيْن أمام الباب وأمرهما بمنع دخول أحد أو خروج أحد من الغرفة، إلى أن يقوم بضبط أقوال المصابين والجناة.

بعد قليل حضر الأطبَّاءُ في جولتهم الصباحيّة فدخلنا الغرفة معهم. بوغت الرقيبُ بهذا الجمع يدخل الغرفة بينما هو يضبط أقوالَ مارال، فسأل بحدّةٍ وتعالٍ:

ـ كيف تدخلون من دون إذنٍ منِّي؟

لم يردّ عليه أحدٌ من الأطبّاء واكتفى رئيسُ الأطبَّاء بالتقدُّم نحو سلام من دون أن يلتفت إليه. وفي ذلك الوقت كان الشرطيّ المسنّ يلكز الرقيب ويقول له بصوت خافت إنَّهم أطبّاء ومن حقّهم أن يدخلوا متى شاؤوا. وعندما انتهوا من الفحص وهمُّوا بالمغادرة، قال الرقيب:

ـ متى تستطيعون إيقاظَ المُصاب حتى أضبطَ أقواله؟

ـ إذا كنتَ تستطيع إيقاظَه أيقظْه متى شئتَ!

الأطبّاء كانوا يضحكون لدى خروجهم. لكنْ بعد خروجهم

بحوالى الساعة مدَّت مارال رأسها من خلف الباب الذي كنّا نتجمّع أمامه نحن الثلاثة مع الشرطيين وقالت لنا:

ـ لقد استيقظ سلام وهو مرهق، والرقيب يصرُّ على أخذ إفادته.

هرعنا نحن الثلاثة إلى رئيس الأطبّاء، الذي حضر معنا مسرعًا ودخلنا الغرفة. عَرفْنا أنَّ الرقيب هو من أيقظ سلام من خلال التربيت على خدّيْه فقط، وأنَّ سلام تعرَّف إلى مارال وأمسك يدَها وحاول الابتسام. قام رئيسُ الأطبّاء بمنع الرقيب من استكمال الاستجواب، محمِّلًا إيّاه مسؤوليّةَ ما يحدث للمريض. لدى خروج الطبيب سألناه عن وضع سلام فردّ مطمئنًا إيّانا أنْ لا أذى في الدماغ، والدليل أنَّه صحا وتذكَّر مارال. ضحك وهو يقول إنَّ هذا الرقيب المزعج عمل أفضلَ من كلّ الأطبّاء. ولكنْ بعد قليل وَضَعَنا هذا الرقيبُ أمام مشكلة جديدة عندما أصرّ على نقل مارال إلى سجن النساء باعتبارها قيدَ التوقيف. وفيما نحن نجادله في ذلك بَرَزَ من حيث لا ندري الشيخ حسن «المحامي»، حاملًا حقيبتَه بيده، فتقدَّم نحونا وسأل عن المشكلة. التفت إليه الرقيب وطلب إليه عدمَ التدخُّل في أمرٍ لا يعنيه. عرَّفه إلى نفسه باسمه الثلاثي وبأنّه محامٍ ووكيل رسميّ لسلام. طلب الرقيب منه إبرازَ ما يثبت كلامه، فأعطاه الشيخ حسن كلّ ما طلب، ورغم ذلك أصرَّ الرقيب على نقل مارال إلى السجن ـ فهكذا يقول القانون يا حضرة المحامي. وطلب إلينا تأمينَ سيّارة أجرة لنقلها على حسابنا. طلب الشيخ حسن مهلة ساعة ليقوم بإحضار سيّارته. وافق الرقيب ودخل الغرفة، بينما انطلق الشيخ حسن مثل السهم. وبعد أكثر من ساعة بقليل حضر يحمل أمرًا قضائيًّا بإخلاء سبيل سلام ومارال، وأعطاه للرقيب الذي انسحب ومعه شرطيّاه.

دخلنا الغرفة وتجمّعنا حول سلام، الذي كان ينظر إلينا بعينين

نصف مفتوحتين. قُبَيْل الظهر ابتعدنا عن سريره إلى الزاوية الأخرى وانهمكنا في الحديث، كلٌّ منّا يطلب إلى الآخرين الذهابَ ليرتاحوا على أن يبقى هو إلى جانب سلام. مارال التي لم تنم البارحة دقيقةً واحدةً رفضتْ بقوّة وعناد الذهابَ إلى البيت. تُحدّثنا وعيناها تراقبان سلام. فجأةً رفعتْ يدَها طالبةً سكوتَ الجميع وقالت:

ـ هناك مشكلة... لا أدري ما به سلام.

اقتربنا جميعًا. كان واضحًا أنَّ أنفاسه أصبحتْ قصيرةً ومتلاحقة. بسرعة استدعينا الأطبّاء. حين وصلوا كان يبدو على سلام أنَّه لم يعد يستطيع التنفُّس وجحظتْ عيناه. نقلوه فورًا إلى غرفة العمليّات، وظلّ هناك ساعتين لا ندري ماذا جرى له. ازدادت مخاوفنا عندما حضر رئيسُ الأطبّاء مسرعًا، وكان يُبدي اهتمامًا زائدًا بسلام لسببٍ لا يعرفه أحد. دخل إلى غرفة العمليّات وظلّ هناك حوالى ربع ساعة، خرج على إثرها متمهِّلًا مبتسمًا:

ـ الحمد لله يا جماعة... لقد زال الخطر. إنَّ الطعنة التي في الظهر عميقة، وأعتقد أنّ رأس السكِّين قد لامس الرئة، من دون أن يؤذيها. لقد أوقفنا النزيف، والآن يتمّ تنظيف التجويف الصدريّ. اطمئنُّوا ولا تخافوا.

أعادوه إلى غرفته نائمًا بتأثير المخدِّر، ولكنّ أنفاسه أصبحتْ منتظمة. وأمام رئيس الأطبّاء وقف الشيخ حسن وقال موجِّهًا حديثه إلينا جميعًا:

ـ يا جماعة الخير... إنَّ سلام بين أيدٍ أمينة. علينا جميعًا تركُه يرتاح إلى الغد، على أن يبقى عنده اليوم معيوف فقط. نلتقي جميعًا هنا صباحَ الغد. تعالوا لأوصلكم بسيّارتي، كُلًّا إلى بيته.

صباح اليوم التالي اجتمعنا في غرفة سلام. سلام يبدو أفضل

حالًا. عندما تحلّقنا حوله أحضرتْ له الممرِّضة بعضًا من مرق الدجاج، أخذه معيوف وبدأ بإطعامه. مارال كانت تتمزَّق غيظًا. بعد الملعقة الثالثة أوقف سلام معيوف وأشار إلى مارال. تقدَّمتْ وبدأتْ بإطعامه بنفسها، فراح يشرب الحساء ويرنو إلى عينيها بِوَلَهٍ وحبٍّ وامتنان. انتعش بعد الطعام وأخذ ينقِّل بصره بيننا، محاولًا أن يجاملنا بصوت لا يكاد يُسمع. فجأةً جمد كلٌّ من في الغرفة، وعينا سلام ازدادتا اتّساعًا. فُتح بابُ الغرفة ودخلتْ أمّ سلام متبوعةً بأمّ معيوف. ألقت التحيّة، واندفعتْ صوب سلام. بعد أن قبّلتْه من وجنتيه وأمسكتْ يديه، ركعتْ إلى جانبه، وراحت تعصر يد سلام وتقبّلها من دون أن تتفوَّه بحرف، ولأوّل مرَّة أرى دمعتين تتدحرجان من عينيْ سلام.

خلافًا لنظامٍ من العادات والتقاليد، عمرُه مئاتُ السنين، حضرتْ أمُّ سلام إلى مكانٍ عامّ واستطاع الرجالُ الغرباءُ رؤيتها. كانت تسطع بهاءً رغم حزنها ولوعتها. مهران جامد ومبهور. معيوف ركض ووقف في زاوية الغرفة وهو يُشيح بنظره. الشيخ حسن أطرق برأسه إلى الأرض.

بعد دقائق طويلة رفعتْ أمّ سلام رأسَها عن يد ابنها. وقفتْ والتفتتْ إلينا. توجَّهتْ بالشكر إلى جميع الحاضرين لوقوفهم إلى جانب سلام في هذه المحنة. ثم وقفتْ أمام مهران ووضعتْ يَدها على صدرها وأحنت رأسها قليلًا:

ـ أنت أبو مارال، وإنْ شاء الله نحن عائلة واحدة. أشكركَ من صميم قلب الأمّ.

تقدَّمتْ نحوي. أمسكتْ برأسي وقبَّلت خدَّيَّ وجبيني:

ـ كيف حالك يا ولدي؟ لم أرك بما يكفي. أريد أن أراك

لأتعرَّف عليك. لقد حكى لي سلام عنك كثيرًا.

أحسستُ أنّني أطفو على موجة من العاطفة الجيّاشة فقلت:

ـ إنْ شاء الله... ولكنّ لي طلبًا عندك.

ـ قل يا ولدي قل. كلّ ما تطلب على الرأس والعين.

ـ أريد ـ إذا سمحتِ ـ أن تجلسي مع الإنسانة التي أريد الزواجَ بها، وأن تقولي لي بعدها تزوّجْها أو لا تتزوّجْها.

لاح ظلُّ ابتسامةٍ على وجهها. نظرتْ في عمق عينيّ نظرةً ثاقبةً أحسستُ أنَّها تخرج من قحف رأسي. بأسًى وتنهيدةٍ قالت:

ـ طيّب يا ولدي... طيّب. ولكنْ أَسرِعْ قليلًا عسى أن تتزوّجا معًا.

وأشارت بيدها إلى سلام.

اقتربتْ بهدوء من مارال، وأمسكتْها من كتفيها وضمَّتها إلى صدرها قائلة:

ـ لم أكن أتصوَّر أنّك جميلةٌ إلى هذا الحدّ. ستذهبين معي الآن. أريد أن أتعرَّف إلى الإنسانة الجميلة التي ستصبح كنّتي.

سارت مارال معها كالمسرْنِمة.

أسبوع آخر وأصبح وضعُ سلام الصحّيّ جيّدًا، يجلس ويأكل ويمشي. أقضي يومي كلّه عنده في المشفى، وقد عبّر مرَّات عدَّة عن شوقه إلى السهرات التي كنّا نقضيها معًا، وأنَّه مسرور لوجود صديق مثلي إلى جانبه. زاره في المشفى الكثيرُ من قيادات الحزب، وقياداتِ أحزابٍ أخرى، وبعضُ المسؤولين الحكوميين، ولكنْ لم تستطع التحرِّيات أن تعرف الأشخاصَ الذين اعتدوْا عليه وعلى مارال. مارال، التي أزالت الضمادَ وطمأنها الطبيبُ إلى أنَّ الأمر قد يحتاج

إلى سنة ولكنَّ الجرح لن يترك أيَّ أثرٍ على وجهها، عادت إلى العمل بجدٍّ من أجل التخرُّج.

انتحى بي مهران جانبًا وهمس لي أنَّه يريد أن يحدِّثني بموضوع مهمّ، واقترح أن يدعوني إلى العشاء في بيته. قلت له إنَّ بيتي أفضل لأنّنا نستطيع التحدُّث بحرِّيّة.

بعد أن جلسنا رفع صدرَه إلى الأمام وابتدأ الحديث. حدَّثني عن هواجسه ومخاوفه، عجزِه عن ترجيح أيٍّ من الطرفين المحتملين اللذين يمكن أن يكونا قد دبَّرا الحادث. ثم أخبرني عن القسِّيس الذي حذَّره من نتيجة هذا الزواج، وهو يعود بأصله إلى بلدة مهران نفسه في أرمينيا. واحتدّ مهران وهو يقول:

ـ يا رفيقي هل تعلم ماذا قال لي؟ قال بالحرف الواحد: يا مهران أريد أن أنصحك، سيقاطعكَ كلُّ الأرمن وستموت ملعونًا في الأرض والسماء. ثم أيُّ مستقبلٍ تؤمِّن لابنتك وأنت تزوِّجها من هذا الذي لا زال يغسل شعرَه ببول الجمال؟! هل تريد لها أن تقضي عمرَها وهي تلتقط القملَ من شعرَه وثنايا ثيابه؟! إذا زوَّجتَ ابنتك من هذا الكافر فإنَّ عظامَ أجدادك المدفونةَ هناك، تحت تراب أرمينيا، سوف تئنُّ وتتوجَّع وتلعنك ليلَ نهار!

تكلّم مهران مطوَّلًا عن هذا الموضوع الذي يقضّ مضجعه. في النهاية أخبرني أنَّه فكَّر في مناقشة الأمر معي، لا من أجل ما حدث حتى الآن بل لما يمكن أن يحدث مستقبلًا:

ـ إنَّ من قام بهذا الاعتداء يستطيع أن يُعيد الكرَّة. ومَنْ يضمن أن ينجو سلام أو مارال أو كلاهما في المرَّة القادمة؟ أخبِرْني يا رفيقي... ماذا نستطيع أن نفعل حتى يتمّ هذا الزواج من دون أن يتأذَّى أحد؟ أعرف أنَّها حربي، وسأخوضُها حتى النهاية، ولكنّني لا

أستطيع الاعتمادَ على أحد! لا أستطيع الاعتماد على عائلتي نفسها. زوجتي، وأنت تعرف كم هي طيِّبة، تعذَّبتْ كثيرًا في البداية حتى أقنعتُها بالموافقة على سلام؛ أمّا الآن فقد دبّ الخوفُ في قلبها بعد الحادث وأخذتْ تتّهمني بأنّني بعنادي سأتسبَّب بمقتل مارال! أمّا ابني فهو رخوٌ مثل أمّه. وحدها مارال تشبهني. أمّا كيڤورك؟ لا... لا... مثل أمّه، ضعيف ورخو.

في نهاية السهرة التي استمرَّت حوالى خمس ساعات أخبرني ما يريد منِّي بالتحديد:

ـ يا رفيقي... أنا وأنت يجب أن نعمل معًا. يجب أن نحميهما من الآن وإلى أن يتزوَّجا ويذهبا إلى بيتهما بأمان. أنا لديّ عملي والكثير من المشاغل. أنت بمثابة الأخ لسلام. أريد منكَ أن تكون كظلِّه، خصوصًا عندما يأتي إلينا في حيّ الأرمن. لقد أمَّنتُ لك مسدّسًا، خُذْ.

أخذتُ المسدّس ووضعتُه في الخزانة بعد أن ودّعتُ مهران.

بقي سلام في المشفى أسبوعيْن. بعد خروجه بحوالى عشرة أيّام كنتُ في بيته، وكانت مارال معنا، نتحدَّث في بعض المسائل الحزبيّة. منذ فترة بدأتُ ألاحظ أنّ سلام في الجلسات الخاصَّة يُكثر من الإشارة إلى الأخطاء المرتكبة من قِبل قيادة الحزب. وهذه الانتقادات كانت تزداد حدَّةً كلَّما صعد في المناصب الحزبيّة. حتى إنَّه عندما عاد من موسكو في المرّة الأخيرة قال عَرَضًا:

ـ إنَّ حزبنا يحتاج إلى تفجيرٍ من الداخل، إلى نسف الكثير من الأشياء والمفاهيم والأشخاص.

حاولتُ حينها أن أستفسر منه، غير أنَّه تجاهل الموضوع وكأنَّه لم يقل شيئًا. ولكنْ في هذه الجلسة في بيته أشار إلى موضوع حسّاس

بالنسبة إليّ. فقد قال لي بجدّيّةٍ بالغة:

ـ يجب ألّا يمضي وقتٌ طويلٌ قبل أن تصبح المسؤولَ الأوّل للإعلام في الحزب!

نظرتُ إليه باستغرابٍ شديد. قلت:

ـ أنا؟

ـ نعم... وماذا ينقصك؟ هل تعتقد أنّ هؤلاء الكراكوزات، فَوق، أكثرُ كفاءةً منك؟ فكِّرْ جيِّدًا، ثم اعملْ على تحقيق هذا الهدف.

لحظتَها دخلتْ أمّ سلام علينا. حيَّتنا وسألتنا بكلّ تهذيب إنْ كانت قد قاطعتنا، فأكَّدنا لها أنَّها لم تقاطعنا أبدًا. كانت جلسة عاديّة استلم فيها سلام دفّةَ أحاديث المجاملات. فُتح الباب ودخلتْ إحدى الخادمات، قالت:

ـ هناك امرأة على الباب الخارجيّ تسأل عن عمّتي مارال.

هبَّت مارال واقفةً تريد الخروج، ولكنّ سلام أمسك يدها وقال للخادمة أن تدع المرأةَ تدخل. عادت الخادمة وخلفها امرأة. قام الجميع ترحيبًا. لثانيتين فقط قلتُ لنفسي إنّني قد رأيتُ هذه المرأة سابقًا. وخلال هاتين الثانيتين كانت مارال قد صرختْ:

ـ لميس!!

بصعوبة حملتني ساقايَ. ترنَّحتُ. صافحتْ لميس الجميعَ، وعانقتْ مارال. وقفتْ أمامي مع ابتسامة عريضة. لاحظتْ جمودي. قالت وابتسامتُها تتحوَّل إلى ابتسامة ماكرة:

ـ وكأنّك غير مسرور بمجيئي. هل تريد أن أعود؟

عندها رحنا في عناق طويل صفَّق له سلام وهو واقف.

رغم تعب السفر كانت لميس جميلةً ومتألِّقةً بكامل زينتها وأناقتها

. زينة وأناقة لم تكن تهتمّ بهما حين كنّا معًا قبل عامين. حمرة خدّيها ؛ادت لأنَّها أصبحتْ أكثرَ بياضًا، وبدت وكأنّها خسرت قليلًا من ،زنها. كان قلبي يخفق بشدّة؛ ولا شكّ في أنّ وجهي كان شديد الاحمرار: فهذه هي المرأةُ التي أحبّ وأريد أن أعيش معها عمري .ه‍لّ

جلس الجميع عدا أمّ سلام. اقتربتْ منّي ومن لميس حيث جلسنا على أريكة مزدوجة. نظرتْ في عينيّ مبتسمةً، فيما هي تتفحَّص لميس. اقتربتْ منها وانحنت فوقها وقبّلتها. سألتني:

ـ أهذه هي الصبيّة التي حدّثتني عنها في المشفى؟

الحقيقة أنَّ الحديث الذي قلتُه لها في المشفى ندمتُ عليه بعد أن تفوّهتُ به؛ فقد أحسستُ وقتها أنَّه محاولة بائسة منّي لتملّق أمُّ سلام، أو حاجةٌ نفسيّةٌ داخليّة لتأكيد انتمائي إلى هذه العائلة التي لستُ مقتنعًا بأنّني أنتمي إليها أو يمكن أن أنتمي يومًا. في العادة يلجأ الشبابُ إلى مشورة أمّهاتهم عند اختيار الزوجات، وعندما طلبتُ من أمّ سلام أن ترى المرأةَ التي أحبّ بدا الأمرُ وكأنّني أقول لها أنت أمّي وأنا ابنكِ. ولكنْ ماذا لو قالت لي الآن إنّ هذه المرأة لا تصلح لك؟ هل سأترك لميس؟ مستحيل!! وقتها، في المشفى، أخذتُ أوبّخ نفسي كما أفعل دائمًا عند ارتكابي للأخطاء: أنتَ شخص غبيّ، انتهازيّ، وصوليّ، متسرّع، متملّق، طفيليّ... باختصار.. أنت خراء.. لا.. أنت كومة كبيرة من الخراء!

طاف كلُّ هذا في ذهني عندما سألتْ أمُّ سلام سؤالَها. ورغم ذلك أجبتُها وأنا أبتسم بثقة:

ـ نعم.. إنّها هي يا أمّي.

أمسكتْ يدي ويدَ لميس وشبكتْهما. ثم وجَّهتْ حديثها إليَّ:

ـ هذه المرأة يمكن أن يسير معها الرجلُ إلى أيّ مكان وهو مغمضُ العينين. على بركة الله يا ولدي. أتمنّى لكما حياةً سعيدة وذرّيّة صالحة.

قالت هذا ثم استأذنت الجميعَ بعد أن دعت لميس إلى زيارتها دائمًا، وعادت إلى جناح الحريم.

نظرتُ إلى لميس بطرف عيني، فرأيت أنّ الابتسامة الدائمة غادرتْ وجهَها. استغلّت حديثَ مارال مع سلام (كانت تقول له إنّ معيوف تأخّر وإنّها قد بدأت تقلق، وكانا قد أرسلاه لإحضار بعض الأشياء من بيت مهران). فالتفتتْ وسألتني:

ـ هل أنت متردّد في عواطفك تجاهي؟ ومَنْ هذه المرأة؟

ـ إنّها أمّ سلام، وهي بمثابة أمّي. لا... لستُ متردّدًا، وإنّما ما فعلتُه نوع من المجاملة.

ـ أم م م ممم! سنرى.

«لقد جعنا ما رأيكم أن نتعشّى؟» قال سلام هذا، وأمر إحدى الخادمات بإعداد العشاء. دخل معيوف ووقف عند الباب. انتبهتْ إليه مارال وسألتْه إنْ أحضر الأغراضَ التي طلبتْها. ظلّ ساكتًا. اقترب منه سلام وسأله:

ـ ماذا يا معيوف؟ ما الأمر؟

ـ لدى العمّ مهران مشكلة. لم يعطوني شيئًا، وقد طلب أن تذهبوا جميعًا عنده.

انتصبتْ مارال واقفةً وانهمرت أسئلتُها على معيوف. أسكتها سلام بأن وضع يده على فمها، وبحزم شديد قال:

ـ ليس الآن وقت الأسئلة. معيوف، جهّز السيّارة.

انطلقنا بالسيّارة. سلام يقود وإلى جانبه مارال. أحسستُ أنّني اصطدمتُ بجسم صلب عندما جلس معيوف إلى جانبي. حرّكتُ يدي، فعرفتُ أنَّ هناكً مسدَّسًا ضخمًا في حزامه. تذكَّرتُ سهرتي مع العمّ مهران ومسدّسَه القزمَ الذي أعطاني إيّاه!

دخلنا بيتَ مهران.

كيڤورك مربوط بحبل رفيع إلى القوائم الخلفيّة للكرسيّ، عيناه حمراوان ومنتفختان من البكاء، وقد ألقى برأسه خلفًا. مهران يجلس أمامه من دون حراك، ويبدو عليه الانزعاج. الأمّ الطيِّبة في زاوية الغرفة متهالكة على كرسيّ ثالث، وهي تبكي بحرقة. نحن الأربعة واقفون على صفّ واحد، وخلفنا معيوف يسيطر علينا الذهول. مارال أوّل من تكلّم وباللغة الأرمنيّة. لم يردّ عليها أحد. تقدّم سلام خطوتيْن حتى أصبح إلى جانب مهران. وبهدوءٍ سأله:

ـ ما المشكلة يا عمّي؟

كلُّ شباب حيّ الأرمن من أصدقاء كيڤورك ومعارفه قاطعوه. الضعفاء منهم، عندما يرونه قادمًا في اتِّجاههم، يملأون فمَهم بصاقًا، ومتى حاذوْه يبصقون أمامه. أمّا الأقوياء والسفهاء فقد كانوا يستوقفونه وبعضُهم يمسك به من صدره ويهزّه:

ـ هل صحيح أنَّ أختك ستتزوَّج من مسلم كافر؟

ـ هذا المسلم الكافر الذي يضاجع أختك كلّ يوم كيف تستطيعون تحمُّل رائحته النتنة؟

ـ هل صحيح أنَّ أختك أصبحتْ عاهرةً لكلِّ شباب المسلمين؟

ـ إذهبْ واقبرْ نفسك؛ فما أنت إلّا شقيقُ العاهرة التي مرَّغتْ شرفَ الشعب الأرمنيّ بالوحل. تفو عليك وعلى كلّ أهلك!

منذ أسبوع استدعاه ربُّ عمله. ناوله بقيّة حسابه باحتقار، وقال

له إنَّه لم يعد يريد أن يراه هنا أبدًا. واليوم استوقفه اثنان من أكثر زعران الحيّ سطوةً وقسوةً. أمسك كلٌّ منهم بيدٍ من يديه ولفَّها خلف ظهره. صرّ أشرسُهما على أسنانه وهو يقول:

ـ إذا كان هذا المسلم الذي أشبع أختَكَ مضاجعةً غنيًّا، وأنت ساكتٌ بسبب هذا، فإنَّ لدينا الآن الكثيرَ من الأموال. اذهبْ وأحضرْ لنا أختك لكي نقضي معها هذه الليلة، وسندفع لك قدرَ ما تريد. لن نتركك قبل أن تَعِدَنا بذلك!

بعد أن تركاه وهو لا يستطيع أن يفعل معهما أيَّ شيء، جاء إلى البيت. ووسط بكاء هستيريّ خيّر أباه وأمّه بين ثلاثة أمور: إمّا أن ينتحر، أو يُلْغى الزواجُ بين مارال وسلام، أو يهاجرَ إلى أميركا ـ وهي فكرة قديمة كان مهران قد رفضها قبل ثلاث سنوات عندما أرسل له أحدُ أقاربه رسالةً يشجِّعه فيها على الهجرة إلى «أرض السمن والعسل.. أميركا» واقترح عليه أن يُرسل كيڤورك أوّلًا «لأنَّ كيڤورك شابٌّ ويتحمّل المشقّة». وبعد أن صرَّح كيڤورك بخياراته الثلاثة قَرَنَ القولَ بالفعل، فصعد إلى سطح المنزل يريد أن يلقي بنفسه إلى الأرض لينتحر، لولا أن أدركه معيوف بسرعة القطّ وأنزله، ثم أعان مهرانَ على ربطه!

تقدَّم سلام من كيڤورك وفكَّه، ثم طلب من مارال أن تأخذه ليغسل وجهه.

أثناء خروج كيڤورك همس سلام في أذن معيوف بضعَ كلمات، فخرج مسرعًا. بعدها توجَّه بالكلام إلى مهران بصوت خافت طالبًا منه الموافقة على سفر كيڤورك إلى أميركا لأنَّه الحلّ الوحيد المُتاح لهذه المشكلة. ثم قال:

ـ أعطه فرصةً ليبني مستقبله. قد ينجح.. وإذا فشل فسيعود إلى

هنا وقد اكتسب خبرةً من سفره.

مع موافقة مهران بهزَّة من رأسه، طلب منه سلام بلهجة مرحة أن يقوم بصبّ العرق «لأنّنا لم نشرب منذ زمن طويل».

عاد كيڤورك بصحبة مارال. جلسنا جميعًا إلى الطاولة. مسحت الأمّ دموعها بعد أن عرّفهم سلام إلى لميس، التي تقدَّمتْ نحو كيڤورك وحضنتْ رأسَه وهي تعبث بشعره بحركة فيها الكثير من الأمومة. وببضع كلمات أفهمتْه أنَّ الجميع سيساعده للسفر إلى أميركا.

عندما عاد معيوف حاملًا الكبابَ واللحمَ المشويَّ وبقيّةَ الأطعمة الحلبيّة اللذيذة ومُدَّت المائدة، زال التوتُّر السائد وأصبح الحديثُ أقربَ إلى الأحاديث العاديّة بعد أن قال سلام لكيڤورك:

ـ غدًا صباحًا ستذهب إلى دمشق. هناك ستجد شخصًا ينتظرك. خلال شهر ستكون أمورُك كلُّها جاهزةً للسفر إلى أميركا. عندها إذا أردت أن تعود لتودِّعنا فتعال؛ وإذا أردت أن نأتي نحن إلى دمشق لنودِّعك فسنأتي.

دخلتُ ولميسَ البيتَ بعد أن أوصلنا سلام بسيّارته. وما إنْ أغلقت البابَ حتى قالت لي بحدّةٍ، وقد رفعتْ سبّابتَها اليمنى في وجهي محذِّرةً:

ـ إيّاك أن تقترب منّي. أنت وغد ونذل! لماذا أرسلتَ لي برقيّة «أنا بانتظارك» إذا كنتَ متردِّدًا في الارتباط بي؟ لماذا تطلب موافقة أمّ سلام على ذلك؟ تركتُ كلَّ شيءٍ من أجلك وأتيتُ إلى هنا، ثم أجد أنَّ مصيري معلَّق بكلمة من أمّ سلام؟! وقبل كلّ شيء، مَنْ قال لك إنّني أَقْبل أن أتزوّجك؟! إنَّ نجوم السماء أقرب إليك منّي. ابتعدْ... ابتعدْ!

كانت تردِّد كلمة «ابتعدْ» وتدفعني من صدري لأنّني اقتربتُ منها

محاولًا ضمَّها إليّ. وعندما رأيتُ غضبَها جمدتُ في مكاني، ويدُها ما زالت على صدري. وقفتُ أحدِّق بعينيْها. انفجرتْ بضحكةٍ صاخبةٍ وهي تتعلَّق برقبتي وهمستْ:

ـ أنا تعبة جدًّا. عشتُ كلّ الفترة الماضية بما يشبه المستنقع الراكد والبليد. واليوم، خلال ساعات، عشتُ وسط عاصفة سلام ومارال وكيڤورك! والخبر السيِّئ: أنّني في أيَّام الدورة الشهريّة، ولكنّني لن أغفر لك ما قلتَه لأمّ سلام.

رغم هذا نمنا معًا في سريري العريض، الذي اشتراه لي الشيخ حسن. ولأوَّل مرَّة أشعر أنَّ هذا السرير يعبق بالأنس والحبّ ورائحة المرأة التي أحبّ.

قبل أن ينتهي الشهر الذي حدَّده سلام كان كيڤورك قد أصبح في أميركا. لكنْ قبل سفره جاء لوداعنا. الجميع كان مسرورًا بالنتيجة، ما عدا الأمّ التي سكنتْ عينَيْها نظرةُ انكسار، نظرةٌ فيها الكثيرُ من الحزن واللوم والعتاب، محمِّلةً مهرانَ وسلام أمرَ فقدانها لولديْها كما قالت مرَّة: واحد في أميركا لا تعرف كيف سيعيش، وأخرى سيأخذها سلام ويذهب.

منذ سفر كيڤورك إلى دمشق وعودته للوداع، عشنا أنا ولميس في عزلة تامّة. كانت أيَّامًا للحلم والحبّ. أثناء عودتنا من وداع كيڤورك مشى سلام بيني وبين لميس وسأل مازحًا:

ـ ألم ينتهِ شهرُ العسل بعد؟ لقد اشتقنا إليكما. نفكِّر في زيارتكما اليوم، وسيكون أصلان معنا، وكذلك العمّ مهران وزوجته ـ علّها تغيِّر جوَّ الحزن قليلًا.

ـ أهلًا وسهلًا بكم جميعًا، هكذا أجبنا أنا ولميس معًا.

كانت سهرة لطيفة استطاع مهران فيها أن يجعل زوجته تضحك

مرّتين، واعتبرَ هذا الأمرَ انتصارًا. أصلان تعرَّف إلى لميس، واعترف بأنّه يغار منّا، وأنّه يفكِّر جدِّيًا بإيجاد زوجة، واشتكى من أنَّ الفتيات لا يهمّهنّ جوهرُ الإنسان، ولذلك لا يلتفتن إليه. وفي ما كانوا يغادرون تأخَّر سلام خطوتين، ووجَّه حديثَه إليّ وإلى لميس:

ـ بعد فترةٍ قد لا تتجاوز عشرة أيَّام، سنجلس في بيت مهران للاتّفاق على تفاصيل العرس، وأتمنّى أن تكونا موجودَيْن لمساعدتنا في هذا الأمر.

بعد ذهابهم، وفيما كنّا نرفع بقايا الطعام والشراب، سألتني لميس ألفَ سؤال: من هو أصلان؟ ما قرابَتُه إلى سلام؟ لماذا قال أصلان إنَّ الإخوة الثلاثة، هو وسلام وأنت، يجب أن يتزوَّجوا في يوم واحد؟ منذ متى وأنت أخٌ لسلام، علمًا أنَّه عندما أتى إلى المطبعة لم تكن تعرفه؟ وبعد شرح دام أكثر من نصف ساعة سألتِ السؤالَ الذي كنتُ أخشى أن تسألني إيَّاه:

ـ هذا البيت الذي نسكن فيه، لمن تعودُ مِلْكيَّتُه؟ والنقود التي نصرفها، من أين تأتي؟

لم أكن أريد السكوتَ طويلًا حتى لا ترتاب، ولكنّني كنتُ بين نارين: فإذا كنت صريحًا فسوف تنظر إليّ باستصغار، كشخص طُفَيْليّ يرضى بأن يعيش على موائد الآخرين ومن فضلاتهم، وقد يحدث شرخٌ كبيرٌ في علاقتنا، هذا إذا لم تنتهِ عندما تفقد احترامَها لي؛ والخيار الثاني هو أن أخفي عنها ما يجب إخفاؤه. لكلّ هذا آثرتُ الكذب:

ـ البيت هو لآل الشيخ، وقد أعاروني إيّاه إلى أن أستطيع تأمينَ بيت بديل. أمَّا النقود فأنت تعرفين أنّني أعمل في الصحافة الحزبيّة، وراتبي كصحفيّ متفرِّغٍ يكفينا ويزيد.

في اليومَ التالي لهذه الكذبة أخرجتُ صكَّ ملكيّة البيت المسجَّل

باسمي وذهبتُ عند سلام. ناولتُه إيَّاه وقلتُ له إنّني أريد أن أسجِّل البيتَ باسمه. حدَّق باستغراب وقال: لم أفهمْ شيئًا! ولست مهيَّأً للفهم. اتركْ هذا الصكَّ هنا، وعندما ننتهي من كلّ هذا نعود إلى مناقشة الموضوع. الآن لدينا ألفُ عملٍ وعمل.

من الأحاديث المتناثرة من مهران وسلام، وإلى حدٍّ ما مارال، لمستُ أنَّهم يخطِّطون لأن يكون العرسُ معركةَ تحدٍّ. ولهذا يريدون حفلةَ عرسٍ كبيرة، تكون بمثابة صفعةٍ موجَّهةٍ إلى كلِّ الأطراف، بما فيها الكنيسة، أو ربَّما الطائفة الأرمنيّة برمّتها. وقد بلغ الأمر بمهران في لحظةٍ عصبيّةٍ أن صرَّح أنَّه إذا احتاج الأمر ـ ورغم أنَّه غير مؤمن بأيِّ دين ـ فإنَّه مستعدّ لأن يعلن إسلامَه.

صباح يومٍ صيفيّ حارّ كنتُ أجلس ولميس بلباس النوم الخفيف في الصالة نشرب القهوة الصباحيّة. رنَّ جرسُ الباب. فتحتُ الباب، وإذ بمعيوف:

ـ عمِّي الشيخ عبد الهادي يريد أن يشرب القهوة عندك، وهو قادم الآن.

صُعقتُ وارتبكتُ. هرعتُ إلى داخل البيت. سحبتُ لميس من يدها إلى غرفة النوم طالبًا منها أن تلبس ثيابًا محتشمة، وابتدأتُ ألبس ثيابي بسرعة. لميس تسأل وهي ترتدي الثياب: ماذا؟ ما الأمر؟ أقول لها إنَّه الشيخ عبد الهادي. من هو هذا الشيخ؟ إنّه والد سلام. ما به؟ إنَّه قادم لزيارتنا. وهل زيارتُه تستدعي كلّ هذا؟ سأشرحُ لكِ فيما بعد. وعندما رنَّ جرس الباب مجدَّدًا كنتُ أخرج من غرفة النوم مرتديًا ثيابي.

إذ كنّا في وسط الصالة أدعو الشيخ إلى الجلوس، أتت لميس وحيّته. حيّاها واضعًا يدَه على صدره، في حركةٍ فَهمتْ منها لميس أنَّه

لا يصافح النساء. ذهبتْ لميس لإعداد القهوة العربيّة فقال:

ـ أريد أن أكلّمك على انفراد.

دخلنا غرفةَ المكتب التي أعمل فيها بعد أن أخذتُ القهوةَ من يد لميس وأنا أغمز لها بعيني.

ـ اسمع يا بنيّ. لن أُطيل عليك. أنا لست متنبّئًا، لكنّني أرى شرًّا كبيرًا ينتظر سلام ومارال، عندما تصبح زوجته. ورغم أنَّ مهران وسلام عاقلان فإنّهما الآن ـ وبدافع الغضب والكرامة ـ يتصرّفان بحماقة وتهوّر! لا أريد أن أتدخَّل في مسائل كهذه، إلّا إذا اضطررتُ إلى ذلك. أنت صديق وأخ لسلام. أريد منك أن تقنعه بأسلوبك. أقنِعْه بأمرين. الأوّل هو عدم إقامة أيّ عرس، لأنّهما سيكونان في مواجهة شعب كامل؛ فبالإضافة إلى أنَّ الشعب الأرمنيّ شعب شجاع وطيّب، فإنّه في المقابل يحتوي على مختلف فئات البشر: فيهم العاقل وفيهم المجنون، فيهم الرجل الكبير الحكيم وفيهم الشابّ المندفعُ المتهوِّر. هل أنت معي يا بنيّ؟

هززتُ رأسي موافقًا. أكمل:

ـ أمّا الأمر الثاني فهو محرج ودقيق. أنت تعرف يا بنيّ أنَّ العائلات عندما تتصاهر تزداد تقاربًا، وأنا أرى أنَّ عائلة مهران ستصبح حُكْمًا من أكثر الناس قرابةً لنا بعد قرابة الدم. وهو رجل مسكين وفقير، وستزداد حالُه سوءًا بعد أن قاطعه أكثرُ زبائنه وهم من الأرمن. ونحن كما ترى قد أنعم اللهُ علينا من خيراته. صحيح أنّهم ليسوا على ديننا ولكنْ «كلّ على دينه الله يعينه»، والأقربون أوْلى بالمعروف. أعتقد أنَّ سلام لديه رغبة بمساعدتهم ولكنّه لا يعرف كيف يفعل ذلك من دون أن يجرح كرامة عمِّه مهران. إذًا حاوِل أنت وسلام إيجادَ الطريقة المناسبة. هل كِلَا الأمريْن واضح يا بنيّ؟

ـ نعم نعم يا عمِّي الشيخ، وأدعو الله أن يُطيل عمرَكَ وأمثالك.

كانت المهلة المعطاة لي لأغيِّر رأيَ سلام قصيرةً جدًّا. استطعتُ أن أؤثِّر قليلًا لكنَّ الرأيَ الأساسَ لم يتغيَّر. عندما اجتمعنا لتحديد تفاصيل العرس كان الأمر أشبه بمحاضرة تحريضيّة: «سوف يكون العرس في أكبر صالة للأفراح موجودة في حيّ الأرمن. الزينات، الموسيقى، الطبول، الراقصات... سنردّ على هؤلاء الكلاب بما يليق بهم وسنريهم مَن نحن...».

بعد أن هدأ المزاجُ قليلًا قلتُ موجِّهًا كلامي إلى مهران وسلام:

ـ في العادة، وقبل تحديد المكان، يجب أن نحدِّد المدعوّين. أكبر صالة تحتاج إلى أناس يملأونها. والآن أمسكوا ورقةً وقلمًا وحدِّدوا المدعوِّين. أنا أعرف أنْ لا أحد من الأرمن سيحضر، بمن فيهم الرفاق الحزبيُّون، وتعرفون أنّنا الآن في حيِّ الأرمن. كذلك أعرف أنْ لا أحد من الخالديّة سيحضر لأنّه عرس مختلط والنساء فيه سافرات. من هم المدعوُّون الذين سيحضرون هذا العرس إذن؟ اكتبوا لائحةً اسميّة.

شغلتْهم هذه المسألةُ قليلًا وبرَّدتْ من اندفاعهم. لكنّ مهران عاد إلى إصراره. استمررتُ في محاولاتي غير المباشرة لإفشال مشروع الحفلة الضخمة، ولكنّني لم أنجح. كان الأمر بحاجة إلى طرف أقوى منِّي بكثير. وقد أتى هذا الطرف. في الجلسة لا أدري كيف برز معيوف وأعلن أنَّ الشيخ عبد الهادي سيأتي بعد نصف ساعة.

فوجئ مهران بوالد سلام. تذكّر زيارته في المشفى، واعتذر منه لأنَّه لم يكن يعرفه، وبالتالي لم يرحِّب به كما يليق. الأمّ أحضرت القهوة ووزّعتها على الحاضرين، واضعةً أوَّلَ كوبٍ أمام الشيخ. دعا مهران الشيخ لشرب القهوة:

ـ تفضَّل يا أبا سلام.

مدّ الشيخ يده ودفع بالطبق والكوب إلى وسط الطاولة، وقال بهدوء:

ـ لا أشرب قهوتكم إلَّا بعد أن تلبُّوا طلبي.

نظر مهران إلى الشيخ مستغربًا. وضع سلام يده على كتف مهران وكأنَّه يخشى أن لا يكون يعرف هذه العادة أو لا يستجيب لطلب والده. مارال ولميس تنقّلان نظرهما بين الحاضرين غير عارفتيْن بشيء. بعد صمت ثقيل رفع مهران رأسه، وبابتسامة مستغربة وصادقة قال:

ـ ولكنْ يا أبا سلام نحن وافقنا على كلّ طلباتكم، وابنتنا أصبحت ابنتكم!

ـ هذا صحيح... وسنكون لها نعمَ الأهل. ولكنْ هناك طلب أخير عندي.

ـ قل ما هو يا أبا سلام، وكلّ طلباتكم مستجابة وحسب إمكانيّاتنا.

ـ طلبي هو: أن نكتب كتابَ سلام ومارال غدًا بصمت، ومن دون أيّ احتفالٍ أو عرس، وأن يذهبا إلى حيث يريدان لقضاء شهر العسل.

ـ من دون احتفال أو عرس؟!

ـ نعم.

صمت مهران طويلًا. انتبه الجميع إلى أنّ ضغط يد سلام على كتف مهران قد ازداد. التفت مهران صوب الشيخ وقال:

ـ كما تريد يا أبا سلام. وهل يمكن أن نرفض لكم طلبًا؟!

شرب أبو سلام قهوته واستأذن، واتّفقنا على أن نلتقي غدًا على الإفطار في بيت سلام للذهاب إلى المحكمة وإتمام إجراءات الزواج.

وفيما نحن على الإفطار في اليوم الثاني سألتْ لميس:

ـ عندما نذهب إلى المحكمة لكتابة عقد الزواج، هل من المفروض أن تعلن مارال اعتناقها الدينَ الإسلاميّ؟

أجاب سلام:

ـ لا ليس ضروريًا. فالإسلام سمح للمسلمين بأن يتزوّجوا مسيحيّةً أو يهوديّةً، وتبقى على دينها.

ـ وماذا لو كان العكس؟

ـ في هذه الحالة يجب على الزوج أن يعلن إسلامه.

أظهرتْ تعابيرُ وجه لميس الامتعاضَ، وسألتْ باستنكار:

ـ ولماذا هذا التمييز؟

لم يجبها أحد، وتهيَّأْنا للانتقال إلى المحكمة. وبعد أن وقفت خطر لي خاطر. تمعَّنتُ بلميس مليًّا، فالتفتتْ إليَّ تسألني لماذا أنظر إليها هكذا؟ صمتُّ قليلًا وسألتها:

ـ ما دمنا سنذهب جميعًا الآن إلى المحكمة، ما رأيك أن نكتب كتابنا نحن أيضًا؟

هلَّل الجميعُ لهذه الفكرة وصفَّق لها سلام وهو يصرخ:

ـ نعم... نعم إنّها فكرة رائعة. سنسجِّل زواجين بدلًا من واحد.

كان الجميع ينظر تجاه لميس، ويبدو أنَّ مارال بحسِّها الأنثويّ استشعرتْ شيئًا في الأفق. قالت وهي تمطّ كلماتها:

ـ لكنَّنا لم نسمع رأيَ لميس في الموضوع!

كانت لميس تجلس على إحدى الكنبات الوثيرة والعريضة باسترخاء. عندما سمعتْ سؤال مارال اعتدلتْ قائلةً:

ـ أنا لا أريد أن أكتب كتابي على أحد، لا الآن ولا في المستقبل!

هبط سلام جالسًا على أحد المقاعد. مارال اتَّسعت عيناها دهشةً. ساد صمت ثقيل. سألتْ مارال:

ـ لكنْ إذا كنتِ لا تريدين أن تتزوّجيه فلماذا تعيشان معًا؟

تنهَّدتْ لميس وتوجَّهتْ بالحديث إليّ:

ـ أنت تعرف رأيي في هذا الموضوع منذ أوَّل يوم. أنا لا أؤمن بما يُسمّى «عقد زواج». ثم إنّني أعتبره وكأنَّه صكّ يملك فيه الرجلُ المرأةَ في هذه المجتمع الذكوريّ. وأكثر من هذا... الرجل في مجتمعنا مثل الطفل الذي يظلّ يبكي حتى يشتري له أهلُه اللعبةَ التي أحبَّها كثيرًا، ولكنْ بعد نصف ساعة من امتلاكه إيّاها يلقي بها جانبًا أو يحطِّمها. وبصراحة يا سيِّدي العزيز... أنا لا أريد أن أصبح ملْكًا لك حتى لا تلقي بي جانبًا أو تحطّمَني.

أنهت كلامها ثم وقفتْ وهي تسوِّي ثيابها. بدأ الجميع بالوقوف، وسلام يقول:

ـ الحقيقة أنَّها وجهة نظر مهمّة! ما رأيك يا مارال أن نلغي عقد الزواج حتى لا ألقي بك جانبًا أو أحطِّمك؟

ضحك الجميع ومارال تقول إنَّ الآوان قد فات.

بُعَيْد الظهر أنهينا كلّ شيء. خرجنا أنا وسلام لتأمين ما يلزم للسفر إلى اللاذقيّة حيث سيقضيان شهر العسل. وحال انتهائنا قال سلام:

ـ تعال لندخل هذا المطعم؛ فهو أفضل من يحضّر الباذنجان كباب في حلب، والحلبيُّون أفضل مَن يحضّر الباذنجان كباب في العالم.

بعد أوَّل كأس من العرق الحلبيّ، سألني سلام بين التعاطف والإشفاق:

ـ هل أنت حزين؟

ـ ولماذا أكون حزينًا؟!

ـ الأمر واضح... لا داعي للمكابرة فنحن أَخَوَان!

ـ لا أستطيع أن أقول إنّني حزين، لكنّني أعتقد أنَّ لميس لا تحبّني.

تابع سلام الأكل. عندما شبع رجع بظهره إلى الخلف، قال وهو يرتشف رشفةً من كأسه:

ـ لا أدري ماذا أقول؛ فمسائلُ كهذه لا تنفع معها النصائح. ولكنْ ما رأيك أن تجرِّب شيئًا؟ فقد تنجح حيث فشلتُ!

ـ وضِّحْ لي الأمر من دون ألغاز أو غموض.

ـ حين كنتُ في الرابعة عشرة من عمري، سمعتُ من المريدين والخدم عن القدرات التي يتمتَّع بها والدي الشيخ عبد الهادي، وأردتُ بخيالي أن أصبح من أهل «الخطوة» الذين يستطيعون أن ينتقلوا إلى أيِّ مكان بالعالم بخطوةٍ واحدةٍ. وانتظرتُ إلى أن كنّا مرَّةً وحدنا وهو يسألني بمحبَّة الأب، التي لا يُظهرها إلَّا نادرًا، عن أحوالي، فقلت له:

ـ يا أبي أريد أن أصبح مثلك.

ـ إن شاء الله ستصبح أفضلَ منِّي وأعلم منِّي.

كنت أعرف أنَّه لا يحبِّذ الكلام في موضوع قدراته، وإذا سُئل فهو ينكر ذلك جملة وتفصيلًا. لذلك لم أكن أستطيع في السابق أن أسأله مباشرةً. قلت له:

ـ أنا ابنك، ولا أريد أن أكون كسائر الناس. أريد أن تكون لي بعضُ القدرات الخاصّة، مثل إمكانيّة الوجود في مكانين متباعدين في لحظة واحدة.

ـ تستطيع أن تفعل ذلك!

ـ إذن علِّمني!

ـ اسمع يا بنيّ. هذه الأمور لا تأتي من خلال التعليم. عليك أن تعلِّم نفسَك بنفسك، والأمر لا يحتاج إلّا إلى الإيمان والإرادة.

ـ الإيمان والإرادة؟ ولكن أنا أؤمن بالله إيمانًا قويًّا!

ـ ليس الإيمان بالله كما هو معروف. المطلوب أن تؤمن بنفسك، وإذا آمنتَ بنفسك فقد آمنتَ بالله.

وتابع سلام كلامه:

ـ الحقيقة يا صديقي أنّني إلى الآن لم أفهم كلام أبي، ولكنّني تغاضيتُ عن المسألة الأولى لأسأل عن الثانية. فقلت لأبي:

ـ وماذا عن الإرادة يا أبي؟

ـ هو أن تنسى كلّ شيء في الدنيا إلّا الشيء الذي تريده. إذا كنتَ مؤمنًا بنفسك إيمانًا قويًّا، وأردتَ شيئًا بإرادةٍ قويّةٍ ومركَّزةٍ في بؤرة هذا الشيء، فسيتحقَّق!

كنت أنتظر أن يُتمّ سلام كلامَه، لكنَّه سكت، فسألته:

ـ ماذا تريد أن تقول لي؟

ـ يا أخي.. أنت تريد أن تحبَّكَ لميس، إذن عليك أن تؤمن

بنفسك إيمانًا قويًا، ثم ركّزْ إرادتك عليها بقوَّة. أعتقد أنّك قد تنجح حيث فشلتُ أنا! لقد حاولتُ كثيرًا منذ أن قال لي أبي هذا الكلام، ولكنّني لم أنجح قطّ. قد يكون السبب هو ضعف الإيمان، وقد يكون عدم قدرتي على تركيز إرادتي على ما أريد بالقوَّة المطلوبة. على كلٍّ، فكِّرْ في ما قلته لك.

ضحكتُ وأنا أهزّ رأسي. قلت له:

– من يشاهدك وأنت تتحدَّث بهذه الجدِّيَّة عن هذا الهراء يظنّ أنَّك مصاب بلوثةٍ ما!

بعد شهرين تقريبًا، وكانا قد بقيا في اللاذقيّة شهرًا كاملًا، جاءني سلام إلى البيت وسحبني إلى غرفة المكتب. ناولني ورقة مطويّة ومدعوكة قليلًا ثم انهدّ على الكرسيّ. فتحتُ الورقة وبدأتُ أقرأ: إنَّها رسالة من مريم أو ماريا اليوغسلافيّة!

بعد انتزاعها بالقوَّة من الخالديّة وعودتها مع أبيها إلى بلدهما، بقيتْ أكثرَ من شهر تبكي في غرفتها التي جعلها والدُها أشبهَ بالسجن. سمعتْ ماريّا أنَّ أحد تلاميذ والدها ينوي الذهاب إلى الخالديّة طلبًا للعلم، فكتبتْ رسالةً إلى سلام، وبحيلٍ شتّى استطاعت إعطاءها التلميذَ بعد أن جعلته يُقسم أغلظَ الأيمان بالمحافظة على الرسالة وإيصالها إلى عبد السلام مهما كلَّف الأمر.

وبسبب خطإٍ ما في أوراقه فقد منعتْه السلطاتُ الأمنيّةُ السوريّة من دخول البلاد. ولأنَّه سأل الشيخَ عن أهمّ مراكز آل الشيخ المنتشرة عبر العالم، فقد أجابه أنّ الأفضل هو في الخالديّة، ثم عدَّد له عدَّة مراكز، من بينها مركزٌ لآل الشيخ في أحد نواحي ماليزيا. لذا قرَّر التلميذ أن يذهب إلى ماليزيا، حيث أمضى سنتين ثم تزوَّج، وأنجب ثلاثة أولاد. بعدها قرَّر أن يعود إلى بلاده ليتعرّف إليها أولادُه. عند وداع شيوخ آل

الشيخ ذَكَرَ لهم عَرَضًا أنَّه يتمنَّى لو يستطيع زيارةَ الخالديّة ولقاءَ الشيخ عبد الهادي، فأرسلوه مع عائلته إلى مركز لآل الشيخ في تركيا، وبعد يومين كان يعبر الحدود إلى الخالديّة.

شهرًا كاملًا لازم الشيخَ عبد الهادي. صدفةً دخل عبد السلام إلى المجلس، وكان في زيارةٍ إلى الخالديّة. حين تعرَّف إليه التلميذُ اليوغسلافيّ تذكَّر الرسالة التي كان قد نسي أمرَها كلِّيًا، وتذكَّر قَسَمَه أمام ماريًا، فاستأذن من الشيخ وهرول والخجلُ يغمره! بقي أكثر من ساعتين، تساعده زوجته، وهما يفرغان الحقائب، إلى أن عثر عليها وقد دُعكتْ قليلًا في جيبٍ من جيوب سترةٍ قديمة. عاد إلى المجلس فوجد أنَّ سلام قد غادر، فلحقه إلى القصر وأدركه وهو يهمّ بركوب السيّارة ليعود إلى حلب. سلَّمه الرسالة... وها هي الآن بين يديّ أقرأها بتمهّل وأراقب سلام الذي أسند رأسه خلفًا وهو مغمض العينين.

الرسالة مكتوبة بالخطّ النسخيّ القرآنيّ الجميل والأنيق، وجميعُ حروفها مشكّلة ومرسومة بدقّة:

«ابْنُ عَمِّيَ العَزِيز... عَبْد السَلَامْ...».

تشرح له في البداية كيف انتزعوها من الخالديّة انتزاعًا. تعترف له بأنَّها في البداية لم تأخذ علاقتهما على محمل الجِدّ، ولم تكن تعرف أنَّها أحبَّته كلّ هذا الحبِّ إلَّا بعد مغادرتها للخالديّة وبتلك الطريقة: «يا سلام، أحسستُ أنّني تركتُ روحي في الخالديّة... و... أنت الرجل الوحيد الذي أحببته...». ثم تعود لتشرح له معاناتها وسجنها، وتذكِّره ببعض ما جرى لهما من مغامرات. وفي النهاية تقول: «إذا كنتَ تحبّني كما أحببتك فأنا بانتظارك... ولا يهمّ فارقُ العمر البسيط بيننا... لن أدع أحدًا غيرك يلمسني... ولكنْ عليك الإسراع...».

طويتُ الورقة واسترخيتُ في جلستي أراقب سلام مغمض العينين، تتقاذفني عشراتُ الخواطر والأفكار. الصدفة الغبيّة التي تلعب بمصائر البشر! هناك في سراييفو موظّفٌ ما، قد يكون غبيًّا، قد يكون مستعجلًا أمرًا ما، قد يكون أخطأ في أوراق سفر التلميذ، وهذا الخطأ أدّى إلى أن تجوب الرسالةُ نصفَ العالم وتصل متأخّرةً دزينةً من السنوات! ماذا لو وصلتْ في وقتها؟ وأيُّ طريق كان سيرسم مسيرةَ حياة سلام؟ ومريم التي كانت متيقّنة أنَّ فارس أحلامها سيهبّ مسرعًا إليها لينتزعها من الجحيم ـ كما وصفته ـ ويعودَ بها إلى الخالديّة وإلى النهر الكبير الجافّ والكهف الظليل. . . ماذا فكّرتْ عندما مرّت الأيّامُ ولم يصل أيُّ جواب؟ أيّ إحباطٍ عاشته؟ وماذا جرى لها بعد ذلك؟ أين هي الآن؟

ببطء شديد رفع سلام رأسه. وببطء شديد فتح عينيه وهو يرفع نفسه. نظر إليّ نظرةً ساهمةً طويلة، وبدأ الكلامَ وكأنّه يحدّث نفسه:

ـ منذ أكثر من أسبوع وصلتني هذه الرسالة. عندما أعطاني إيّاها الرجل الذي لا أعرفه، وكنت خلف مقود السيّارة، لم أفتحها، وسافرتُ إلى حلب. في البيت قرأتها. ارتجّ كياني كلّه. لقد استيقظتْ! استيقظتْ مريم في داخلي. أنا أحبّ مارال وأحترمها كثيرًا. . . ولكنّني أعشق مريم! أعشقها كلّها وبكلّ تفاصيلها. ما زلت أذكر كلّ تفاصيل جسدها وثنياته وأتمنّى أن أمرّر شفتيّ على هذه التفاصيل والثنيات. ولكنْ ليس هذا المهمّ. أنا في ورطة يا أخي. منذ أن استيقظتْ مريم في داخلي لم أعد أستطيع النوم مع مارال! كنّا نمارس الجنسَ بشكل شبه يوميّ، ومنذ ثمانية أيّام لم ألمسها! أتدري لماذا؟ لأنّني أخاف. أخاف أن تحلّ مريم مكانَ مارال فيما أنا أمارس الجنس مع مارال. . . أن تحلّ صورةُ مريم وتفاصيلُ مريم مكان وجه مارال وتفاصيل مارال!

إنّني أحبّ مارال وأحترمها كثيرًا، ولكنّني أعشق مريم بكلّ جوارحي ومسامات جسدي، ولا أريد أن يداخلني أيّ شعورٍ ولو كان بسيطًا بالخيانة.

لاحقًا لم أسأل سلام كيف حلّ هذه المشكلة، ولا هو بادر بإخباري شيئًا. ولكنّ الأمر برمّته احتاج إلى أكثر من خمس سنوات أخرى كي ينجلي. كنّا حينها في وارسو، حين فاجأني ونحن على شفير السفر إلى دمشق في صباح اليوم التالي، بقوله:

ـ هل ترغب في أن ترافقني في زيارة سريعة إلى سراييڤو؟

حدّقتُ به طويلًا واكتفيتُ بضحكة صغيرة.

بقينا ثلاثة أيّام في سرايڤو. وبعد ظهر اليوم الثاني دخل غرفتي وبيده ورقةٌ صغيرة، وبصوتٍ خافتٍ قال:

ـ هذا هو عنوانها، هي في إحدى ضواحي سراييڤو. لديها ثلاثة أولاد. أرغب في رؤيتها ولكنّني خائف!

وبقي صامتًا حتى منتصف اليوم التالي. وعلى الغداء، قال بحزم:

ـ دعنا نرجع إلى البيت.

## (١٢)

– إنّهما ولداي، ولن أسمح لأيٍّ كان بأن يربّيهما. سيعيشان هنا مع أبيهما وأمّهما كما يعيش كلُّ أطفال العالم. لن يذهبا من هنا، وهذا قراري النهائيّ.

هكذا قالت مارال، بتصميم وعناد وصوتٍ مرتفع. نظر إليها سلام، وقال بحدّة غير معهودة منه:

– لكنَّه الاتِّفاق! لقد سبق أن وافق الجميع، بمن فيهم أنت، على الشرط الذي وضعه والدي قبل زواجنا. قال: «أولادكم يعيشون ويتعلَّمون هنا في الخالديّة!» فلماذا تتراجعين؟

لم تجب مارال وخرجتْ من الغرفة التي كنّا نجلس فيها نحن الأربعة.

أكثر من أربع سنوات مضت على زواج سلام ومارال، وعودةِ لميس إلى العيش معي. لم نختلف أنا ولميس على شيء أبدًا. المرح هو صفتها الرئيسة، وهي إلى الآن قادرة على رواية نكاتٍ جديدة لم نسمع بها سابقًا. وجهات نظرنا تختلف فقط في مسألتين أساسيّتين: الزواج والأولاد. ورأيها واضح وحاسم: هي لا تريد زواجًا رسميًّا أو قانونيًّا أو دينيًّا، وتقول: «أنا لا أحبّ الأولاد فلا تطلب منّي الإنجابَ

أبدًا. وإذا كانت هذه المسألة مهمّة بالنسبة إليك فأخبرْني لكي أخرجَ من حياتك بعد أن أُزَوِّجَكَ بامرأةٍ أخرى مستعدَّة لأن تُنجب لك أولادًا». وأنا لم أطلب منها مطلقًا أيًّا من الأمرين.

سلام ومارال على العكس من ذلك: حياتُهما مليئةٌ بالمشاحنات التي غالبًا ما تكون صغيرةً وتنتهي في يوم أو يومين، ولكنَّها أحيانًا كبيرة حتى يبدو المشهد وكأنَّهما وصلا إلى طريق مسدود. بدأ أحد هذه الخلافات بُعَيْد زواجهما، وكانت لأسباب ماليّة؛ ولكنْ، على عكس ما يختلف عليه الناسُ عادةً، حين يحاول كلُّ طرف أن يحقِّق مكاسبَ مادِّيَّةً على حساب الطرف الآخر.

أوصلتُ لسلام رغبةَ والده في أن يساعد مهران وعائلته مادِّيًا بطريقة لبقة. أخبرني أنَّه يفكِّر في الأمر منذ زمن طويل، ولكنَّه لا يعرف كيف يفعل ذلك من دون أن يجابَهَ بالرفض أو يكون الأمر ماسًّا بالكرامة. وقد فوجئ عندما أخبرتْه مارال أنَّها ستعمل في أحد مستشفيات المدينة بعقد موقَّت إلى حين تجهيز عيادتها الخاصَّة. وأبدى رفضه لفكرة عملها من الأساس. نظرتْ إليه بإمعان وتركيز، وقالت:

ـ سلام... أحيانًا لا أعرفك! تبدو لي غيرَ سلام الذي أعرفه!

ـ إنّني أسأل سؤالًا جادًّا. قولي لي: ما حاجتك إلى العمل؟

ـ لأنَّ العمل في حدِّ ذاته قيمة وهدف، وبه يتحقَّق وجودُ الإنسان. أليس هذا ما نردِّده نحن وكلُّ الرفاق دائمًا يا رفيق سلام؟

قالت هذا بهدوءٍ وسخريةٍ مبطَّنة، ثم أردفتْ بصوتٍ أكثر حدّة:

ـ وهل نسيتَ أنَّ من واجبي مساعدةَ أهلي بعد أن حَرموا أنفسَهم الكثيرَ من أجل أن يوفِّروا لي دراسةَ الطبِّ؟ وهذا الرجل الطيِّب، عمّك مهران، هل تريد منِّي أن أتركه طوال حياته يصلح أحذيةَ الناس ويشمّ روائحَ أرجل البشر النتنة؟

اقترب منها سلام وبلهجة مصالحة ودِّيَّة قال لها:

ـ يا حبيبتي، يا حبيبتي، لماذا تعقّدين الأمورَ كثيرًا؟ نحن زوجان، وما أملكه أنا هو لكِ أيضًا، وما تملكينه لي. نحن كيان واحد. حدِّدي الرقمَ الذي تحتاجينه لمساعدة أهلك وسيصلك كلّ شهر ما تريدين. وأنا أيضًا لا يهون عليّ أن يبقى عمِّي أبو زوجتي يعمل هذا العملَ الوضيع!

هبَّت واقفةً والشررُ يتطاير من عينيها. وضعتْ سبّابتها أمام وجهه تمامًا وصرختْ بغضبٍ عارم:

ـ إيَّاك يا سلام. إيَّاك، إيَّاك أن تعود إلى مثل هذا الكلام مرَّة أخرى. إنَّ عمل والدي يشرِّفني ويشرِّفك أيضًا. ثم إيَّاك أن تعرض عليّ مرَّةً أخرى نقودَكَ التي لا أعرف من أين تأتي! إنَّ أهلي لا يتسوّلون حتى من أقرب الناس إليهم. اسمعْ جيِّدًا ما سأقول: إذا أردتَ أن لا ترى وجهي مرَّةً أخرى طوال الحياة، فتلفَّظْ بهذا الكلام ثانيةً.

قالت كلامها ودخلتْ غرفةَ النوم بعد أن صفقت البابَ بقوَّة.

بعد نحو أسبوعين دخلتِ البيتَ حاملةً رزمةً من الأوراق. سألها سلام عن الأوراق ظانًّا أنَّها شيء يخصّ الحزب. قالت له إنَّها أوراق خاصَّة بمعاملة القرض من البنك؛ فلقد اتّفقت مع البنك على قرضٍ يؤمِّن لها فتحَ عيادة. استشاط غضبًا، واستمرَّت المعركة بينهما أسبوعًا. اتّهمها بأنَّها تضع حواجزَ مصطنعة بينهما، وأنَّها من الداخل لا تشعر بأنَّهما كيان واحد. ثم تصاعدتْ حدّةُ الكلام والاتِّهامات، حتى قال إنَّ موقفها الرافض لأيّة مساعدة منه تعبيرٌ عن عقدة نقصٍ متأصِّلة، فردّت بأنّه شرقيّ وما زال أسيرَ ذهنيّةِ الحريم.

كنّا أنا ولميس نهدِّئ الأمور قدر الإمكان. لم يعرف أحد غيرنا

بالعاصفة. وعندما بدأتْ حدّةُ الاتّهامات بالتصاعد أحسسنا بأنّ زواجهما الذي لم يمضِ عليه سوى بضعة شهور مهدَّد بالانهيار، فبدأنا نفكِّر في حلٍّ وسط يرضي الطرفين. بعد أيّام تبلور لدينا حلّ قد يكون مقبولًا. وكما في الأمور الأخرى كان الحلّ من بنات أفكار لميس، وابتدأنا بمارال:

ـ نحن معكِ في أن تحصلي على قرض من أجل العيادة. ولكنْ، بدلًا من البنك والفوائد التي سيرتِّبها عليك، وهي ستكون مبلغًا كبيرًا، خذي القرضَ نفسَه من سلام. وليكن كلُّ شيء نظاميًا: اكتبا الأوراق اللازمة، حدِّدا مواعيد دفع أقساط القرض... وهكذا تكونين بعد فترة قد أعدتِ إليه كاملَ المبلغ.

نظرتْ إلينا بعينين ملؤهما الشكّ، وسألتْ:

ـ هل هو الذي اقترح عليكما هذا الأمر؟

ـ كلّا... حتى إنّنا لم نفاتحه بالموضوع، أردنا أن نضمن موافقتك أوّلًا.

ـ طيِّب... أعطوني مهلةً لأفكِّر.

وهكذا حُلَّ هذا الخلاف الذي كاد أن يعصف بحياتهما. ولكنَّ الخلافات الصغيرة لم تنتهِ، وهي غالبًا ما تكون سياسيّةً أو حزبيّة، أو حول رأي أو معلومة ما، وتغذِّي كلَّ هذه الخلافات شخصيّةُ مارال العنيدة وروحُها المتحفِّزة للقتال دومًا، خلافًا لسلام الذي يبدو ليِّنَ العريكة وغالبًا ما ينسحب من هذه الخلافات. لكنّ المفارقة الكبيرة أنَّ الأمور في النهاية لا تسير إلّا كما يريد!

خلال العامين الأوّلين من الزواج رفضتْ مارال فكرةَ الحمل والإنجاب بقوّة وإصرار، وكرَّستْ معظمَ وقتها لعملها في العيادة، وحقَّقتْ نجاحًا ملحوظًا. واظبتْ على وضع أقساط القرض على

الطاولة أمام سلام أوّل كلّ شهر من دون أن يتبادلا كلمة. وكلّ أسبوع تزور أهلها وتضع في جيب أمّها ما يكفي العائلة من مصروف، ولولا هذه المساعدة لكانت عائلة مهران في وضع صعب نتيجةً للمقاطعة المستمرّة من جميع زبائنه الأرمن. وعندما وافقتْ أخيرًا على الحمل تحت إلحاح سلام، قام بوضع كلّ المبالغ التي دفعتْها ـ أقساطًا ـ في حسابها البنكيّ من دون أن تدري ذلك.

أنجبتْ توأمًا صبيين. وكانت فرحةُ سلام لا تُوصف. ولكنْ بعد أيَّام قليلة انفجر خلافٌ آخر إثر تسجيلهما في سجلّ الأحوال المدنيّة في الخالديّة. فبحسب جدول أسماء العائلة المعتمد على تسلسل معيَّن لأسماء الله الحسنى، سُجِّل الكبيرُ ـ أي الذي وُلد قبل أخيه بخمس دقائق ـ بٱسم عبد الرحيم، أمّا الصغير فسُجِّل بٱسم عبد العظيم. وقد قام سلام بتسجيلهما كأنّ ذلك أمرٌ عاديّ لا يحتاج إلى نقاش. لكنْ عندما عرفتْ مارال صرختْ وهي لا تزال في الفراش:

ـ عبد الرحيم؟ عبد العظيم؟ هل هذا أو ذاك اسمٌ لطفل عمْرهُ بضعة أيَّام؟ عندما أسمع «عبد العظيم» أتخيَّل شيخًا عمره أكثر من سبعين عامًا ولحيته البيضاء طولها متر! هل هما ولداك فقط؟ ألستُ أنا أمَّهما أيضًا؟ لماذا لم تسألني رأيي؟ هل تظنّ أنّني جارية عندك يا أمير سلام؟ لن أقبل بهذيْنِ الاسميْن أبدًا. أريد لأولادي أسماءً عصريّةً وحديثة، لا أسماء تجعلك تتذكَّر القرونَ الوسطى والسيفَ والترس!

واستمرَّ هذا الخلاف شهرين أو ثلاثة. وقد أطلقتْ اسمَ سامر على الكبير، وسمير على الصغير، وظلت تناديهما بهذين الاسمين طوال فترة الشهور الثلاثة. بعدها يئستْ وأصبحتْ تناديهما كما يفعل الجميعُ بالاسم المختصر: رحيم وعظيم.

كلّ الخلافات التي ذكرتُها وغيرها تمّ تجاوزُها من قبل الاثنين ـ ليس من دون معاناة ـ بفضل العاطفة القويّة التي يكنّها كلٌّ منهما

للآخر. أمّا الآن، فيبدو أنّ الأمور لن تُحلّ كما في المرّات السابقة.

فقبل يومين حضرتْ أمّ سلام من الخالديّة. وفور وصولها قالت وهي تجلس معنا في جناح الرجال:

ـ الشيخ عبد الهادي يهديكم السلام وهو مشتاق إليكم جميعًا.

بعدها التفتتْ صوب سلام وقالت له:

ـ إنَّ والدك يطلبك لأمر مهمّ، ويجب ألّا تتأخر عليه أكثر من يوم أو يومين، ويقول لك إنّ الأولاد قد كبروا وآن لهم العيشُ في الخالديّة.

الوحيد الذي فهم هذه الرسالةَ بكلِّ حروفها هو سلام، وإلى حدٍّ ما أصلان الذي كان يسهر معنا حينها. وبينما اكتفى أصلان بالابتسام، فقد انكمش سلام على نفسه وتقاذفته الأفكار: إنّها معركة مع مارال في الوقت غير المناسب. كان يحتاج إلى دعم مارال في هذا الوقت بالذات، الذي يستعدّ فيه لحربٍ ضروسٍ على مستوى الحزب لا يعلم بها أحد إلّا أنا عندما قال لي منذ فترة طويلة:

ـ يجب أن نطهّر الحزبَ من هذه الديناصورات المحنَّطة. جهِّزْ نفسَكَ لحربٍ ضارية، إمّا أن ننتصر فيها وينتصر الحزب، أو نخسر كلَّ شي ونجلس في بيوتنا.

وزاد في قساوة هذه الحرب الانقلابُ العسكريّ الأخير الذي قاده المارشال، وصلاتُ بعض قيادات الحزب المشبوهة به!

المارشال هو قائدُ آخر انقلابٍ عسكريّ قام به الجيشُ ضمن سلسلة الانقلابات المتتالية التي جعلت البلدَ مهتزًّا. تجتمع مجموعة من الضبّاط ويوجِدون الأسبابَ للقيام بانقلاب عسكريّ لاستلام السلطة. فإذا فشلوا تحوّلوا إلى خونة، فيُسجنون أو يُعدمون؛ وإذا نجحوا تحوّلوا إلى أبطال، لكونهم جاؤوا لإنقاذ البلد ومن أجل عزّته

ورفعته. ثم يستفرد أحدُهم بالسلطة فترةً من الزمن، إلى أن تقوم مجموعة أخرى بانقلاب آخر، ووفق أسباب الانقلاب الذي سبقه والذي سبق الذي سبقه... وهكذا.

المارشال كان ضابطًا صغيرًا سَرَّحه من الجيش قادةُ أحد الانقلابات، فعمل في وظيفة مدنيّة موقّتة ليعيل عائلته. عندما قامت مجموعةٌ من زملائه الضبّاط بانقلاب آخر ونجحوا في استلام السلطة، استدعوْه مرّةً أخرى إلى صفوف الجيش، ورُقّي إلى رتبة جنرال. هذه المجموعة كانت متنافرةً ومتنافسة، ولكنّهم يُجمعون على شيء واحد فقط، هو تقويمهم لشخصيّة هذا الضابط الصغير الذي أصبح الآن مارشالًا: إنّه إنسان بليد وجبان، خالٍ من الطموحات الشخصيّة. ولهذا السبب بالذات كان أقوياءُ المجموعة يحاولون، كلّ على حدة، استقطابَ هذا الضابط الذي لا يمكن أن يشكّل خطرًا أو أن يكون منافسًا! لكنْ بعد سلسلةٍ من الانقلابات والانقلابات المضادّة آل الأمرْ إلى أن يكون هذا «البليد والجبان» قائدًا لأنجح انقلاب عسكريّ. قَتل مَنْ قَتل من رفاقه وأودع الآخرين السجنَ، ورقّى نفسَه إلى رتبة المارشال، وأصبح سيِّدَ البلاد الأوحد، وبدأتْ كلُّ وسائل الإعلام التابعة للدولة بتكريس عبادة الفرد، وقد ركّزت الجرائدُ والإذاعة والتلفزيون على صفات القائد المارشال وقدراته الفذّة. ولأنّه يعرف ما يتّهمه به خصومُه من أنّه بليد وجبان، فقد أوعز إلى هذه الوسائل بالتركيز على ذكائه وشجاعته. وستظلّ في الواجهة على طول البلاد وعرضها، ولسنين طويلة، عبارةٌ تمجّد «حكمةَ القائد وشجاعتَه».

رفاقه السجناءُ المذهولون من سير الأحداث عزّوا أنفسَهم بأنّهم قد اكتشفوه قبل عامين من انقلابه، ولكنّ الأوان كان قد فات على تدارك الأمر رغم محاولتهم إقصاءه طوال هذين العامين. بعضهم أصرّ على أنّ كلّ هذا ليس نتاجًا لذكاء المارشال أو حسن تدبيره، بل لا بدّ

من أنَّ هناك مَنْ يساعده، يخطِّط له، يرشده، ينصحه، يزوِّده بالمعلومات! واتّجه تفكيرُ بعضهم إلى كبار الضبّاط من أبناء الطائفة العلويّة التي ينتمي إليها المارشالُ نفسُه. «لا شكّ في أنَّه استطاع أن يكسبهم إلى صفِّه وقد يكون وعدهم بإقامة شكل من أشكال السلطة العلويّة»: هذا ما أكَّده أحدُ السجناء من رفاق المارشال. وذهب إلى أنّ المارشال شكَّل مجلسًا علويًا سرِّيًا لحكم البلاد، وأنَّ أعضاء هذا المجلس لا يعرفهم أحد سوى المارشال وأعضاءِ المجلسِ نفسه.

قلَّة من هؤلاء السجناء، الذين كانوا سابقًا يتبوّأون أعلى المناصب في الدولة، تنفي كلّ هذه الأقوال وتلمِّح إلى دور سرِّيٍّ لـ «الأجنبيّ الغامض». والأجنبيّ الغامض، الذي قد لا يكون موجودًا أصلًا، تختلف الرواياتُ عنه كثيرًا: أميركيّ؟ بريطانيّ؟ فرنسيّ؟ لكنّ الرواية الأكثر ترددًا تقول إنّه من أصل ألمانيّ. عندما كان طفلًا عاشت عائلتُه في دمشق عدَّة سنوات، الأمرُ الذي جعله يُجيد اللغةَ العربيّةَ إجادةً تامَّة، وفي الحديث العاديّ يتكلّمها بلهجة أهل دمشق. عادت عائلته إلى ألمانيا عندما كان يحكمها هتلر، فانتسب إلى الشبيبة الهتلريّة. في العشرين من عمره كان ضابطًا برتبة ملازم، فلفت انتباهَ قادته بعبقريّته في تعلُّم اللغات، فتلقَّفته إدارةُ الغستابو وأصبح أحدَ كوادرها النشطة. عندما احتدم الصراعُ بين قوَّات ديغول وقوَّات ڤيشي من أجل السيطرة على سوريا أرسله الألمانُ في مهمَّةٍ إلى دمشق لمساندة قوَّات ڤيشي، وجهَّزوه بوثائق سوريّة، وعاش في دمشق أكثرَ من سنة باسم شخص عربيّ مسلم. في نهاية الحرب العالميّة الثانية، وكان في برلين، أدرك أنَّ نهاية الرايخ الثالث وشيكة عندما أصبح الجيشُ الأحمر على أبواب برلين، فاستعاد وثائقه السوريّة واستولى على إحدى خزنات الغستابو المليئة بالعملات الأجنبيّة، وتسلَّل إلى سويسرا. في الطريق إلى سوريا، وكان في اسطنبول، سمع بموت هتلر، فتابع سفره حتى وصل

دمشق وأقام فيها بصفته سوريًا. عندما خرج الفرنسيُّون من سوريا بعد عام من قدومه شعر بارتياح كبير وقرَّر أن يعيش في هذا البلد:

ـ يبدو أنَّ دمشق قدري!

في السنوات الأولى كان همُّه الاختفاء عن الأعين وضمان السلامة. وبدأ وهو في عزلته يَدْرس الواقعَ السوريّ، يصنِّف ويبوّب المعلومات كما تعلَّم وبرع فيها عند الاستخبارات الهتلريّة. وانتبه إلى دور الجيش، فكتب:

ـ في بلد ناشئ ويفتقر إلى مؤسَّسات حقيقيّة، يكون الجيش هو الطرف الحاسم في الحياة السياسيّة.

وقرّر أن يمارس أكثرَ الهوايات متعةً بالنسبة إليه: أن يحسّ أنَّه يتحكَّم بمصائر البشر، أن يمارسَ السلطةَ التي مارسها في عمله المخابراتيّ في ألمانيا، أي أن تكون في يده سلطةُ الحياة والموت! هو لن يتخلّى عن عزلته وحذره، ولكنْ سيمارس دوره من معتَزَلِه! وابتدأ العمل الجدِّيّ المنهجيّ.

أصبحتْ لديه سجلّاتٌ ضخمةٌ ومنظَّمة للسياسيين، والأثرياء الكبار، والصناعيين، ورجال الدين... وسجلٌّ كبيرٌ لضبّاط الجيش المؤهّلين للعب دورٍ ما في وقتٍ ما. لكلٍّ رجل ثمن، ولكلّ رجل نقطة ضعف ـ يدخل من نقطة الضعف ليحدِّد الثمنَ لاحقًا. استطاع تجنيد ثلاثة ضبّاط متقاعدين، كلًّا على حدة. لم يكن يريد أن ينشئ شبكة كبيرة؛ أراد هؤلاء الثلاثة فقط ليستكمل من خلالهم بعضَ المعلومات وليكونوا صلةَ الوصل بينه وبين الآخرين.

سافر عدَّة مرَّات إلى البلدان المؤثّرة التي تصارع من أجل السيطرة على سوريا. وفي كلّ بلد كان يُفْلح في عرض بضاعته على الدوائر العليا في استخبارات هذا البلد، حيث يتمّ اعتمادُه ويقبض الثمن. فعل

ذلك لأنَّه بحاجة إلى تمويل؛ فخزانة الغستابو التي جلبها معه توشك على النفاد.

وبدأ يساهم في صنع الانقلابات العسكريّة، ولكنَّه كان دائمًا يُصاب بخيبة أمل مريرة: فهو يريد أن يَحكم البلدَ من خلف الستار بواسطة مَن يساعدهم ليصلوا إلى سدّة الحكم، لكنّهم كانوا يهملونه بعد نجاحهم.

أفضل عرض قُدِّم إليه:

ـ إذا كنت تريد أن تصبح وزيرًا، تعال... واخترِ الوزارةَ التي تريد!

لكنَّه لم يكن يريد أن يتسلَّم أيّ منصب علنيّ؛ فهو يعرف مخاطر ذلك. وفي الوقت ذاته كان قد نمّى في نفسه طموحًا أكبر من ذلك بكثير: كان يريد أن يصبح الحاكمَ الفعليَّ لكلِّ البلد، من خلال الحاكم الحقيقيّ أو العلنيّ الذي ساعده في الوصول إلى أكبر منصب في البلاد. كان يريد أن يبني دولةً وفقًا لتصوُّره هو، أن تكون له غرفةٌ إلى جانب غرفة الرئيس، الذي لن يتّخذ قرارًا إلّا بعد أخذِ رأيه! إنَّ نكرانَ الجميل، من أولئك الذين يبدأون بالتبختر كالطواويس بعد نجاحهم في استلام السلطة بفضل ما قدّمه من معلوماتٍ وخططٍ، كان يُثير غيظَه. أخذ يبحث عن ضابط يستطيع أن يظلّ مسيطرًا عليه بعد النجاح، فلفت انتباهَه ذلك الضابطُ الصغيرُ الذي كان مسرّحًا ورُقّي إلى رتبة جنرال فور نجاح الانقلاب الذي شارك فيه وهو مدنيّ. وكان أكثر ما شدّ انتباهَه هو الكلام الذي يتردّد على بلادته وجبنه. فقام بمراقبته عن كثب أكثر من ستَّة شهور، ووصل بعدها إلى قرار:

ـ هذا هو الرجل الذي كنت أبحث عنه!

طلب من أحد أعوانه، وهو قائد متقاعد، ترتيبَ لقاء عَرَضيّ مع الجنرال الجديد. وأثناء السهرة أخذ يراقبه عن قرب: كان الجنرال

يدخِّن بشراهة. خرج الأجنبيُّ الغامض باستنتاج «إنَّه رجل قلق ومضطرب»؛ فهو يدخِّن مئة سيجارة في اليوم كما قال بنفسه. ورغم ذلك، اقترب من الجنرال في نهاية السهرة، وطلب أن يتقابلا على انفراد.

جاء الجنرالُ إلى الموعد متنكِّرًا. جلسا إلى إحدى طاولات المطعم الراقي وجهًا لوجه. بعد المجاملات التقليديّة أراد الأجنبيّ أن يضرب بقوَّة... أن يفجِّر قنبلة:

ـ هل تريد يا سيادة الجنرال أن تصبح رئيسًا للبلاد؟

لم يبدُ على الجنرال أنَّه دُهش بما سمع. مجّ نَفَسًا من سيجارته وأجاب على السؤال بسؤال:

ـ وهل تعتقد أنّني أصلُح لأمرٍ كهذا؟

ـ في رأيي أنت أفضل مَن يصلح لذلك!

ـ ولكنّني علويّ... والدستور ينصّ على أنّ دين رئيس الدولة هو الإسلام.

ـ هذا تفصيل... وكلّ التفاصيل تمكن معالجتُها في حينها. الأمر المهمّ هو الموافقة من حيث المبدأ.

تفاهما سريعًا. الجنرال لم يكن موافقًا من حيث المبدأ فحسب، وإنّما كان يحلم بالأمر ويخطّط له أيضًا. وقد خرج الأجنبيُّ الغامض بانطباع عن الجنرال:

ـ إنّه ليس كما يقول الناسُ عنه. قد لا يكون ذكيًّا جدًّا ولكنَّه يملك الكثيرَ من الخبث والدهاء الفطريّيْن. إنَّه فلّاح... وطبيعيّ أن يكون ماكرًا!

أخذ يحدِّد له أسماءَ الضبّاط الذين يستطيع أن يكسبهم، وكذلك الطريقة التي يستطيع أن يكسبهم بواسطتها. خلال عامين أصبح لدى

الجنرال الكثيرُ من الأعوان داخل ضبّاط الجيش، وبدأ بما يملك من نفوذٍ يضعهم في جميع المراكز الحسَّاسة وعلى رأس قطاعات الجيش المهمّة.

بعد هذين العامين، وفي أحد الاجتماعات قال الأجنبيُّ للجنرال:

ـ آن الآوان لأن تُقيم صلاتٍ مع الدول الكبرى والمؤثِّرة.

وبدأ يرشده كيف يفعل ذلك: «إذا ذهبتَ إلى سفارةِ أيّة دولة فلا تحاول مقابلة السفير؛ فالسفراء عادةً لا يجيدون إلَّا الكلام المنمّق والخالي من أيّ معنى». دلّه على الشخص المهمّ في كلّ سفارةٍ اتّصل بها. و: «لا تحاولْ أن تعطي وعودًا قاطعة أو ارتباطًا محدَّدًا، لكنْ عليك أن توحي لرجل السفارة أنَّك صديقُ بلده المخلص وأنّه ليس لك أصدقاء أجانب آخرون».

قُبيل تنفيذ الانقلاب بعدّة أشهر تدارسا أمرَ الأحزاب السياسيّة والقوى الفاعلة في الداخل. نصحه بأن يكون ناعمًا في البداية: «اتّصل بالجميع، لا تستثنِ أحدًا. حتى الذين تكرههم وتعتقد أنَّهم سيِّئون حاولْ أن تكسبهم فـ. . . كلبٌ ينبح معك أفضلُ من كلبٍ ينبح عليك. اعرضْ عليهم المشاركةَ في الحكم. سيَقْبلون بعض الوزارات الهامشيّة. وبقليلٍ من الامتيازات التي تستطيع أن تعطيها لهم يمكنك أن تكسب ولاءهم».

بعد كلّ هذا التخطيط والإعداد سارت الأمور على ما يرام. وفي لحظة التنفيذ لم يضطرّ الجنرال إلى إطلاق رصاصة واحدة؛ كان انقلابًا أبيض. خلال يومين استطاع أن يلمّ رفاقه القدامى ويضعهم في سجن واحد. فور استتباب الأمور رقّى نفسَه إلى رتبة مارشال، وبعدها بقليل أصبح رئيسًا شرعيًّا للبلاد. لم يفعل كغيره، بل أبقى الأجنبيَّ الغامضَ إلى جانبه. قال له:

ـ إنّني الآن بحاجة إليك أكثرَ من أيّ وقت مضى. لا يكفي أنّني نجحتُ في الوصول إلى السلطة، وإنّما أريد أن أحتفظ بها إلى الأبد. يجب ألّا أقع في الأخطاء التي وقع فيها غيري. غدًا سيجتمع خمسة ضبّاط ويتّفقون على إطاحتي، وقد ينجحون! هذا ينبغي ألّا يحدث، وعليك أنت أن تدرس وتخطّط لئلّا يحصل. ولكنْ، قبل كلّ شيء، قل لي: من أنت؟ أنا أعرف أنّك لستَ سوريًّا!

أُسقط في يد الأجنبيّ، فصارحه بكلّ شيء. تساءل بينه وبين نفسه، قبل أن يصارحه، إنْ كان ذلك ناتجًا من ذكاء المارشال؟! لا، لا، الجميع يعتقدون أنّه سوريّ، وليس ذكاء المارشال ما كشفه! إذًا لا بدَّ من أنّ هناك جهاتٍ أجنبيّة أخرى تتولّى تقديمَ المشورة للمارشال وتمدُّه بالمعلومات. أحسّ بالخوف والخطر، وأكثر مَنْ كان يخشاهم هم: صائدو النازيين من اليهود. لذلك، بعد أن كشف عن حقيقته، طلب الحماية منه. ضحك المارشال وطمأنه واعدًا إيّاه بالحماية مدى الحياة. وانقلبت المعادلة بينهما بعد أن أصبح في موقف ضعيف؛ فبعد أن كان يحلم بأن يصبح الحاكمَ الفعليَّ للبلاد، ها قد أصبح مجرّد موظّفٍ عند المارشال، الذي طلب منه أن يتفرّغ للعمل الذي يتقنه أكثر من أيّ شيء آخر: بناء أجهزة الاستخبارات لدولة المارشال الجديدة!

أعطت سياسةُ المارشال باستمالة الأحزاب السياسيّة، أو بعض قياداتها على الأقلّ، نتائجَ مهمّة. فنشبتْ خلافاتٌ ضارية بين مَنْ يؤيّد التعاون مع المارشال، وبين مَنْ يرفضه. سلام كان يقود المجموعة التي ترفض التعاون، لأنَّ «ضفادعَ الحزب» كما يسمّيهم أعلنوا ترحيبهم بذلك التعاون. وبذلك أُضيف سبب آخر من أسباب المعركة المندلعة بين كتلة سلام ـ وأنا منهم ـ وبين كتلة عجائز الحزب؛ معركة خفيّة وناعمة لكنّها شرسة، الطرفان متّفقان على تأجيل الانفجار إلى وقت أكثر ملاءمةً.

هذه المعركة لم تكن بعيدةً عن مرأى المارشال وسمعه؛ فقد بلغه كلُّ ما قاله سلام عنه: «طاغية عسكريّ آخر...، إنّه مشروع ديكتاتور... يريد التعاون معنا لأنّه ما زال ضعيفًا وعندما يقوى سيرمينا إلى المزبلة». ولهذا لم تكن مصادفةً أن يلتقي بسلام أحدُ أعوان المارشال المعروفين، خلال احتفال وطنيّ عامّ، وأن يتقدَّم منه ويحيِّيه بحرارة وهو يقول له بلزاجة:

ـ يسرّني أن أنقل إليك تحيّات القائد المارشال، ويقول إنَّ رأيه فيك إيجابيّ جدًّا ويعتبرك من أفضل شباب البلد، رغم كلّ أقوالك السلبيّة عنه.

كان هذا قبل يومين فقط من مجيء أمّ سلام وإبلاغها إيّاه بأنّ أباه يريد منه الحضورَ مع الأولاد. يومها فسّرنا أقوالَ مساعد المارشال على أنَّها رسالة واضحة، فيها ترغيبٌ وترهيب؛ فهو يعلم كلّ شيء وأيضًا يهدّد.

وسط كلّ هذه المشاغل والمعارك تأتي الآن المعركةُ مع مارال في غير وقتها. وطوال يومين لم يتزحزح موقفها قيد أنملة:

ـ إنّهم ولداي... وأنا مَنْ سيربّيهما.

في اليوم الثالث، كنّا نجلس أنا وأمُّ سلام وسلام ولميس في الصالة، ومارال والولدان في غرفة النوم بالطابق العلويّ. كان سلام قد أمر بتجهيز السيّارة، وأرسل إحدى الخادمات لإبلاغ مارال بأنَّهم سيسافرون إلى الخالديّة. سمعنا صوت أقدام على السلّم، ثم رأينا مارال والولدين. وعندما أصبحتْ مارال في الصالة قادت الولدين إلى جدّتهما، ومن دون أن تتفوَّه بحرفٍ سلَّمتهما إليها. هبّت أمّ سلام واقفةً وقد دمعتْ عيناها. احتضنتْ مارال بقوَّة وهي تقول:

ـ يا بنتي... أنا أمّ وأقدِّر مشاعركِ!

لم تردّ مارال بشيء وبقيتْ جامدةً. بعد قليل خرج الجميع، ومعهم أمّ معيوف، إلى السيّارة. بقينا ثلاثتنا فقط، مارال ولميس وأنا. وعندما ابتعد صوتُ السيّارة انفجرتْ مارال ببكاء عنيف ومرير. احتضنتْها لميس وجلستا على معقد مزدوج واحد. كانت مارال تَنْشج وجسدُها كلّه يهتزّ. رويدًا رويدًا أخذتْ تهدأ. نظرتْ إلينا من خلال عينيها الحمراويْن وصرختْ:

ـ إنّني أكره هذه العائلة التي تظنّ نفسها من الأباطرة أو الأنبياء!

سحبتْها لميس إلى الحمّام، وغسلتْ لها وجهها. لم يسألها أحد عن السرّ في تراجعها عن موقفها الرافض لإرسال ولديها إلى الخالديّة.

في الخالديّة نزل الجميع في القصر الكبير. وبعد نصف ساعة من وصولهم جاء أبو معيوف وأخبر سلام أنّ أباه ينتظره في المكتبة.

ـ السلام عليكم.

ألقى التحيّة وتناول يدَ والده وقبّلها. أشار إليه الوالد بالجلوس، وسأله عن الولدين وعن أحواله. وبينما هو يتكلّم وقف الشيخ عبد الهادي ـ وهو لا يفعل ذلك أبدًا. نظر إلى عبد السلام وقال:

ـ أنت تعرف أنّني لا أحبّ الحديث في السياسة وأوساخها، لكن ما يجري في البلد الآن يشكّل خطرًا كبيرًا علينا.

ـ خطر علينا؟! ما هو هذا الذي يشكّل خطرًا علينا؟

وقف الأب مقابل ابنه وعقد يديه على صدره. أطال النظر والتفكير. قال:

ـ أعتقد أنّك تعمل في السياسة، أليس كذلك؟ ألا ترى ماذا يفعل هذا الذي يُسمّى مارشالاًّ؟!

ظلّ الشيخ عبد الهادي يتكلّم عدّة دقائق: إنَّ دولة علويّة جديدة تنشأ الآن. الدولة العلويّة التي نشأتْ لمرَّة واحدة في هذه المنطقة

ارتكبتْ تلك المذبحة الهائلة في حقّ أجدادنا من ذرِّيَّة خالد بن الوليد. إذا نشأتْ وقويتْ هذه الدولة العلويّة الجديدة التي يحاول تأسيسَها المارشال فإنّ الخطر لا يستهدف ذرِّيَّة خالد فقط وإنّما يستهدف كلّ أهل السُّنَّة والجماعة، و«من واجبنا التفكير والحذر... قبل أن يقع الفأس بالرأس».

استمع سلام إلى أبيه باحترام، ولكنّه لم يقتنع بأيّ حرف ممّا سمع. وفكَّر: «إنّه أبي وأحترمه كثيرًا... لكنّ السياسة هي اختصاصي، بينما اختصاصُه هو الدين! لماذا يريد أن يعطيني درسًا في السياسة اعتمادًا على أفكار قرونٍ مضت؟». اعتدل في جلسته وبدأ يردّ على حديث أبيه. حدّثه عن الصراع الطبقيّ، عن سلطة البرجوازيّة الصغيرة الناشئة، عن خصائصها، عن الفئات العليا منها الطامحة إلى الحلول مكان البورجوازيّة الكبيرة والإقطاع، وعن الفئات الدنيا الأقرب إلى العمَّال والفلَّاحين وسائر الكادحين. وختم: في النهاية، المارشال ما هو إلَّا ضابطٌ طامعٌ بالسلطة يريد أن يتحوَّل إلى ديكتاتور، ولا يهمّه دين ولا طائفة.

استمع الشيخ عبد الهادي إلى ابنه بصبر كبير. وعندما انتهى جلس الشيخ، وبما يبدو وكأنّه الملل قال:

ـ لم أفهم الكثير من حديثك، ولكنْ تأكَّدْ أنَّ الأمور دائمًا كانت كذلك. لم يكن الدين هو الهدفَ في يومٍ من الأيَّام، ولكنْ كلُّهم يستخدمون الدينَ للوصول إلى ما يريدون. وهذا المارشال سوف يفعل الشيءَ ذاته: سوف يعتمد على العلويين ليقيم هذا الذي تسمِّيه دكتاتوريّة. هم سوف يستفيدون، وهو سوف يستفيد، وفي النهاية سنصبح تحت رحمتهم! دعني الآن من كلّ هذه الأحاديث لأنّني أريد منك شيئًا واحدًا فقط، وهذا الأمر ستنفّذه كما أريد.

سكت الشيخ قليلًا. تحفَّز سلام لسماع ما يريد والده، وهو يشعر

بنوع من خيبة الأمل. وقف الشيخ واقترب من ابنه. أمسكه من كتفه، وقال:

ـ الذهب... ذهبُنا الذي في السراديب يجب أن يُنقل من هنا. اذهبْ إلى تركيا، إلى واحد من مراكز آل الشيخ هناك، أو إلى أيّ مكان يكون خالصًا لأبناء العمّة ولا يكون أيُّ غريب بينهم. يجب أن تشتري قصرًا كبيرًا، وتجهِّز به سردابًا مناسبًا، ثم تنقل كلّ الذهب إلى هناك.

أنهض الوالدُ ابنَه من على الكرسيّ من دون أن يترك له مجالًا للكلام وهو يقول له:

ـ الآن تعال لنرى ولديْك.

بعد يومين عاد سلام إلى حلب. سألني عن أحوالي وأحوال لميس... ثم: «هل مارال غاضبة جدًّا؟ ماذا فعلتْ بعد أن ذهبنا مع الصبييْن؟ ما رأيك أن تدعونا اليوم إلى السهرة والعشاء عندك وتحاول أنت ولميس ترطيبَ الأجواء قليلًا؟».

في السهرة جلسنا أربعتنا. كان وجه مارال حياديًّا. لم تكن متجهِّمةً كما توقّعنا، ولا مسرورة. مضت الكأسُ الأولى بالأحاديث الاعتياديّة. مع بداية الكأس الثانية وقفتْ لميس وتوجَّهتْ إلينا بالحديث وكأسُ البيرة في يدها. قالت بعد أن تطلّعتْ إليها كلُّ العيون:

ـ أريد أن أُخبركم شيئًا. لقد مللت. مللتُ هذه الحياةَ الرتيبة ورؤيةَ الوجوه نفسها. إذا استمرَّت الحياة هكذا شهرًا ثانيًا فسوف أغادر. سوف أترك هذا ـ وأشارت بيدها إليّ. أنتم أناس مملُّون!

لا أعرف لمَ قالت لميس هذا الكلام، لكنَّه كان المدخل لكسر الجليد. فبعد أن كان سلام يجلس صامتًا لا يعرف ماذا يقول، امتلأ حيويّةً واستلم دفّة الحديث:

ـ إنَّ ما تقوله لميس صحيح! يجب أن نغيِّر الجوّ قليلًا. ما رأيكم أن أدعوكم جميعًا إلى سياحة في تركيا لمدَّة شهر على الأقلّ؟ نستطيع أن نعتبره شهرَ عسلٍ جديدًا لكلّ زوجٍ منّا!

لم ينتظر جوابًا من أحد. اقترب من مارال وأمسك يدها:

ـ حبيبتي... لقد قلتِ لي مرَّةً إنّك تتمنَّين أن تزوري بحيْرة ڤان، ما رأيكِ أن تكون بحيْرةُ ڤان هي أوّل مكانٍ نزوره في تركيا؟

على زاوية فم مارال ظهرتْ تجعيدة صغيرة، هي عبارة عن محاولة ابتسام. رأيناها كلّنا فعرفنا أنَ الغيمة قد انقشعت.

بعد خمسة أيَّام كنّا نقف على شاطئ بحيْرة ڤان، مسحورين من جمال المنظر. تنهَّدتْ مارال وهي تنظر إلى البعيد وتقول:

ـ هنا كان يعيش أجدادي، وهنا قُتلوا.

اقتربتُ منها وأنا مأخوذٌ بهذا المنظر الخلّاب. وبخشوع قلت:

ـ الشعب الأرمنيّ محقّ كلّ الحقّ عندما يشعر بهذا الحنين الجارف إلى هذا المكان!

استأجر سلام بيتًا واسعًا بعد أن قرَّرت المرأتان قضاء بضعة أيَّام هنا. انتظر حتى صباح اليوم الثالث ليخبرني السببَ الحقيقيّ لمجيئنا إلى هنا، وكنّا جميعا نعتقد أنَّها مجرَّدُ سياحة. «لنترك مارال ولميس ترتاحان هنا... وننطلق نحن إلى العمل».

قطعنا آلافَ الكيلومترات. زرنا عشرات المدن والبلدات والقرى... ودائمًا إلى أهدافٍ محدَّدةٍ سلفًا. وتكشَّف لي جانبٌ من قدرات سلام العمليّة والتنظيميّة: إذ عليه أن ينقل ثروةً هائلةً بين دولتين، الحدودُ بينهما محروسةٌ بشكلٍ محكم من الطرفين، وعليه أن يضع هذه الثروةَ في مكانٍ آمن. ولكي يحقِّقَ ذلك يجب أن يستعين بعشرات الأشخاص، وأن يأمن أنَّ أيًّا من هؤلاء لن تسوِّل له نفسُه

السرقةَ أو إبلاغَ السلطات على جانبي الحدود بما يجري! كلّ هذا وهو في الأساس غير مقتنع بطريقة تفكير والده، لكنَّه لا يستطيع إلَّا أن ينفِّذ ما طلبه منه؛ وكذلك رغم معرفته الأكيدة أنَّ غيابنا عن البلد في هذا الظرف بالذات سيقوِّي «ضفادعَ الحزب» وسيؤثِّر في نتائج «المعركة الكبرى مع هذه الجِيَف» كما يسمِّيها.

بقينا شهرين أتمّ خلالهما كلّ الاستعدادات. بدلًا من مكان واحد اختار ثلاثة أمكنة متباعدة بعضها عن بعض، يَجْمع بينها أنَّ جميع سكَّانها هم من آل الشيخ أو من أولاد العمّة. ذهبنا إلى مكتب هندسيّ كبير في إحدى المدن التي تبعد أكثر من خمسمئة كيلومتر عن أقرب الأمكنة التي اختارها. فوجئتُ بأنّ صاحب المكتب، وهو مهندس أبيض الشعر في الستِّينيّات من عمره، هبَّ واقفًا لدى دخولنا وقبَّل يَد سلام، ثم اجتمعا على انفراد ثلاث ساعات تقريبًا.

لاحقًا... جميع العمّال الذين عملوا في بناء السراديب الجديدة استُقدِموا من سبع عشرة دولةً لا يوجد بينهم واحد يعرف العربيّةَ أو التركيّة! بعد عودتنا بستّة أشهر كانت القصور الثلاثة جاهزةً بسراديبها المبنيّة بالإسمنت المسلَّح وفق أحدث المعايير الهندسيّة، ودائمًا بأبواب سرِّيّة. عدنا أنا وسلام إلى تركيا لمدّة يومين، تأكَّد خلالهما من جاهزيّة كلّ شيء، وابتدأتْ أكبرُ عمليّةٍ لنقل الذهب جَرَتْ في هذه المنطقة.

ثلاث شبكات منفصلة بعضها عن بعض، وجميعُ أفرادها من أتباع آل الشيخ ومريديه، عملتْ بصمت وسرِّيّة طوال أكثر من عامين على نقل هذه الثروة، وكان على رأس كلّ شبكة واحدٌ من إخوة سلام. تمّت تعبئةُ الذهب في صفائح معدنيّة غير قابلة للصدأ، وكان شخص يتسلَّم صفيحةً واحدةً في الخالديّة، فينقلها شمالًا نحو عشرين أو

ثلاثين كيلومترًا ويسلِّمها إلى شخصٍ ثانٍ، ثم إلى شخص ثالث، وهكذا إلى أن أُفرغتْ جميع السراديب.

نزل الشيخ عبد الهادي يرافقه سلام إلى السراديب للتأكُّد من أنّها قد أصبحت فارغة. في نهاية السرداب الموجود تحت القصر لاحظ سلام علاماتٍ يعرفها على الجدار، فقال لأبيه إنَّ هذا باب وليس حائطًا. سلَّط نورَ المصباح عليه وعالجه قليلًا، إلى أن فُتح البابِ واكتشفا خلفه سردابًا لم يكونا يعلمان بوجوده.

سرداب طويل يبدأ من تحت القصر الكبير وينتهي تحت خرائب المعبد الإغريقيّ، حيث بنى الجدُّ الأكبر أوّل غرفةٍ لآل الشيخ في هذه المنطقة.

الكثير من العقارب والأفاعي كانت تجول بحرِّيَّة بين الصناديق الخشبيّة المهترئة بفعل تقادم الزمن. بعض الصناديق كانت كاملة الاهتراء ومتداعية، والذهب المغطّى بالغبار مكوَّم على جوانبها. قال الشيخ عبد الهادي لسلام:

ـ لا نستطيع الدخول من دون التعرُّض للسعات العقارب وعضّات الأفاعي.

في اليوم الثاني أحضرا أحذيةً متينةً وطويلةَ الساق، وقفّازاتٍ سميكةً، لبسها ثلاثةٌ من العاملين عندهم، وابتدأ تفريغُ السرداب الجديد / القديم. استغرق ذلك عامًا إضافيًّا. وكان في السرداب عملاتٌ ذهبيّةٌ لدولٍ زالت من الوجود قبل ألف عام تقريبًا.

## (١٣)

احتدمت المعركة داخل الحزب بين سلام وكتلته من جهة، وبين كتلة القيادة التاريخيّة للحزب من جهةٍ أخرى. عندما وصلتْ حدّ الانفجار كان المارشال قد أمضى أكثر من خمس سنوات في سدّة السلطة، وبنى دولةً أمنيّةً قويّةً بمساعدة الأجنبيّ الغامض. «نستطيع الآن أن نعرف ماذا يجري بين الزوج وزوجته»، هكذا قال للأجنبيّ باغتباطٍ مرّةً. ولهذا كان يعرف ماذا يجري داخل الحزب بدقّة، وتدخّلَ بشكل غير مباشر لدعم خصوم سلام. لم يكن يريد أن يبطش بسلام الآن رغم أنّه أرسل له عدّة تحذيرات خلال السنوات الماضية. تأجيلُ البطش بسلام سببُه نصيحةُ الأجنبيّ الذي ناقشه في الأمر بكلِّ وضوح وصراحة حين لمس نيّته المبيّتة ضدّ سلام.

ـ أنا أعتقد أنّ عبد السلام آل الشيخ هو أخطرُ رجلٍ في البلاد!

غرز المارشال عينيه في عيني الأجنبيّ وسأله:

ـ ولكنْ أيُّ خطر يمكن أن يشكّله هذه الثرثارُ المترف؟

ـ اسمع يا سيّدي. بعضُ معارضيك، وهم الذين يستندون إلى الدين في دعوتهم السياسيّة، يقدّمون للناس جنّةً في السماء. البعضُ الآخر، وهم الذين يستندون إلى الاشتراكيّة في دعوتهم السياسيّة،

يقدِّمون للناس جنَّةً على الأرض. الطرفان أعداء ألدّاء لك، ويجب أن لا نتركهما يتّحدان. وحده عبد السلام يستطيع أن يَعِدَ الناس بالجنّتيْن معًا: السماويّة من خلال مكانته الدينيّة الوراثيّة، والأرضيّة من خلال انتمائه الاشتراكيّ.

ـ هل أفهم من كلامك أنّنا يجب أن نتخلّص منه؟

ـ لا... لا أبدًا. لنتركْه إلى أن «يسمن» ويصبح جاهزًا للذبح. إنَّه الآن في خدمتك. في البلد آلافُ المعارضين لك في دواخلهم، ولكنَّهم لا يُظهرون هذه المعارضة، ولذلك لا نعرفهم، لأنَّهم لا يجدون شخصًا مقنعًا يُظْهرون معارضتَهم من خلاله. لنتركْ عبد السلام يستقطبهم، يجرّهم من القاع إلى السطح لنراهم جيِّدًا، وعندها نضرب ضربتنا!

هزَّ المارشال رأسَه دلالةَ التفهُّم وفكَّر: سيأتي ذلك اليوم الذي سأجعل من هذا القذر، ابنِ السلالة القذرة، عبرةً لمن يعتبر. لا أريد أن أقتله.. لا.. سوف أذلّه بطريقةٍ تجعله يتمنّى أن يلعق حذائي، هذا الذي يظنّ نفسَه ابنَ الأكرميْن!!

خرج الخلافُ داخل الحزب إلى العلن. أصدر كلُّ طرف بيانًا يعلن فيه فصلَ الطرف الآخر من الحزب. أكثر من سبعين بالمائة من قيادات الحزب وأعضائه وقفوا مع سلام. أنا ومارال أصبحنا عضويْن في القيادة العليا للحزب الجديد الذي أصبح سلام رئيسَه. وهكذا خرج سلام منتصرًا بعد سنوات طويلة من العمل.

أمّا مهران، وقد ظهرتْ عليه علاماتُ الشيخوخة بشكل واضح، فقد كان حزينًا جدًّا؛ فالحزب مقدَّس بالنسبة إليه، وأن يصبح الإخوةُ أعداء ـ حسب وصفه ـ فذلك شيء يؤلمه كثيرًا. لم يعلن تأييده لأيّ طرف، وأوقف نشاطاته السياسيّة كلّها، وتوقَّف في السهرات العائليّة

نفسها عن المشاركة في أيّ حديث ذي طابع سياسيّ أو حزبيّ.

مارال، المنهمكة في أعباء عملها الحزبيّ الجديد، لم تُبْدِ أيّة معارضة لإرسال ابنها الثالث إلى الخالديّة بعد بلوغه العامين؛ حتى إنَّها عندما وُلد لم تعترض على سلام حين قال إنَّه يجب أن يُسمّى «عبد العليم»، بل اكتفتْ بأن قلبتْ شفتَها السفلى اشمئزازًا وهي تتساءل باستهجان:

ـ عبد العليم؟!

من الداخل ـ وأمام انشغالتها الجديدة والعديدة ـ يبدو أنَّها كانت مرتاحة لأن ينضمّ ابنُها الثالث إلى أخويه في الخالديّة، لكنَّها لم تشأ أن يمرّ الأمر بسهولة وسلاسة كما يتمنّى سلام. وعندما وافقتْ على سفر ابنها الصغير قالت وهي توجِّه الحديث إلى سلام:

ـ نعم... خذه إلى الخالديّة. ولكنْ يبدو أنّك وعائلتك إذا سايركم الإنسانُ قليلًا تحاولون أن تركبوه! ليس بعيدًا ذلك اليوم الذي سأرفض فيه كلَّ ما تريده أنتَ أو تريده عائلتُكَ الكريمة. ليس بعيدًا اليوم الذي سأقلب فيه الطاولةَ على رؤوسكم!

ابتسم سلام ولم يجبها بشيء.

على مدى عامين تمّ بناءُ الحزب بشكل جيِّد على المستوى التنظيميّ، واستطاع سلام ببراعة تحمُّلَ كلّ الضغوط التي مارسها المارشال، عبر بعض رجاله، عليه وعلى قيادة الحزب، من أجل احتوائهما. ورغم كرهه الشديد للمارشال، الذي أحكم قبضته الأمنيّة على البلاد بواسطة مجموعة من أجهزة المخابرات، فإنَّه تجنَّب الاصطدامَ به. كان دائمًا يقول: «إنّنا لم نعد حزبًا سرِّيًا، نحن مكشوفون لمخابرات المارشال، وأيُّ صدام معه عبارة عن انتحار». لم يكن يُبدي رأيًا سلبيًّا بشكل علنيّ، ولكنْ في مجالسه الخاصَّة كان حادًّا

ولاذعًا في نقده. قال لي مرّةً:

ـ لقد كان أبي على حقّ! لم أشأ أن أصدِّق حينها أنَّ رجلَ دين منعزلًا في مكتبته بالخالديّة يفهم أكثر من كلّ سياسيّي البلد. منذ الأيَّام الأولى حذَّرني أبي من أنَّ المارشال يريد بناء دولة علويّة! وها هي الدولة العلويّة تُبنى يومًا بعد يوم. لقد أمسك المارشال وإخوتُه وضبّاطُه العلويُّون بكلِّ مفاصل البلد، وبدأوا النهبَ المنظَّمَ لمواردها.

وأيضًا كان يتناوله بشكل شخصيّ؛ فقد نعته مرَّة بـ «الديكتاتور المسخ». وفي نقاش مع أحد أعضاء قيادة الحزب قال سلام بحدّة في نهاية النقاش:

ـ إنّني أفضّل أن أضع يدي في يد كلب أَجْرب على أن أضعها في يد هذا المارشال!

كلّ هذا كان يصل إلى المارشال، فيصرّ على أسنانه وهو يستمع إلى الأجنبيّ الغامض الذي يقول له إنَّ الأوان لم يحنْ بعدُ للبطش بعبد السلام لاعتبارات كثيرة، أهمُّها الاعتباراتُ الدوليّة؛ وكذلك للاعتبارات الداخليّة، إذْ أصبح الحديثُ في الشارع علنيًّا عن اضطهاد العلويين للسُّنَّة؛ وبدأ التململ واضحًا في أوساط هؤلاء نتيجةً لسياسة المحاباة الطائفيّة التي اضطرّ المارشال إلى اعتمادها.

فالحقيقة أنّ علاقة الماريشال بالطائفة العلويّة التي ينتمي إليها بالولادة علاقةٌ ملتبسة. فخلال بعض مراحل حياته كان يكره هذا الانتماءَ، وخصوصًا عندما بدأ يحلم بحكم البلاد، وكان هذا الانتماء العائق الأكبر أمامه. ولكنّ الأجنبيّ شجّعه، ونصحه بالاعتماد على الضبّاط العلويين لأنَّ ولاءهم مضمون، قائلًا له:

ـ إنَّ الأمر يعود إلى ذكائنا. إذا لم نحسن التصرُّف يصبح انتماؤك إلى الطائفة العلويّة سلاحًا ضدّك، وبالعكس نستطيع أن نجعله سلاحًا

معك! اعتمدْ على الضبّاط العلويين، وأوهِمْهم أنّ نظامك هو للطائفة ككلّ، وأنَّهم من «عظام الرقبة»، وبذلك تضمن ولاءهم المطلق واستعدادهم للموت دفاعًا عن النظام. وبالمقابل يجب أن يبقى فمُهم مليئًا، لأنَّ الفم المملوء لا يستطيع الكلام.

لكنّ المارشال في نهاية المطاف ضاق ذرعًا بهذه الأقوال، وكان قد بلغه يومها أنَّ سلام قد قال عنه إنَّه بليدٌ وجبان، وهما الصفتان الأكثر استفزازًا لذات المارشال.

جمع المارشال مجلسَه السرِّيّ المؤلَّف من كبار ضبَّاط الأجهزة الأمنيّة، وكلّهم علويُّون، واتّخذ قرارًا ذا طابع انتقاميّ: اعتقال سلام ومارال، مع رسالة تطمين لقيادة الحزب بأنَّ أيّ عضو فيه لن يُمسّ، وأنَّ سلام ومارال سيبقيان في ضيافة المارشال بشكل موقَّت لحمايتهما من مؤامرةٍ يحيكها أحدُ التنظيمات الإسلاميّة لاغتيالهما، وتهدف إلى الإيقاع بين الحزب والسلطة.

التفت المارشال إلى أحد الجنرالات وقال له:

ـ أحضرْ لي أقذَر ضابطٍ لديك من الطائفة السنيّة!

وكان هذا جريًا على سياسةٍ دأب عليها المارشالُ في إيكال كلّ المهامّ القذرة إلى ضبّاطٍ أو ساسةٍ ينتمون إلى الطائفة السُّنِّيَّة. وتمّ اختيارُ الكولونيل عمر لتنفيذ الأمر.

دخل معيوف حينما كنّا على وشك الانتهاء من تناول العشاء في بيت سلام. همس بضعَ كلمات في أذن سلام، الذي وقف وأومأ برأسه موافقًا وهو يمسح فمَه ويديه من آثار الطعام. بعدها بقليل دخل شخص مع معيوف، فحيّا الجميع، وعانق سلام بعد أن قبّل يده، ثم دخلا إلى غرفة جانبيّة. بعد نصف ساعة خرجا. ألقى الرجلُ علينا تحيّة الوداع، وجلس سلام ينظر إلينا وهو غارق في تفكير عميق.

سألته مارال، قاطعةً الصمتَ المخيِّمَ على الصالة:

ـ ما الأمر يا سلام؟

ـ لقد كشَّر الوحشُ عن أنيابه!

قال هذا وانتصب واقفًا وهو يمسِّد شاربيه. أشار إلى معيوف بالانصراف، ثم أدنى الكرسيَّ من الطاولة واستأنف حديثه:

ـ المارشال قرَّر أن يضربنا. الذين نقلوا المعلومات لي لا يعرفون إنْ كان الاعتقال سيطاول الحزبَ كلّه أعضاء وقيادات، أم القيادة وحدها، لكنَّهم متأكِّدون أنَّ أمرًا باعتقالي ومارال قد صدر، وينصحوننا بالاختفاء، علمًا أنَّ بيوتَ آل الشيخ ومراكزَهم جميعها ستكون تحت المراقبة اعتبارًا من الغد، تحسُّبًا لردود الفعل.

بدأنا نناقش المسألة: ضرورة حماية الحزب، تحذير أعضاء القيادة لكي يتواروا عن الأنظار موقّتًا، وغيرها من الأمور التي قام بها سلام بسرعة مذهلة. كنّا نساعده في الاتّصالات وفي توزيع المهامّ على أعضاء الحزب الذين أصيبوا بدايةً بالصدمة؛ فهم لم يعتادوا الملاحقة والاعتقال منذ زمن طويل.

أخيرًا طُرح السؤالُ المنتظر: أين سنذهب نحن الأربعة؟ هل نذهب معًا أم نتفرّق؟ وطُرحتْ كلُّ الخيارات، بما فيها خيارٌ مغادرة البلد إلى بلدٍ آخر، أو إلى تركيا القريبة حيث البيوتُ الجديدة التي أنشأها سلام. ورفض سلام فكرةَ الخروج من البلد:

ـ لن أهرب إلى الخارج. أفضِّل السجن على مغادرة البلد!

قرّ الرأيُ أخيرًا على استئجار شقّة مفروشة غدًا في أحد الأحياء الراقية من مدينة حلب، إلى أن نعرف حجمَ الضربة، وعلى ضوئها نتّخذ القرارات. ولكنْ باسم مَنْ يجب أن يسجِّل عقدُ استئجار الشقّة؟

إنَّ وجود أيّ من أسمائنا نحن الأربعة على العقد سيقود المخابرات إلينا فورًا.

هبَّ سلام واقفًا وهو يقول:

ـ لقد وجدتُها! دعونا نذهب منذ الآن إلى بيت أصلان. صحيح أنّه صغير ولكنّها ليلة واحدة فقط. غدًا صباحًا يستأجر أصلان لنا الشقَّة ويسجِّلها باسمه. لن يخطر أصلان على بال أحد من المخابرات.

بعد ظهر اليوم الثاني كنّا نجلس في الشقّة ننتظر الأخبار التي يجب أن تَرِدَنا عن سير حملة الاعتقالات. بقينا ننتظر يومين كاملين: لم يُعْتَقل أيٌّ واحد من الحزب! لم يلحظ أحد من أعضاء الحزب أيّة حركة مريبة حول بيته أو في عمله! انتابتنا الحيرة، وغرق سلام في تفكير عميق. استدعى أحدَ أعضاء الحزب وطلب منه استطلاعَ وضع بيت سلام وبيتي. بعد ساعتين كان الجواب أنَّ رجال المخابرات يحتلُّون البيتين! قال سلام:

ـ إذًا نحن الأربعة فقط مطلوبون، ولكنْ لماذا؟ ماذا يريد هذا القذر؟

بعد نصف ساعة قالت لنا لميس بكلام سريع:

ـ كنت أنظر من النافذة صدفةً، فوجدتُ أنَّ البناية التي نحن بها مُحاطةٌ بسيّارات الأمن ورجال الأمن من جميع الجهات.

ما إنْ أتمّت كلامها حتى سمعنا طرقًا عنيفًا على الباب.

اقتادونا نحن الأربعة، كلٌّ منّا يحيط به رجلان من المخابرات. وصلنا الباب الرئيس للبناية؛ كنّا أنا وسلام في المقدِّمة. رأينا ضابطًا، وإلى جانبه يقف أصلان! لجزءٍ من الثانية التقت عيناه بعينيْ سلام

وعينيَّ ثم أطرق رأسَه أرضًا. لم نستطع أن نمنع أنفسَنا، أنا وسلام، من الصراخ باستغرابٍ واستهجان:

ـ أصلان!

بغلاظةٍ دفعونا ووضعوا كلّ واحد منّا في سيّارةٍ يُحيط به بضعةُ رجال أمن. في مقرّ المخابرات وقفنا أمام رجل في أواسط الأربعين، وسيم ذي عينين سوداوين، شعرُه صقيل، وهو أميلُ إلى الطول، عرفتُ فيما بعد أنَّه الكولونيل عمر. حدَّق بنا طويلًا، والابتسامةُ لا تغادر شفتيه. سأل:

ـ من هو عبد السلام آل الشيخ؟

أجاب سلام، وقد عقد يديه على صدره:

ـ أنا.

ـ ومن هي مارال؟

حرّكتْ يدها وقالت:

ـ أنا.

التفت الكولونيل إلى الضابط الشابّ الذي تولّى عمليّةَ المداهمة والاعتقال. سأله:

ـ من هذان؟

ـ لا أدري يا سيِّدي، لقد كانا معهما في الشقَّة نفسها.

ـ قلت لك يا حمار إنّني أريد عبد السلام ومارال فقط. هل من الضروريّ أن تحضر لي كلّ هذا الخراء؟! هيّا أخرجْهما من أمامي.

ابتعدنا عن مركز المخابرات قليلًا. ركبنا سيّارةَ أجرة قاصديْن البيت، وحالةٌ من انعدام الوزن تلفّنا. وصلنا متوقّعيْن أن نجد رجال

الأمن في البيت، ولكنَّهم كانوا قد ذهبوا. البيت في حالة فوضى عارمة، جرَّاء وجود رجال الأمن داخله طوال ثلاثة أيَّام. سوَّيْنا السرير قليلًا، وأحضرتْ لميس أغطيةً جديدةً من الخزانة، واستلقينا على السرير. يدي تحت رأسي أحدِّق بالسقف، لميس إلى جانبي مغمضةَ العينين. بعد ساعة تقريبًا أحسستُ بحاجة حارقة لممارسة الجنس مع لميس، وتساءلتُ عن سرّ هذه الرغبة المفاجئة والجامحة، فلم أتوصّل إلى جواب. لعلَّه الإحساسُ بأنّنا قد نجونا، أو لعلّه الحاجة إلى ممارسة فعل وجودٍ يثبت أنّنا ما زلنا كائنين إنسانيين.

مددتُ يدي بحركة خجولة نحو لميس متوجِّسًا من ردَّة فعلها. ما إنْ أحسّت بيدي حتى هجمتْ عليّ بجسدها وشفتيْها وضمَّتني بقوَّة. التحمنا بطريقةٍ لم نفعلها من قبل. عندما ولجتُها وكنتُ في قمّة عنفواني بدأتْ تبكي وهي تواصل أداءَ حركاتها المعتادة. أنا أيضًا بدأتُ أبكي. في المنتصف قلبتني لميس واعتلتني كفارسة! لأوَّل مرَّة تفعل ذلك، رغم أنّني طلبتُه منها عدَّة مرَّات خلال السنوات الماضية وكانت دائمًا ترفض قائلةً: «لا أستطيع... إنَّ أعصابي ترتخي بالكامل أثناء الممارسة». تعالت صرخاتنا معًا عند الانفجار. نمنا عاريَيْن حتى المساء.

مع فنجان قهوةٍ مسائيّ بعد النوم قالت لميس، وهي ترنو بعينيها إليّ:

ـ هل تعرف ماذا اكتشفتُ اليوم؟

ـ لا... ماذا اكتشفت؟

ـ اكتشفت أنّني أحبّك!

اضطرب فنجانُ القهوة في يدي، وبصعوبةٍ تحاشيتُ سقوطه.

وضعتُه على الطاولة، نهضتُ وجثوتُ أمامها. وضعتُ رأسي على حجرها بعد أن قبّلتُ فخذيْها العاريين. داعبتْ خدّي قليلًا، ثم رفعتْ رأسي وهي تقول:

ـ غدًا يجب أن تذهب إلى الخالديّة لإخبار الشيخ عبد الهادي بكلِّ ما جرى.

في طريق العودة من الخالديّة، وقد أمر الشيخ عبد الهادي أحدَ السائقين العاملين لديه بإيصالي إلى حلب، كنتُ أفكِّر في أمر أصلان! كيف أَرشد المخابراتِ إلى مكان اختبائنا بهذا الشكل؟ هل وشى بنا طواعيةً؟ هل اعتقلتْه المخابراتُ واعترف بمكان الشقّة تحت التعذيب؟ ولم أستطع التوصُّل إلى جواب.

الجواب كان في البيت. فما إنْ جلستُ حتى قالت لميس بصوت متهدِّج:

ـ مفاجأة! اليوم صباحًا حضر موظَّفٌ من نقابة المهندسين وقال إنَّ عليك مراجعةَ النقابة غدًا.

ـ نقابة المهندسين؟ وما علاقتي بنقابة المهندسين؟

ـ بصفتك الوريثَ الوحيدَ لأصلان!

للحظات لم أستوعبْ شيئًا! ثم لا أدري كيف وقفتُ واقتربتُ من لميس وفي عينيّ سؤالٌ واخز! أومأتْ لميس برأسها وقالت:

ـ نعم... أصلان مات! مات في انفجار مستودع الديناميت، وأنت وريثُه الوحيد، كما أفهمني الموظَّفُ الذي جاء إلى هنا. وقد أعطاني هذا العنوانَ وهذا الموعد.

استقبلني الموظَّف بلطف وقدَّم إليّ العزاءَ بوفاة المرحوم:

ـ من نظام النقابة عندنا أن تَمنح ورثة العضو الذي يتوفّى

تعويضًا، وهو مبلغ محترم. يستطيع العضوُ قبل وفاته أن يحدِّد الشخصَ المستفيدَ من هذا التعويض. كان المرحوم سابقًا قد حدّد شخصًا غيركم كمستفيد، ولكنْ منذ خمس سنوات تقدَّم بطلب لتغيير اسم المستفيد ووضع اسمَ حضرتكم مع العنوان. والآن علينا القيام ببعض الإجراءات الإداريّة لكي تستلموا المبلغ. وبالمناسبة أريد أن أنصحكم يا أستاذ: إنَّ المرحوم توفِّي نتيجة إصابة عمل، يعني انفجار أثناء العمل، وهنا عليكم رفع دعوى على الجهة التي يعمل عندها لتقبضوا تعويضَ الوفاة. وهو مبلغ كبير أيضًا.

شكرتُ الموظَّف وخرجتُ. اتّصلت بالشيخ حسن المحامي، الذي صُعق لسماع خبر وفاة أصلان، ولكنْ خلال خمسة أيَّام كان قد أنهى كلّ شيء، وفهمتُ كلّ الملابسات من خلال الرسالة التي كان أصلان قد كتبها قُبَيْل وفاته بنحو ساعتين، وقد وجدتُها لحسن الحظّ ولم يلحظها الشيخ حسن عندما دخلنا بيتَ أصلان.

كانت تقديراتُ سلام لقدرات المخابرات غير صحيحة عندما ظنّ أنَّهم لا يعرفون شيئًا عن أصلان. فبعد أن داهموا بيتَه وبيتي واستجوبوا جميع الموجودين، عادوا إلى سجلّاتهم الضخمة، ونبش أحدُ مساعدي الكولونيل عمر اسمَ أصلان، خصوصًا أنَّه مسجَّل بكنية آل الشيخ. أحضروه من مكان عمله، ولم يضطرّ الكولونيل إلى تهديده أو تعذيبه. سؤال واحد وجواب واحد. أخذوه بالسيّارات معهم، وأمرهم الكولونيل بأن يَدعوا سلام يرى أصلان ليعرف مَنْ دلّهم عليه. طَلَبَ منه الكولونيل بعد اعتقال سلام ومارال العودةَ إلى عمله ـ فـ «أنت صديق لنا». خرج أصلان من مركز المخابرات إلى البيت وجلس نحو ساعة. اتّخذ قراره، فكتب رسالةً موجزةً لي وضعها على سريره. ذهب إلى مكان عمله. وبصفته المسؤولَ الأوّلَ عن الديناميت والمتفجِّرات

دخل أكبرَ مستودعٍ لها، فجلس على أكبر كومة منها، وفجّر نفْسه مع كامل المستودع؛ حتى إنّ المناطق القريبة ظنَّت أنَّ زلزالًا وقع.

في الرسالة خاطبني بكلمة «أخي». ومن دون تحيّات كتب:

«إذا كان يمكن لومُ الإنسان الأبيض على بياضه، أو الأسمر على سمرته، فيمكن عندها لومُ الضعيف على ضعفه! وأعترف أنّني ضعيف.

«لم يعذِّبوني. لم يضربوني! لكنّ الخوف كان يشلّني، يسلبني كلّ إرادتي، بحيث إنَّه عندما سألني عن سلام أجبتُه فورًا!

«أعتقد أنَّ أكبر مصادفة سيِّئة وقعتْ لي هي عندما رأتني - أمِّي - أيْ أمّ سلام وأنقذتني! لو أنَّها تركتني للموت لربَّما كان ذلك أفضل. فماذا فعلتُ في هذه الحياة؟ ولماذا وُجدتُ؟ أعتقد أنَّك الوحيد الذي يستطيع أن يفهمني.

«سأنتقم من هؤلاء الكلاب... وقبل كلّ شيء من ضعفي! لم أعد أريد الحياة. كيف أستطيع أن أقف أمام الرجل الطيِّب الشيخ عبد الهادي وأنظرَ في عينيه بعد فعلتي هذه؟ سأذهب وأجلس على أكبر كمِّيَّة من المتفجِّرات، سأضع صاعقًا وأفجِّر نفسي مع هذا المستودع.

«منذ زمن طويل جعلتُكَ الوريثَ الوحيدَ لي، وقد سجّلتُ هذا في كلّ الدوائر المطلوبة. قبل أن أعرفكَ، كنتُ أضع اسمَ سلام كوريث، وبعد أن عرفتكَ قلتُ إنّك الأحقُّ بوراثتي؛ فسلام لن يستفيد شيئًا من الدريْهمات التي أملكها، بينما أنت قد تكون في حاجةٍ إليها. وداعًا. اذكرني بالخير».

أصلان، هذا الطفل الذي عثرتْ عليه أمّ سلام وهي عائدة من الحمّام، الرجل الذي جاء من المجهول وذهب إلى المجهول، هذا الرجل أورثني بيتيْن ومبلغًا من المال! أفتقدُ أصلان وحكاياه. خسارتُه

لا يعوِّضها مالٌ أو بيوت.

بكت أمّ سلام عندما سمعتْ باعتقال سلام ومارال وصبّرتْ نفسها: «شدّة وتزول». ولكنّها بكت بحرقة شديدة ولطمتْ خدَّيْها وصدرَها عندما سمعتْ بخبر موت أصلان: «ابني الذي لم يلدْه بطني». وظلَّت تبكي أيَّامًا طويلة. لميس وأنا كنّا الوحيدين اللذين نعرف الدورَ الذي لعبه أصلان في اعتقال سلام، وكذلك قصَّةَ انتحاره.

# (١٤)

الكولونيل عمر، أو عمُّورة كما كانوا ينادونه وهو صغير، هو ابنُ أحد سماسرة سوق الغنم الصغار، يتوسَّط بين البائع والمشتري، ويضغط على الطرفين بعباراتٍ يقولها لكلِّ الناس؛ فإذا نجحت الصفقة كسب بضع ليرات. عمُّورة كان يساعد أباه في أيَّام العطل المدرسيّة، فيؤدِّي مختلف الأعمال لزبائن السوق، يساعدهم في سَوْق الغنم أو حراستها، ويكسب أيضًا بضع ليرات. وقد اعتاد أن يُخفي قليلًا من هذه الليرات عن أبيه، بناءً على طلب أمِّه، التي تأخذ تلك النقود وتخبِّئها له وهي تتكلّم بغلٍّ:

ـ أبوك لا ينفع لشيء، وسيصرف كلّ ما في جيبه. يجب أن تجمع الكثيرَ من النقود لكي تساعدك في دراستك عندما تكبر. لا أريد أن تكون مثل أبيك. يجب أن تدرس في الجامعة. إيّاك... يا بنيّ إيّاك! الدراسة هي مستقبلك.

لكنّ عمُّورة، عندما نجح في البكالوريا، لم يكن يريد الدراسة في الجامعة. لطالما استهواه لباسُ الجيش: مشيةُ الضبّاط في الشارع، والنجومُ الذهبيّةُ التي تلمع فوق أكتافهم!

بعد عامين أصبح ضابطًا. التراتبيّة العسكريّة خلبتْ لبّه، فمارسها

بتطرُّفٍ شديد. كان أمام رؤسائه شديدَ الطاعة والانضباط؛ حتى وقْفتُه أمامهم فيها الكثيرُ من التصاغر. أمّا أمام مرؤوسيه فينقلب إلى طاغية جبّار: يرتفع صدرُه، ويعلو صوته وهو يقرِّعهُم، ولا يتوانى عن ضربهم، ويتلذّذ في إذلالهم وقهرهم.

يومَ قام المارشال بانقلابه كان عمر قد رُقِّيَ أربعَ رُتَب وبطريقة نظاميّة، وأصبح قائدًا لكتيبة. وبعد شهور من الانقلاب، وبحسّ السوق الذي تأصّل فيه، أدرك أنّ عهدًا جديدًا قد بدأ في البلاد، فأخذ يتقرَّب إلى الضبّاط العلويين أكثرَ فأكثر. لكنّ هذا السلوك لم يكن ذا فائدة تُذكر.

المصادفة وحدها هيّأتْ له فرصتَه. ذلك أنّ أحد الضبّاط الكبار من رؤساء عمر ساءه ما يجري في البلد، وقرّر أن ينهي حكمَ المارشال بانقلاب عسكريّ، فجمع حوله مجموعةً من الضبّاط وأخذوا بصمت وهدوء يَنْشطون مع ضبّاط آخرين لضمِّهم إلى صفوف الانقلاب. كان قائدُ المجموعة هو الذي اتّصل بعمُّورة لمعرفته بأنّه ينتمي إلى الطائفة السُّنِّيَّة، التي أصبح ضبّاطُها يحسُّون أنَّهم مهمَّشون وأنَّ السلطة كلّها تتركّز في يد الضبّاط العلويين. عمُّورة وافق الضابطَ على طرحه، وانتظر إلى اليوم الثاني، فذهب إلى المركز الرئيس للاستخبارات العسكريّة وأصرّ على مقابلة مدير الاستخبارات نفسه. ذُهل المديرُ من المعلومات التي قدّمها عمُّورة، وطلب منه المتابعة مع المتآمرين. بعد شهرين، وفي ليلة واحدة فقط، تمّ اعتقالُ حوالى خمسة وثلاثين ضابطًا، قُتل بعضُهم أثناء التعذيب وزُجّ بالآخرين في السجن.

رُقِّي عمُّورة رتبةً استثنائيّةً، ونُقل إلى مديريّة الاستخبارات العسكريّة، ليصبح ضابطًا فيها. وقد اشتُهر بإخلاصه الشديد للمارشال، وبقساوته وشراسته ضدّ كلّ من يحاول أن يعارضه.

عندما قيل له إنّه سيقابل المارشال طار فرحًا وخوفًا. طوال

المقابلة كان يرتجف. استمع إلى المارشال وهو يعطيه المهمَّة المطلوبة منه بكلمات غامضة:

ـ هذا الذي اسمُه عبد السلام يرفع أنفَه نحو السماء كثيرًا، ورأسُه مثل الصوّان. هل تعرف كيف تكسر رأسَه وتمرِّغ أنفَه بالوحل؟

واقفًا باستعداد كأنّه تمثال لا يتحرَّك أجاب:

ـ أنا خادمك سيِّدي المارشال.

ـ لن أحدِّد لك شيئًا وسأترك الحرِّيَّة لك. لا أريده أن يموت لأنَّ موته سيَخلق لنا مشكلة. فقط أريد أن تذلّه. وعندما يصبح ليِّنًا مثل العجينة نستطيع إخراجَه من السجن.

فهم الكولونيل عمر المهمّة. عليه أن يفعل مع هذا الـ «عبد السلام» ما يفعله عادةً مع كلّ الذين وقعوا تحت يده: الإذلال... ولكنْ بجرعة قويّة؛ وإذا أمكن تحويلُه إلى نذل فذلك هو المطلوب. استسهل الكولونيل الأمر؛ فلطالما حوَّل أُناسًا كانوا مناضلين وأبطالًا إلى وشاةٍ في حقّ رفاقهم وأصدقائهم وأهلهم... لا بل إنَّ بعضهم كان يُظهر من أفانين النذالة ما يتفوّق فيه على الأنذال الأصليين، أيْ عن الذين خُلقوا والنذالةُ تسري في عروقهم.

احتاج سلام إلى ثلاثة أيّام ليدرك أنَّ الحزب ليس هو المستهدف، إذْ لم يطالبْه أحد بأيّة معلوماتٍ عنه. وفكَّر: هي عمليّة انتقام شخصيّ من طرف المارشال الذي عُرف عنه الحقدُ الشديدُ تجاه كلّ مَن يَعتبر أنَّهم أساؤوا إليه. ويُحكى أنّ المارشال، عندما كان طالبًا في المدرسة العسكريّة، صفَعه أحدُ المدرِّبين نتيجةً لسوء أدائه؛ وبعد أكثر من عشرين عامًا على هذه الحادثة، عندما استلم المارشال السلطة، قام بزجّ هذا المدرِّب في السجن خمسَ سنوات كاملة رغم أنَّه كان قد تجاوز السبعين. ووصل سلام إلى استنتاج واضح: ما هذا كلُّه

إلَّا انتقام يهدف إلى أن يكسروه. وقرَّر ألَّا ينكسر! وقد تأكَّد من ذلك في اليوم الرابع، عندما صرخ في وجه الكولونيل الذي كان يشرف على الجلَّادين وهم يعذِّبونه:

ـ ماذا تريد منِّي؟!

ابتسم الكولونيل، وقد اعتبر أنَّ هذه الصرخة هي أولى بشائر الانتصار على إرادة سلام. أشار إلى الجلَّادين بالتوقُّف واقترب من سلام الممدَّد أرضًا. وضع حذاءه على صدره وضغط بقوَّة وهو يقول له من بين أسنانه:

ـ ما أريده شيء بسيط وسهل: أن تكتب طلبًا تَسترحم فيه القائدَ المفدّى المارشال، ومن ثم ترسل برقيَةَ تأييدٍ لسياسة سيادته الحكيمة والشجاعة. في خمس دقائق تستطيع أن تفعل ذلك. عندها سأوصلك بسيّارتي، ومعك زوجتك، إلى البيت. ما رأيك؟

ـ لا أنت ولا مارشالك ستَحْلمان بحصول هذا يومًا.

استمرّ التعذيبُ والضغطُ النفسيّ قرابة العام. لم يترك الكولونيل وسيلةً إلَّا واستخدمها، لكنْ من دون فائدة. اشتُهر أمرُ سلام عند عناصر المخابرات والجلّادين. جلّادٌ مشهورٌ بقسوته وساديّته روى لزملائه أنَّه بدأ بضرب سلام على قدميْه بعصا الخيزران بقوّة شديدة منتظرًا منه أن يقول: «آه أو آخ...» لكنّ هذا لم يحصل، بل انكسرت العصا ولم يسمعْ ما يريده. العصا الثانية... الثالثة، وهكذا حتى تكسَّرت العصا السادسة، مترافقةً مع بدء غياب سلام عن الوعي. وبينما هو يغيب عن الوعي صدرتْ منه زفرةٌ محمّلةٌ بكلمة «آخ»... ويضيف «الجلَّاد: عندما سمعتُ هذه الكلمة استرحتُ!! ما هذا الرجل؟ كأنَّك تضرب حائطًا!».

وضّح سلام لاحقًا هذا الأمر بعد خروجه من السجن بسنة تقريبًا.

ففي جلسة ثنائيّة حميمة بعد الكأس الثانية أو الثالثة:

ـ كان أبي يحضر يوميًّا. لا تسألني... لا أستطيع أن أحدِّد إنْ كان حضورُه حقيقيًّا أمْ أنّ الأمر لا يعدو أن يكون وهمًا يتملّكني. كنتُ أُسندُ رأسي إلى صدره، فيضع يدَه على رأسي، فأشعر بطمأنينة آسرة. أثناء التعذيب كنت أرى يديه وهي تردّ الضرباتِ عنّي. من هنا كنت أستطيع أن أبصق على الكولونيل وأجعله يخرج عن طوره.

عندما خرج الكولونيل عن طوره بدأ بتعذيب مارال أمام سلام، ثم هدَّد باغتصابها أمامه! ونفَّذ تهديدَه بعد أيَّام قليلة: مزَّق ثيابَها بيديه من الأمام ببطء، وتلذُّذ وهو ينظر في عينيْ سلام المرميّ على الأرض ويداه ورجلاه مقيّدة.

سيقول لي سلام في تلك الجلسة الحميمة بعد خروجه من السجن:

ـ لا أستطيع أن أصف مشاعري أو أحدِّد بماذا كنت أفكِّر! لكنّني أعترف أنَّها أكثرُ مرَّةٍ شعرتُ فيها بالضعف وكنتُ على وشك الانهيار! شعرتُ بشوقٍ عارم إلى مارال وإلى جسدها العاري أمامي، ممزوجًا بالحبّ والعطف والخوف عليها. وفكَّرتُ حينها: ماذا أريد من كلّ هذا؟ من أجل ماذا أعرِّض نفسي وزوجتي لكلّ هذا العذاب وهذا الألم؟ لقد مرَّت بي لحظاتٌ كثيرة وأنا تحت التعذيب أو في الزنزانة شعرتُ فيها بنفاد قدرتي على التحمُّل، وراودتني نفسي عدَّة مرَّات أن أعطيهم ما يريدون وأنهي كلّ شيء. لكنّ لحظة اغتصاب مارال من قِبل هذا الكلب كانت شيئًا آخر. كنتُ متلاشيًا، لا أملك ذرَّةً من قوّة لفعل أيّ شيء. لو كانت ذرّةُ القوَّة هذه عندي لقلتُ له أن يتوقَّف عن اغتصاب مارال وأعطيه ما يريد!

عندما خلع الكولونيل ملابسَه أيقنتْ مارال أنَّ الأمر جدِّيّ، لا

مجرَّدُ تهديد. بدأ بمداعبة صدرها وعضوها التناسليّ، فبدأت المقاومة ويداها مقيَّدتان إلى الخلف. واحتدمت المعركةُ بينهما عندما أراد أن يمدِّدها على الأرض. بصقتْ في وجهه وهي تقاوم محاولتَه إنزالَها أرضًا. جنّ جنونُه وانهال عليها صفعًا وركلًا حتى أوقعها على الأرض. ورغم ذلك استمرَّت مقاومتُها. انهالت ركلاتُه القويّةُ على رأسها وصدرها. لم يعد ينظر إلى سلام متشفّيًا. أصبحتْ معركته الشخصيّة مع مارال مزيجًا من الغضب والاستثارة، إلى درجة أنَّها عندما فقدت الوعيَ وأراد تكملة عمليّة الاغتصاب لم يستطع أن يحقِّق انتصابًا كاملاً، فاضطر إلى حشر عضوه في عضوها بواسطة إصبعه. حين قام من فوقها وعضوُه المتدلِّي يلمع، بصق عليها من دون أن ينظر إلى سلام. حمل ثيابه ودخل غرفته وعلاماتُ الاشمئزاز مرسومةٌ على وجهه.

استعادت مارال رشدَها في زنزانتها. تمالك سلام نفسَه في زنزانته. كانت ليلةً قاسيةً جدًّا على الاثنين، فلم يستطيعا النومَ إلَّا لمامًا.

في اليوم الثاني تغيَّرت المعاملة جذريًّا. وقد دُهشا حينما فتح السجّانُ لهما البابَ ظهرًا وطلب منهما بلطف أن يتبعاه. وإذ كان يسير إلى جانبها خلف السجّان مدّ يدَه وأمسك يدها. ضغط عليها ضغطةَ حبٍّ وتعاطفٍ. اغرورقتْ عيناها بالدموع وضغطتْ يدَه بقوّة.

استقبلهما مديرُ السجن في غرفته وأعطى كلًّا منهما حقيبةً مليئةً بالثياب تمّ إحضارُها من البيت. أثناء العودة، وقبل أن تدخل زنزانتها، وأمام السجّان، أحاطها بيديه وضمّها إلى صدره. تعلّقتْ به قليلًا، ولكنّ السجّان، وبأدبٍ جمٍّ، طلب منها الدخول، ثم أغلق الباب. وكذلك فعل مع سلام.

من خلال التقارير التي كان الكولونيل عمر يرفعها إلى رؤسائه

لتصل إلى المارشال، كان هذا يتابع وضعَ سلام داخل السجن بغيظ شديد. ورغم ذلك أصدر في يوم الاغتصاب أمرًا بإيقاف الضغط على سلام ومارال لثلاثة أسباب: الأوَّل أنّ المارشال حاول، عبر مبعوثيه، استغلالَ غياب سلام عن قيادة الحزب وضغط عليهم من أجل أن يعلنوا تحالفَهم وولاءهم لنظامه، لكنّ قيادة الحزب لم تأخذ قرارًا لأنَّها كانت عاجزةً عن ذلك في غياب سلام. السبب الثاني أنّ بعض منظّمات حقوق الإنسان الدوليّة أخذتْ ترفع صوتها أكثرَ فأكثرَ مندِّدةً بالقمع الذي يمارسه المارشال، وتورد قضيّةَ سلام برهانًا على هذا القمع. السبب الثالث والأهمّ هو أنّ الكثير من مسؤولي الدول التي يعتبرها المارشال صديقةً لنظامه يثيرون مسألة اعتقال سلام، وكلُّهم من الذين سبق أن ربطتهم علاقاتُ صداقةٍ شخصيّةٍ مع سلام.

أَوقف المارشال الضغطَ والتعذيب، لكنَّه قرر الاستمرار في سجنه: «اهملوه تمامًا... دعوه يتعفّن في زنزانته». واستمرّ هذا الإهمال عامين آخرين، إلى أن بدأتْ ملامحُ معركةٍ كبيرة تبرز في الأفق، إذ إنّ أحد التنظيمات الإسلاميّة اتّخذ قرارًا ببدء الثورة المسلّحة ضدّ «النظام الطائفيّ العلويّ»، وأَعْلن أنّ صبر أهل السُّنَّة والجماعة قد نفد من الظلم الذي يمارسه العلويُّون ضدّهم. لحظتَها نصحه الأجنبيُّ الغامض:

ـ المعركة القادمة ستكون كبيرةً ومصيريّة. يجب أن تحشد حولك كلَّ الأصدقاء، وتقلِّل قدرَ الإمكان من الأعداء. الحرب على أكثر من جبهة خطيئةٌ قد تكون مميتة. لذلك من الأفضل إطلاقُ سراح سلام، مع محاولة استرضائه لكي تزول مرارةُ السجن من نفسه.

أحدُ أهمّ معاوني المارشال اجتمع إلى سلام ومارال في مركز المخابرات. حيّاهما تحيّةً مليئةً بالودّ والاحترام. طلب إليهما الجلوسَ وبقي واقفًا، وقال:

ـ سأحدِّثكَ بصراحة مطلقة. لا تستطيع أن تتصوَّر مدى غضب سيادة المارشال عندما علم بما جرى لكما. أنت تعرف أنّ مشكلتنا في هذا البلد هي البطانة الفاسدة. لا يمكن أن يعلم المارشال بكلِّ شي ويقوم بحلِّ كلّ المشاكل؛ فهو في النهاية إنسان، وطاقتُه محدودة. لقد حَمّلني أسفَه، وقد تمّ تشكيلُ لجنة تحقيق لمعرفة المسؤول عن هذا الأمر، وستتمّ محاسبتُه بقسوة!

اصطحبهم في سيّارته إلى البيت، وأعاد اعتذارَه وأسفَ المارشال. وختم بالقول:

ـ رُبَّ ضارَّةٍ نافعة. أرجو أن يكون تعارُفنا هذا بدايةً لتعاونٍ مثمرٍ بيننا لما فيه خيرُ هذا البلد، وخيرُ الجميع!

ساد الارتباك بين سلام ومارال بعد ذهاب مساعد المارشال. لم يَعْرفا كيف ستكون طبيعةُ العلاقة بينهما، وكيف يفكِّر الآخر بكلٍّ ما جرى خلال السنوات الثلاث التي قضياها في السجن، وخصوصًا مسألة الاغتصاب. خفَّف من هذا الارتباك وجودُ معيوف وهو يدور حولهما فرحانًا جذلًا من دون أن يفعل أيَّ شيء. ثم ما لبث الناس أن بدأوا بالتوافد. كنتُ ولميس من أوائل الواصلين، وطغت العاطفةُ الجيّاشة على اللقاء: عناق طويل، قبلات ودموع، قد تكون دموعَ حزن وأسًى أو دموعَ فرح، لكنّها في كلّ الأحوال عبّرتْ عن طبيعة العلاقة بيننا. ومع زحمة الأعمال واللقاءات ومرور الأيَّام والشهور ازدادت علاقةُ سلام ومارال متانةً وخلت من المشاحنات التي كانت تحدث بينهما سابقًا. اعترف لها بأنَّه ما زال يحبّها كأوَّل يومِ التقاها، وأنّ الاغتصاب لم يؤثِّر في ذلك شيئًا.

سلام، الذي كان يُقال عنه دائمًا إنَّه لا يملك دافعًا للنضال والمعارضة، أصبح لديه دافع شخصيّ قويّ، هو الحقد على المارشال ونظامه، والرغبةُ في الانتقام. مارال، كذلك، تركت التجربةُ لديها

جرحًا عميقًا، تحوَّل إلى ندبةٍ من الحقد لا تزول إلَّا بالثأر والانتقام. وتوصَّل الاثنان إلى قناعة واحدة: «هذا النظام الذي جاء بالعنف، ويستمرّ بالعنف، لن يزول إلَّا بالعنف». وهي قناعة احتفظا بها لنفسهما أكثر من عام، يتناقشان بشكل شبه يوميّ في ما يجب عليهما أن يفعلاه، أو في ما يستطيعان أن يفعلاه، واتّجه تفكيرُهما إلى استخدام القوّة لإزاحة المارشال ونظامه. كلّ تجارب الكفاح المسلَّح وحرب العصابات استعرضاها. درسا كلَّ الكتب الموضوعة عنها: التجربة الصينيّة وماو تسي تونغ، التجربة الكوريّة، هوشي منه، وغيفارا، وكيم ايل سونغ. وأخذ بتسريب هذه الكتب إلى القواعد الحزبيّة. وبدأ سلام يعمل بدأب وثبات واضعًا الخططَ الدقيقةَ لتحقيق الهدف الذي يضجّ في رأسه: إعلان الكفاح المسلّح والحرب الشاملة ضدّ نظام المارشال.

رغم قربنا الشديد منهما إلَّا أنَّهما لم يفاتحانا بالموضوع إلَّا بعد حوالى سنة وبضعة شهور على خروجهما من السجن. بدايةً لم أعتقد أنَّ الأمر جدِّيّ، لكنْ عندما عدّد الخطوات والأعمال التي نفّذاها على هذا الطريق أيقنتُ أنَّ الأمر أكثرُ من جدِّيّ. وفي الحال ترسّختْ لديّ قناعةٌ قويّةٌ قلتُها لهما فورًا:

ـ هذا جنون... إنّه انتحار لكما وللحزب!

سمعني سلام وسكت وهو يهزّ رأسَه. لكنّ النقاشات بيني وبينه على وجه الخصوص، وفي حضور مارال أو لميس أو كلتيْهما في بعض الأحيان، استمرَّت ستَّة شهور، لم يتزحزح خلالها عن موقفه، وإنْ أصبح أخيرًا يستمع إلى حججي وآرائي بانتباهٍ أكبر. وخلال هذه الفترة اندلعتْ حوادثُ العنف في البلاد بين الإسلاميين ونظام المارشال، فعمَّت الفوضى في كثير من المناطق والمدن جرّاء هذا

الصراع الذي بدا أنَّه صراعٌ مصيريّ للطرفين: إمّا أن تَقتل أو تُقتل. وأخذ سلام يراقب ما يجري ويدرس أدقّ التفاصيل ويستخلص النتائج:

- لقد أخطأ الإسلاميُّون عندما جعلوا حربَهم تقتصر على بعض مراكز المدن. كان يجب أن يعتمدوا على الريف أكثر.

- لم يجعلوا مركزَ حركتهم في الجبال حيث لا يستطيع الجيش أن يتحرَّك بحرِّيّة.

- لم يعطُوا الجانبَ الإعلاميَّ حقَّه.

- ليست لديهم حاضنة شعبيّة تحميهم ويذوبون فيها عند الضرورة.

- يجب أن ننتظر نتائجَ هذا الصراع الدائر في بلدنا. الطرفان عدوَّان لنا. حتى المنتصر منهما سيخرج ضعيفًا، وعندها يجب أن نبدأ.

طَلب منِّي في يومٍ ما أن أرافقه ليريني العملَ الذي أنجزه. ركبنا السيّارة وتوجّهنا بدايةً نحو الغرب ثم انحرفنا شمالًا. أخيرًا بدأنا بتسلُّق جبل وعر، طرقاتُه ضيِّقةٌ وملتوية. مساءً وصلنا إلى قرية صغيرة قريبة من قمَّة الجبل. استقبلَنا شابٌّ عرفتُه، من آل الشيخ الأبعدين وعضوٌ في حزبنا. بقينا في هذه المنطقة يومين. اتّضح لي حينها مدى الجدِّيّة في العمل الذي كان قد أنجزه سلام.

لقد أعاد بعضًا من الصفائح المليئة بالذهب، وهي التي سبق أن أرسلها إلى بلاد أولاد العمّة، إذ كان يُدرك أنَّ ميزانيّة الحزب لا تكفي لتمويل عمل بهذا الحجم. وبواسطة قريبه الذي يثق به كثيرًا استطاع خلال السنتين الماضيتين أن يشتري، بأسماء أعضاء الحزب المتحمِّسين جدًّا، الكثيرَ من البيوت والعقارات المنتشرة على كامل مساحة الجبل. كلّ بيت أو عقار جعل فيه مخبأً وملأه بالأسلحة المختلفة. والمخطَّطُ له أن تكون هذه مراكزَ وقواعدَ تنطلق منها أرتالُ الكفاح المسلّح في ساعة الصفر!

جلسنا أنا ولميس في اليوم الثاني لعودتنا نشرب القهوة صباحًا. أخبرتُها بكلِّ شيء، وبما توصَّلتُ إليه من نتائج، وأنّني أنوي تقديمَ استقالتي من الحزب، إذ لا يمكن أن أسيرَ في طريق الجنون هذا، وأنّني إذ أخبرها بذلك لا أطلب منها أن تفعل مثلي، بل لها مطلقُ الحرِّيَّة في القرار الذي تأخذه.

وكعادتها لم تفوِّتْ فرصةَ توجيهِ نقدٍ لاذع:

ـ تقول إنَّ لي مطلقَ الحرِّيَّة بلهجة وكأنّك أنت الذي يعطيني هذه الحرِّيَّة. شكرًا على كرمك! هذا أوَّلًا. أمَّا ثانيًا فهو لماذا أنت دائمًا تسبقني بخطوة؟ لو لم تتّخذْ هذا القرارَ اليوم لكنتُ قد اتّخذتُه بنفسي غدًا. وعندها يا سيِّدي الكريم لن أترك لك مطلقَ الحرِّيَّة، لأنّني أحبُّكَ، ولأنَّ حياتَكَ ليست ملْكًا لك فقط... يا أستاذ حرِّيَّة!

ليلًا، حين كنّا مع سلام ومارال، أخبرناهما بقرارنا. سألتْ مارال بحدّة إنْ كنّا قد فكَّرنا جيِّدًا، وهل قرارنا نهائيّ. نعتتنا بالمتخاذلَيْن والجبانَيْن. وبأنّنا لا نجيد سوى الثرثرة، وعند أوَّل عقبة نرتجف خوفًا ونتراجع! استمعنا ثلاثتنا بهدوء إليها. حين انتهت نهض سلام وسحبني من يدي إلى غرفة داخليّة، وقال:

ـ أحترمُ رأيَكَ كثيرًا. لا تستمع إلى ما تقوله مارال ـ فهي متحمِّسة جدًّا. سأعمل على أن يُصدر الحزبُ قرارًا بفصلك ولميس؛ فهذا يحميكما مستقبلًا. ثم هناك شيء آخر أودّ أن أخبرك به. إذا ضاقت بك الأحوالُ ولم أكن إلى جانبك فأنت، ولا شكّ، تَذْكر ذلك الشيخ ابن عمّ أبي الذي زرناه فور خروجنا من السجن. لقد تركتُ لك أمانةً عنده. خذْها عندما تريد. ونصيحتي أن تتركها لحين الحاجة.

رغم صدور قرار الفصل فإنَّ علاقتنا الاجتماعيّة والصداقيّة

استمرّت كما هي. لكنّنا لم نعد نتكلّم في الشؤون السياسيّة والحزبيّة بالطريقة السابقة.

أمّا الصراع بين المارشال والإسلاميين فقد انتهى بانتصارٍ كامل للمارشال، إذ قَتَل عشراتِ الآلاف، وسَجَن مثلَهم، ومَنْ استطاع الفرار نجا. ورغم ذلك استمرَّ سلام في استعداداته، على ما توحي به الملاحظاتُ التي أراها خلال اجتماعنا بهم.

بعد عام جاء إليّ سلام وحده وطلب أن نخرج من البيت من دون لميس. في الطريق قال:

ـ اسمع يا صديقي. لا تتفاجأ! الآن، وبعد كلّ هذه المدّة، وصلتُ إلى النتيجة التي وصلتَ إليها: الكفاح المسلَّح جنون وانتحار! ولكنْ أريد منك أن تقول لي كيف أستطيع التراجع؟ كلَّ هذه السنوات وأنا أُقنع الناسَ بهذه الفكرة، وعندما اقتنعوا... هل أستطيع فجأةً القولَ لهم: «لقد كانت فكرةً غيرَ صحيحة»؟ تأكّدْ يا أخي أنّني حتى لو قلتُ هذا فلن يتراجعوا! ومارال الآن أقوى منّي في الحزب لأنَّها أشدّ حماسًا لهذه الفكرة، وشبابُ الحزب يعبدونها. بعد أيّام قليلة سيُعقد مؤتمرُ الحزب الذي سنقرِّر فيه إعلانَ الكفاح المسلّح.

طَلَبَ إليَّ حضورَ المؤتمر لأنَّ الكثير من الأعضاء ما زالوا يحترمونني رغم فصلي من الحزب، ولعلّي في الكواليس أستطيع أن أدعم موقفَ سلام ضدّ إعلان الكفاح المسلَّح. ومارس ضغوطًا هائلةً حتى قبلت القيادةُ حضوري.

الصخب هو السمة الأساسيّة للمؤتمر. فعلى الرّغم من حسن التنظيم فما إنْ بدأ سلام الكلامَ وتبيَّن الحضورُ مضمونَ حديثه حتى ارتفع الدويُّ مع بعض صرخات الاستغراب والاستهجان. مارال كانت مذهولةً من التغيير الجذريَ في موقف سلام، وبدا أنّه لم يُطْلعها عليه،

ولم تُطلع بعض الأعضاء الذين سبق أن بذل معهم جهودًا جبّارةً حتى يقتنعوا بعكس ما يقوله الآن! وحصل انقسامٌ حادّ بين أعضاء المؤتمر: قلَّة، وهم أَصلًا غيرُ مقتنعين بطرح الكفاح المسلّح، ومعهم بضعةُ أعضاء من الذين يصطفّون تلقائيًّا خلف رئيس الحزب، أصبحوا كتلةَ سلام التي تمثّل أقلِّيَّةً في المؤتمر؛ أمّا أكثريّة الأعضاء فقد اصطفُّوا خلف مارال. وكان من المقرّر أن يستمرّ المؤتمر يومين، ولكنّه مُدِّدَ يومًا إضافيًّا.

مارال نعتتْ سلام وكتلتَه بعباراتٍ جارحة، وأذهلتني نظرتُها المحتقِرة التي ترشقه بها. تساءلتُ من أين ينبع كلّ هذا؟ من المستحيل أن يكون وليدَ اللحظة أو نتيجةً للخلاف السياسيّ. أيكون نتاجَ سنواتٍ طويلةٍ من الإحساس بالقهر والإذلال الطبقيّ؟ أمْ نتاجًا للفترة التي تبدأ فيها الزوجةُ بكراهية زوجها؟ أمْ كِلا الأمريْن معًا؟ وفي خضمّ الأجواء هذه وصلت الأمور أكثرَ من مرَّةٍ إلى حدّ العراك بالأيدي.

في نهاية اليوم الثالث كنت أقف في إحدى الزوايا وبيدي كأس من الشاي الساخن. اقترب منّي سلام، وأطال النظرَ في عينيّ كأنَّه يراني لأوَّل مرَّة. وضع يده على كتفي. قال وهو يطرق برأسه قليلًا:

ـ لقد تعبتُ يا أخي... تعبتُ كثيرًا. أريد أن ينتهي كلّ هذا وبسرعة.

تركني وخرج إلى الشرفة. لمحتُه وهو يجلس وحيدًا وقد مدّ رجليه إلى الأمام. أعاد رأسه إلى الخلف وهو مغمض العينين.

شخصٌ إلى جانبي أمسك يدي وسألني سؤالًا فأجبتُه. استغرق الأمر دقيقةً أو دقيقتين، ثم التفتُّ إلى الشرفة، وكنت أريد أن أذهب لأجلس مع سلام، لكنّي لم أجدْه ولم أجد الكرسيّ الذي كان يجلس عليه. خرجتُ إلى الشرفة، فلم أجد أحدًا!

بحثتُ عنه طويلًا، ثم بدأتُ أسأل بقيّة الأعضاء. بعد قليل بدأ الكلّ يبحث عنه، لكنْ من دون جدوى. لقد اختفى رئيسُ الحزب! وعلّق أحدُ أشدّ أنصار مارال حماسًا بالقول: «لقد لاذ بالفرار!». تجمّع في عينيْ مارال لحظتَها كلُّ الخوف واليأسِ والندم، ومُدِّد المؤتمرُ يومًا آخر.

لم يتمّ العثور على سلام، وتقرّر إعلانُ الكفاح المسلَّح فورًا. حتى الأقلِّيّة، في غياب زعيمها، التزمتْ بالقرار. أنا وأربعة أشخاص فقط رفضنا الاشتراكَ في ما أسميناه «المهزلة... المأساة».

في الطرف الآخر، وعلى مدار الأيّام الأربعة، كان المارشال ومجلسُه السرِّيّ المؤلَّف من كبار ضبّاط الاستخبارات والجيش ـ وكلُّهم من العلويين ـ في اجتماع دائم. ولأوَّل مرَّة ينضمّ الأجنبيُّ الغامض إلى اجتماعات هذا المجلس. كانوا يتابعون مجريات المؤتمر أوّلًا بأوّل؛ فقد نجح أحدُ أعضاء المؤتمر المرتبطين بالمخابرات في زرع أجهزة تنصُّتٍ تنقل كلَّ ما يجري في المؤتمر إلى المارشال وأجهزته. اقترح أحدُ الجنرالات اعتقالَ كلّ المجتمعين فورًا. جنرالٌ آخر اقترح قصفَهم بالطيران وإبادَتَهم! شخصان لم يتكلّما منذ بداية الاجتماع: المارشال والأجنبيّ. التفت المارشال صوب الأجنبيّ وسأله بعينيه، فتنحنح الأجنبيُّ وهو متوجِّس من الجنرالات المحيطين به، وكان قد تساءل بينه وبين نفسه: «هل هؤلاء هم مَنْ يحكمون البلد؟! حتى الآن لم أجد بينهم رجلَ دولةٍ مسؤولًا. يليق بهم أن يكونوا رجالَ عصابات أو قتلةً مأجورين أكثرَ من أيّ شيء آخر». وأجاب على سؤال المارشال:

ـ مع احترامي لكلِّ الآراء التي طُرحتْ هنا، فإنّي أرى أنّنا أمام فرصة تاريخيّة. لقد سَحقتَ، يا سيِّدي المارشال، الإسلاميّين، والآن

عليك سحقُ اليساريين. الأفضل أن ندعهم حتى يُكملوا المؤتمر، ومن ثم يستقدموا مقاتليهم الذين قد يجيدون كلَّ شيء إلَّا القتال، ونحصرهم في هذا الجبل الذي لا تتعدّى مساحتُه ألفيْ كيلومتر مربّع. أنا أعرف أنَّ الجيش يستطيع القضاءَ عليهم في بضعة أيَّام، لكن الأفضل أن نتركهم محاصرين أطولَ مدّةٍ ممكنة. نفتح لهم طرقًا سرِّيَّةً لكي يتسلَّل من خلالها كلُّ المعارضين لنظامك، أيْ نجعلها مصيدةً! إضافةً إلى ذلك، نخلق ضجَّةً إعلاميّةً كبيرة حول خطر التمرُّد والثورة والإرهاب، وبهذا تستطيع أن تفعل في الداخل ما تشاء بحجَّة أنَّك تواجه تمرُّدًا مسلَّحًا. والغرب كلّه سيدعمك خوفًا من وقوع البلاد في قبضة اليساريين!

غليانُ الغضبِ والحقدِ في داخل المارشال كان يدفعه إلى سحق التمرُّد فورًا، ومن دون رحمة. لكنّ المنطق الذي قدَّمه هذا الأجنبيّ هو الأفضل! وعلى هذا رُسمتْ خطّةٌ لمواجهة التمرُّد.

انهمكتْ مارال في تنظيم التمرُّد وقيادته. خاب أملُها قليلًا إذ كانت تتوقَّع أن يكون لديها آلافُ المقاتلين، لكنْ لم يلتحقْ بـ «الثورة» سوى بضع مئات. في الأيَّام الأولى قام «الثوّار» بمهاجمة عدَّة مراكز للشرطة في المنطقة التي ينتشرون بها. قُتل عدَّة أفراد من الشرطة، وأُسِر الباقون، الذين لم يلبث أن أصبح أمرُ المحافظة عليهم كأسرى وإطعامهم عبئًا ثقيلًا، فأُطلق سراحُهم ليعودوا إلى بيوتهم.

مع اقتراب نهاية العام الأوَّل على بدء التمرُّد تبيَّن لمارال أنَّ مسألة اختراق الحصار الدائريّ المضروب حول مقاتليها مستحيل. لم يعد أيُّ مقاتل من المجموعات التي حاولت اختراقَ حصار الجيش؛ أغلبُهم قُتل والباقي أُسِر. سكّان القرى التي احتضنت المقاتلين منذ البداية انقلب موقفُها شيئًا فشيئًا؛ فالجيش الذي أنشأ خطوطًا للحصار

لا يتجاوزُها، ولا يسمحُ لأيٍّ كان بتجاوزها، جَعَلَ مسألةَ تصريف منتجات سكّان القرى الزراعيّة من المستحيلات. ومنذ بداية الحركة، وبشكل يوميّ منتظم، تقوم طائرةٌ بغارة جوّيّة على إحدى القرى، قاصفةً منازلَ المدنيّين، فتهدم بعضَها، وتقتل وتجرح العديدَ من سكّانها. وما زاد في نقمة الأهالي، الذين هم أساسًا من سكّان الجبال المحافظين، أنّهم خلال العام الأوّل اكتشفوا حالاتِ حَمْلٍ بعض بناتهم اللواتي أقمْن علاقاتٍ بالشباب المقاتلين، متستّراتٍ بالفوضى العارمة التي سادت المنطقة، وقد قُتلتْ عدّةُ فتيات من قِبل ذويهنّ درءًا للفضيحة وغسلًا للعار. حتى المقاتلون أصابهم الملل وغدوا متوتّرين وكثرت بينهم المشاحناتُ، التي كثيرًا ما يتمّ فيها تبادلٌ لإطلاق النار يؤدّي إلى إصابات أو وَفَيات! رغم ذلك تواصل قدومُ بعض المقاتلين الجدد مخترقين الحصارَ من طُرُقٍ سرّيّة؛ لكنْ عندما أرادوا استغلالَ هذه الطرق للتسلُّل بالعكس إلى خلف خطوط الجيش تبيَّن أنَّ هذه الطرق ذاتُ اتّجاهٍ واحد، فأُبيدوا.

أحدُ القادمين الجدد، وكان يعرف أهلَ مارال، أبلغها بموت مهران. وقد قبلت الكنيسةُ، بعد ضغوط أصدقائه، أن يُدفن في مقابر الأرمن!

ـ وأمّي... ماذا جرى لأمّي بعد موت أبي؟

سكت المقاتلُ طويلًا. لم يكن يريد أن يجيب على سؤال مارال، لكنَّها ألحَّت عليه وقد أطبقتْ أصابعَها على كتفه.

بعد دفن مهران أوصل أصدقاؤه الأمّ نازليك إلى البيت. وقفتْ أمام الباب وانصرف الأصدقاء. ظلّت واقفةً ساعاتٍ طويلة، ثم جلست على الأرض. كان المارَّة والجيران ينظرون إليها باستغراب. تقدّم أحدُهم وسألها عن سرِّ جلوسها هكذا:

ـ لديّ ولدان، سيأتيان الآن وقد لا يعرفان طريقَ البيت لأنَّهما ما يزالان صغيرين!

ظلّت على وضعها هذا أكثرَ من أسبوع. رفضتْ دخولَ البيت أو تناولَ الطعام. أحدُهم وضع إلى جانبها إبريقَ ماءٍ كانت تشرب منه بشكلٍ آليّ. أخذ الأطفالُ يتجمَّعون حولها مستطلعين بدايةً، ثم جعلوها مادةً للعبِهِم، ولكنّها لم تعبأ بشيء: لقد كانت في مكانٍ آخر!

لا أحد يعرف كيف وصل الأمرُ إلى الشيخ عبد الهادي الذي لم يغادر فراشَ المرض منذ أكثر من عامٍ، فأرسل مَنْ أحضرها بالقوّة. وفي الخالديّة خصَّص لها غرفةً وخادمةً. في اليوم الثاني جاءت الخادمة ووقفتْ أمام الشيخ:

ـ يا عمِّي الشيخ... المرأة العجوز الغريبة، البقيّة بحياتك.

دُفنتْ في مقبرة عبد الله التي أنشأها والدُ الشيخ عبد الهادي قبل أكثر من سبعين عامًا. كان منظرُ قبرها نشازًا بلون ترابه وارتفاع هذا التراب وسط آلاف القبور القديمة التي أصبحتْ تقريبًا على مستوى الأرض.

تلقّت مارال هذه الأخبارَ بجمود. لم تستطع أن تبكي. بقيتْ ثلاثة أيّام مستلقيةً على فراشها، المؤلَّفِ من البطّانيّات فقط، داخل الكهف الواسع الذي يُعتبر مقرًّا للقيادة. الموت يحيط بها من كلّ جانب. وسلام! أين سلام؟ خاطبتْ نفسها:

ـ كوني عاقلة يا مارال... سلام انتهى وغادر حياتَكِ إلى الأبد.

منذ عدَّة أشهر انتابتها بعضُ الأعراض: حرارة، وتعرّق زائد، تعقبهما موجةٌ من البرودة. كمِّيّة كبيرة من الاكتئاب تجثم على صدرها وتسدّ حلقَها. عرفتْ، وهي الطبيبة، ما تعنيه هذه الأعراض: إنَّ الشباب على وشك الوداع! حاولتْ تناسي الأمر وتعزيةَ النفس، لكنَّها لم تفلح.

الاكتئاب تحوَّل، بعد أشهر، إلى وحشٍ من الشبق الجنسيّ، سَكَنَ جسدَها ولم يعد يريد المغادرة. تجاهلتْه، زجَّت بنفسِها في العمل، أنهكتْ جسَدها بالرياضة والتنقُّل بين المواقع مشيًا، حتى إذا جاء الليلُ وهجم الوحشُ بمخالبه استطاعت أن تنام تعبًا. أحيانًا كانت تمشي أكثرَ من عشرة كيلومترات نحو موقعٍ بعيدٍ للمقاتلين، ثم تعود المسافة نفسَها! نجحت في أن تضع مسافةً بينها وبين نفسها. كانت تراقب مارال الأخرى... ذلك الجسدَ الفائرَ الذي يتوق إلى أحضان رجل، تؤنِّبها وتهدِّئها، تذكِّرها بسلام وحبِّ سلام وليالي سلام، تنبِّهها إلى موقعها القياديّ في الحزب والثورة، وبما لا يجوز لمن كان في مثل هذا الموقع أن يفعله. وهكذا استطاعت طوالَ الفترة الماضية ترويضَ الوحش. ولكنْ، بعد أيَّام من التفكير، اكتشفتْ أنّ مارال تلك، مارالَ الأخرى، تميل إلى الشبَّان الصغار الذين هم في العشرينيّات من عمرهم، وأنّ كلّ الذين تاقت إليهم لديهم ما كان موجودًا لدى سلام عندما كان في سنِّهم. إذًا، مارال الأخرى تكره سلام كما هو الآن، ولكنّها تحبّ سلام كما كان آنذاك!

نهضتْ من استلقائها وقالت لنفسها بصوت مسموع:

ـ يا مارال... دعكِ من كلّ هذا وإلّا أُصبتِ بالفصام. عيشي الحياةَ كما تشتهين؛ فالحياة تُعاش مرَّة واحدة.

سكتتْ قليلًا، ثم صرختْ بصوتٍ عالٍ بين صخور الكهف:

ـ نعم... أريد أن أعيش!

لم تتأخّر كثيرًا بعد قرارها هذا. طلبتْ من مساعدها الشابّ، وهو الذي جعلتْه منذ شهور مساعدًا لها لأنَّها استلطفتْه كثيرًا وأُعجبتْ بوسامته، أن يَحْضر إلى كهفها ليلًا لأنَّ لديهما عملًا يجب إنجازُه اليوم. أنجزا كمًّا كبيرًا من العمل إلى أن انتصف الليل، وأيقنتْ أنّ

أحدًا لن يدخل كهفَها بعد هذا الوقت. أخبرتْه أنَّها ستأخذ حمَّامًا سريعًا وتعود إلى العمل. دخلتْ خلف الستارة الموضوعة في إحدى زوايا الكهف. عندما خرجتْ كان جسدُها النظيفُ ملفوفًا بمنشفةٍ كبيرة. كان الشابّ ما يزال جالسًا على الحصيرة الممدودة أرضًا ويتّكئ على وسادة. وقفتْ أمامه بجسدها المشتعل، وبحركةٍ عفويّةٍ أسقطت المنشفة ووقفتْ أمامه عاريةً. بقيا معًا حتى الصباح، ثم تسلّل إلى مكان نومه.

في اليوم الثاني، وبعد مداعبات طويلة، أنزل رأسَه بين فخذيها وتلقّف عضوَها بفمه. صرختْ بصوت عالٍ، وكادت أن تفقد رشدَها. استمرّ الشابُّ وهي تتلوّى تحت وطأة شفتيْه ولسانه. عندما همدا أخيرًا فكَّرتْ: إنَّ سلام يبدو غرًّا وجاهلًا ومتخلِّفًا أمام خبرة شباب هذه الأيَّام!

أدمنتْ مارال هذا الأمر؛ فإذا لم يبادرْ إلى إنزال رأسه بين فخذيها كانت تطلب إليه ذلك، أو تدفعُ رأسَه براحةِ يدها نحو عانتها. واستمرّت علاقتُها بالشابّ قرابة الشهرين، أحسَّت بعدها أنّ جسدَها لم يرتوِ بعدُ؛ وفي الوقت ذاته أصابَ انشدادَ الشابّ بعضُ الفتور. ولم تتأخّر: بقيتْ يومين في إحدى القواعد القريبة لأنَّ شابًّا لفت نظرَها وأُعجبتْ به، فجرّتْه بلطف وبساطة إلى أحد المستودعات المهجورة ودفعتْ رأسه بلطفٍ نحو عضوها قبل أن تسمحَ له بدخولها.

راحت مارال تتنقّل بين القواعد. وخلال أشهر قليلة، مرّ بين ذراعيْها خمسةُ عشّاق، كُلٌّ في قاعدة. ورغم الظروف الصعبة كانت تحتال بألف طريقة لكي تستحمّ مرَّتين أو ثلاثًا في اليوم: «يجب أن يبقى نظيفًا. . . وشهيًّا». وخلصتْ إلى حكمةٍ آمنتْ بها: الجنس هو الشيء الحقيقيّ الوحيد في الحياة. ولامت نفسَها كثيرًا لأنَّها لم

تكتشف هذه الحكمةَ سابقًا.

ولأنّ سلوكًا كهذا لا يمكن إخفاؤه طويلًا مهما اتّخذتْ من احتياطات، فإنّ الحديث الذي بدأ همسًا عنها لم يلبث أن تحوّل إلى علنيّ. قريبُ سلام، الذي كان قد أسَّس كلَّ هذه القواعد، ومعه اثنان من آل الشيخ، صُدموا بسلوك «زوجة عبد السلام» عندما تأكّدوا بعد المراقبة من صحّةِ ما يُشاع. فقرّروا في البداية قتَلها، ثم عَدَلوا عن هذه الفكرة وانسحبوا كلِّيًّا، ولم يعرف أحد كيف استطاعوا تجاوز خطوطَ الجيش والوصولَ سالمين إلى الخالديّة.

القيادة الحزبيّة للكفاح المسلَّح عقدت اجتماعًا سرِّيًّا، وقرّرتْ مواجهتها بالأمر. في الاجتماع استمعتْ بهدوءٍ إلى عضو القيادة، الذي يُعتبر منافسًا لها، وهو يقول بعباراتٍ قاسية:

ـ لا يجوز لمن تَفتح فخذيْها للشباب في الخنادق والحُفَر والكهوف وتحت الشجر أن تكون قائدَةَ للحزب والثورة!

لم يكن لديها مَيْلٌ إلى النقاش أو العراك؛ كانت أشبهَ ما تكون بالمخدَّرة. كانت تريد أن يتركوها وشأنَها؛ فهي الآن مستمتعة جدًّا ولا تريد أن تفسد هذه المتعة. ردّت ببرود:

ـ لا أريد أن أدافع عن نفسي (ثم توجَّهتْ بالكلام إلى منافسها). ولكنْ أعتقد فعلًا أنَّكَ أحقُّ بالقيادة. ولذلك أعلنُ أمامكم استقالتي، وأرشِّح الرفيق ـ مشيرةً بيدها إلى المنافس ـ لكي يتولّى القيادةَ بدلًا منِّي.

كانت هذه حركةً بارعةً منها تجنُّبًا للأسوأ. بقيتْ عضوًا في القيادة بعد أن اقتنع المنافسُ باستقالتها الطوعيّة وتسلُّمه لمركز القائد.

كان ذلك في الشهر العشرين من عمر الكفاح المسلّح. شعرتْ

بوطأة النظرات التي تلاحقها أينما ذهبتْ. وفكَّرتْ: إنَّ نمط الحياة الذي أعيشه الآن هو الذي أريد أن أمارسَه طوال ما تبقّى من شبابي وعمري، ولكنْ ليس مع هؤلاء، ولا في هذه الجبال القاسية. أرادت أن تعيش هذه الحياةَ الجنسيّةَ الغنيّةَ والمتنوِّعة في أجواء الترف والأسرّةِ الوثيرة. سيكون لهذا الأمر طعمٌ آخرُ في المدينة! ولكنْ كيف؟ ولم يَطُلِ انتظارُها الجوابَ، فقد أوحى لها خصومُها بما يجب عليها أن تفعله. همس في أذنها واحدٌ من عشّاقها: إنَّ القيادة ستجتمع لبحث أمر فصلها نهائيًّا من الحزب والثورة. وقرَّرتْ أن تبدأ هجومها. طلبت اجتماعًا عاجلًا للقيادة للبحث في اقتراحاتٍ مهمّة. وفي الاجتماع فجَّرتْ قنبلتَها:

ـ يجب أن نستغلّ الوعدَ الذي أطلقته حكومةُ المارشال بالعفو عن كلِّ مَنْ يلقي السلاح. علينا أن نلقي السلاحَ بشكل جماعيّ لنضمن العفو. إنَّ الطريق أمامنا مسدود، ولا أمل لنا في كسب هذه المعركة أمام جيش ضخم مزوَّد بأحدث الأسلحة، بواسطة مئات من الشباب الأنقياء الرائعين، ولكنْ لا خبرةَ قتاليّةً لديهم. هؤلاء الشباب أمانة في أعناقنا. يجب أن نُعيدَهم إلى أهاليهم وجامعاتهم وأعمالهم. لا أريد منكم الآن قرارًا فوريًّا، ولكنْ فلنأخذْ شهرًا كاملًا مهلةً للنقاش والتفكير.

هكذا ضمنتْ أن لا يتمّ فصلُها خلال هذا الشهر. وقد لقي اقتراحُها صدًى طيّبًا لدى بعض أعضاء القيادة الذين تعبوا من الأمر كلّه. وبدأتْ مارال نشاطًا محمومًا بين الشباب، دغدغتْ فيهم أحلامَ رغبتهم في العودة إلى بيوتهم، وعزفتْ على وتر تعبهم ويأسهم. ولم يمضِ الشهرُ إلّا وكانت قد عادت زعيمةً للغالبيّة الساحقة من المقاتلين. وفي اليوم المحدّد تجمهر أكثرُ من مئة مقاتل مدجَّجين

بالأسلحة وأحاطوا بمكان الاجتماع هاتفين باسمها ومطالبين بعودتها إلى منصب القيادة. خرجتْ إليهم وطلبتْ منهم الانصراف، في خطوةٍ جعلتْ منافسَها يبدو صغيرًا وقزمًا. وبدلًا من المطالبة بالعودة إلى قيادة الحزب والثورة فقد طلبتْ عقدَ مؤتمرٍ عامّ، يحضره جميعُ المقاتلين، من أجل التصويت على اقتراحها.

اثنان وعشرون شهرًا هي المسافة الزمنيّة بين إعلان الكفاح المسلَّح وبين التصويت بأغلبيّةٍ ساحقةٍ على قرار إلقاء السلاح والاستسلام للجيش.

استمرّت المفاوضاتُ مع قيادة الجيش شهرين آخرين. بدأتْ بواسطة بعض أعيان المنطقة الذين اقتربوا من حواجز الجيش وهم يرفعون العلمَ الابيض، وقابلوا ضابطًا صغيرًا، ثم نُقلوا بسيّارة عسكريّة إلى ضابط أكبر، وهكذا إلى أن قابلهم أحدُ الجنرالات الذي أبرق للمارشال بالأمر. لاقى الأمر هوًى في نفس المارشال، الذي بدأ يحسّ في الفترة الأخيرة أنّ إطالة أمد التمرُّد سيؤدّي في النهاية إلى أن يَظْهر هو نفسُه بمظهر الضعيف والعاجز عن إنهاء تمرُّدٍ صغير بهذا الحجم، فأوعز إلى الجنرال بقبول الاستسلام والاجتماع إلى قادة التمرُّد لضمان استسلام جميع المتمرِّدين.

لم تفِ حكومةُ المارشال بالوعد الذي أطلقته بالعفو، معلِّلةً ذلك بأنَّه كان مرهونًا بزمن معيّن. قدّمتْ جميعَ الذين استسلموا إلى محاكماتٍ أخرجتْها بطريقةٍ توحي للعالم أنّ محاكم المارشال نزيهة وعادلة. وكانت الأحكام متناسبةً مع مسؤوليّة كلّ عضو، فحُكم على مارال بالإعدام، وخُفِّف الحكمُ إلى عشرينَ عامًا مع الأشغال، ثم نُقلتْ إلى سجن النساء، وكان عمرُها آنذاك خمسةً وأربعين عامًا.

## (١٥)

استيقظ سلام من نومه وهو يتطلّع باستغرابٍ إلى ما يحيط به: إنّه في الخلوة! آخرُ ما يتذكّره هو أنَّه كان جالسًا على شرفة قاعة المؤتمر شاعرًا بتعبٍ بالغ وقرفٍ شديد. نهض ووقف وسط الخلوة. ما هذا؟ مشى إلى النبع ووضع رأسه تحت الماء البارد. يجب أن يصحو ويُعيدَ ترتيبَ أفكاره. فيما هو يغسل رأسه لفت نظرَه أنّ شعر وجهه قد طال وكأنّه لم يحلق منذ ثلاثة أيَّام أو أربعة. إنَّه يتذكَّر أنَّه حلق لحيته في صباح اليوم الثالث للمؤتمر، فهل يُعقل أنَّه بقي نائمًا يومين أو ثلاثة أو أكثر؟! شعر بجوع كبير فتناول حفنةً من التمر وأكلها. لم يستطع أن يركِّز تفكيرَه على أيّ شيء، فعاد إلى النوم مجدَّدًا. حين استيقظ كان الظلام الدامس يحيط به وهو أكثرُ صفاءً وهدوءًا. تساءل: كيف جئتُ إلى هنا؟

سيقول لي بعد ثلاث سنوات، عندما رأيتُه للمرّة الأولى بعد المؤتمر: ببساطةٍ لا أعرف!

عند الآخرين تختلف الحكايةُ باختلاف الراوي والرواية.

خرج سلام من المؤتمر مملوءًا بالقهر والغضب ومهانةِ الهزيمة. لا يريد أن يصدِّق ما حدث، أو أنَّه لا يستطيع أن يصدِّقه: فهو إنسان

تعوّد أن يأخذ ما يريد من دون عناء، وحياتُه مليئة بالانتصارات، ولكنْ ها هو الآن يُمنى بهذا الخذلان من قِبل أناسٍ أوصلهم بنفسه إلى هنا! غادر القاعة بسرعة. ركب سيّارتَه إلى أن وصل الخالديّة. وهناك، من فوره، دخل الخلوة. وارتمى نائمًا ثلاثة أيّام.

وسط الظلام والهدوء سأل سلام نفسَه عمّا يجب أن يفعله الآن. بدايةً ومن دون أيّ نقاش: يجب البقاءُ في الخلوة، لأنَّ الخروج منها يعني القتل، لأنّه لن ينجو من حقد الماريشال هذه المرّة. ثم إنّه لن يخطر لأيّ كان أنّه مختبئ هنا. وأخيرًا فإنّ في الخلوة دائمًا تمرًا يكفي سنةً أو أكثر.

حاول في الأيّام التالية أن يَشْغل نفسَه بالقراءة، فلم يستطع أن يقرأ أكثر من بضعة أسطر. ثم أخذ يجترّ موضوعَ هزيمته: لقد خسر كلَّ شيء دفعةً واحدةً، حتى زوجتَه، وكلَّ ما بناه من مكانة ومجد خلال أكثر من ربع قرن! ومَن كان الطرف الذي هزمه؟! زوجته التي أحبَّها بكلِّ جوارحه! ما زال يذكر نظرتَها التي أحرقته في اليوم الثاني والثالث للمؤتمر، نظرةً مليئةً بالكراهية والاحتقار. كانت هذه النظرة أشدّ ما يؤلمه في وحدته داخل الخلوة.

ثم بدأ النومُ يستعصي عليه. ينام ساعةً.. أكثر أو أقلّ قليلًا.. ويصحو على عينيْ مارال محمَّلتيْن بتلك النظرة التي تكاد أن تقتله!

«أريد زجاجة من العرق أو الويسكي أو أيّ مشروب آخر. المشروب وحده هو الذي يساعدني على النسيان»: هذا ما قاله في اليوم العاشر لوجوده في الخلوة.

انتظر حلولَ الظلام. خرج من الخلوة. اقترب من القصور. التصق بكومةٍ من التراب على حافّة الطريق. انتظر مرورَ معيوف.

معيوف هو الكائن الوحيد الذي يثق به الآن! وانتصف الليل ولم يأتِ معيوف.

عاد إلى الخلوة وهو ينظر خلفه خيفةَ أن يكون أحدٌ ما قد رآه. وفي اليوم الثالث أتت سيّارة كادت أنوارُها أن تكشفه. توقّفتْ على بعد عشرة أمتار منه. إنّه معيوف وحده!

عرفه معيوف حين اقترب منه. تعلّق بيديه وهو يقبّلهما. أغلق سلام فَمَ معيوف بيده وسحبه إلى داخل الخلوة. أفهمه كلّ شيء.

ذهب معيوف وعاد بعد ساعة محمَّلًا ببضع زجاجات والكثير من الطعام. أعاد عليه سلام التعليمات: «لا تقل ولو لأبي إنّني هنا».

كلَّ بضعة أيّام يأتيه معيوف بالمؤونة خلسةً: أوّلًا الطعام والشراب، وبعد فترة الجرائد والمجلّات... والراديو. أخذ سلام يتابع ما يجري من أحداث أوَّلًا بأوّل. وبعد أقلّ من عام اقترح عليه معيوف الانتقالَ إلى قصره:

ـ ليس في القصر أحد. وإذا حدث أيُّ طارئ فإنّك تستطيع النزول إلى السرداب!

وتمّ الانتقال بُعَيْد منتصف الليل، ولم يترك معيوف أيّ أثرٍ في الخلوة. واستغرب وجودَ الكرسيّ الذي لم يره سابقًا أبدًا: إنّه الكرسيّ الذي كان يجلس عليه سلام على شرفة قاعة المؤتمر قُبَيْل اختفائه!

اهتمّ سلام بتتبُّع أخبار الكفاح المسلّح عبر الراديو ومن الجرائد التي يُحْضرها معيوف من حلب، وكذلك أخبار العائلة التي كان معيوف أيضًا ينقلها إليه. استمع بأسًى إلى خبر وفاة مهران وزوجته، وغصّ حلقُه لخبر استمرار مرض أبيه الذي أقعده في الفراش منذ زمن طويل.

تابع الأنباءَ عن استسلام مارال ورفاقها، وشعر بحزن شديد بعد أن سمع الحكمَ الذي صدر في حقّها. وزاد من اكتئابه وفاةُ والده

عقب ذلك بأيّام قليلة، وأراد أن يلقي عليه نظرةً قبل الدفن. كان الشيخ عبد الهادي قد أسلم الروحَ عند منتصف الليل، وفورًا قَدِمَ معيوف وأخبر سلام الذي قال:

ـ أريد أن أودّع والدي قبل الدفن.

فكّر معيوف وقال:

ـ إذن علينا أن نُخبر الوالدة بوجودك هنا!

دخل سلام مع معيوف خلسةً إلى غرفة نوم والديه التي لم يدخلها مذ كان صغيرًا. أمّ سلام كانت قد طلبتْ من الجميع الانصراف لأنّها ستبقى مع زوجها لوحدها حتى الصباح، بعد أن أخبرها معيوف أنّ سلام سوف يأتي وأنّه يجب ألّا يكون أحد هناك عندما يأتي.

لم تعرفه بدايةً؛ فلقد أصبح بدينًا، ولحيتُه تغطّي صدره، ونصفُ شعره غدا أبيضَ اللون، وعيناه منتفختان وتحيط بهما هالتان سوداوان وقد خبا بريقُهما المألوف. بعد أن عرفته هجمتْ عليه وضمّته وزاد بكاؤها. بقي بين يديها قليلًا، ثم اتّجه نحو أبيه وهو يبكي. جثا إلى جانب سريره وأمسك يدَه الباردة، قبّلها، ودفن رأسه في الفراش وهو ينشج بقوّةٍ وألمٍ وقهر.

في الأيّام التالية أخذتْ أمُّه تزوره في قصره سرًّا، وكان يتابع أولاده من خلف الستارة. وبعد أن مضى على اختبائه ثلاثُ سنوات زارني معيوف في بيتي وقال أمام لميس إنَّ أمّ سلام «أمّي» تريدني أن أزورها!

سافرتُ مع معيوف بعد الظهر. عندما وصلنا الخالديّة ليلًا أدخلني قصرَ سلام. قادني إلى البهو الكبير، وهناك رأيتُه واقفًا ينتظرني. للحظات جمدتُ في مكاني، ثم تعانقنا وجلسنا أرضًا نبكي بلوعةٍ شديدة.

نهضنا بعد دقائق من البكاء، ومن خلال بقايا الدموع تفحّصتُه. هل يمكن ثلاثَ سنواتٍ فقط أن تغيّر الإنسانَ هكذا؟! «الرجل المغناطيس» تحوَّل إلى كومةٍ رخوةٍ من اللحم المتهدِّل، عيناه الجميلتان الرائعتان أصبحتا نموذجًا للعينيْن الكحوليّتيْن المحاطتيْن بهالتين من السواد! ولم أتمالك نفسي من سؤاله:

ـ ماذا فعلتَ بنفسك يا أخي؟!

مسح عينيْه بظاهر يده. سكت قليلًا، ثم قال:

ـ لم أفعل شيئًا، الأيَّام هي التي فعلتْ!

وبعد صمت قصير حوّل نظره عنّي، وبحرقةٍ قال:

ـ لقد ذبحتني مارال يا أخي. حطّمتني. هي مَنْ فعل ذلك بي!

بقيتُ يومين معه. طلب منّي ألَّا أُخبر أحدًا بوجوده هنا «حتى لميس». احترمتُ طلبه، وظللتُ أزوره كلّ بضعة أشهر مرَّةً طوال العامين الأخيرين اللذين ظلّ فيهما مختبئًا.

بعد أن مضى على وجوده مختبئًا في الخالديّة خمس سنوات، قال لأمِّه إنّه يعتقد أنَّ الأمور انتهت وأنَّ عليه أن يظهر علنًا للناس ليحلّ محلّ أبيه، مع أنَّه كان طوال حياته يصرّح بقناعةٍ واحدةٍ لا تتغيّر:

ـ لا يمكن أن أجلس مكانَ الشيخ عبد الهادي بعد وفاته. لم أُخلقْ لهذا الدور. سأكون منافقًا وكاذبًا إنْ فعلت ذلك.

عندما أخبرني بقراره الخروجَ إلى العلن في آخر زيارة لي في قصره، حاولتُ أن أثنيه عنه، وقلت له إنَّ عدم مشاركته في الكفاح المسلّح لن يشفع له، وإنَّه يعرِّض نفسه للسجن. لكنَّه لم يقتنع بكلامي. تساءلتُ عن الدوافع وراء قراره الظهورَ إلى العلن، ولم أصل إلى جواب حاسم. لعلّه أراد أن يجد له مكانًا جديدًا تحت الشمس؛ لعلّه قرار الإنسان اليائس والمحبط والمهزوم.

لقد رفض كلُّ إخوته، طوال ثلاث سنوات تقريبًا، أن يحلّ أيٌّ منهم مكانَ الشيخ عبد الهادي؛ فـ «طالما لم نتأكّد من وفاة سلام، فالمكانُ مكانُه». وحاولتْ أمُّه أن تثنيه عن قراره فلم تنجح. قال لها:

ـ فقط أريد منك أن تأخذي الأولادَ والنساءَ وتسكني أيَّ قصر من قصورنا في تركيا عند أولاد العمّة. ولكنْ قبل ساعةٍ من السفر أحضريهم عندي لأودِّعهم.

بعد سفر الأمّ والأولاد جمع سلام صفوةً من مريدي آل الشيخ وأتباعِهم. قال لهم إنَّه عاد، وحدَّد موعدًا للقاء الناس في الساحة، وأرسلهم لكي يبلغوا كلَّ مراكز آل الشيخ بهذا الموعد. لقد أراد ظهورًا حاشدًا. لعلَّه خمَّن في قرارة نفسه أنَّه سيكون محميًّا أكثر كلّما كان الحشدُ أكبر. وبلغتْ هذه الأخبارُ كلّها آذانَ المارشال وجنرالاتِه في اليوم نفسه.

في الموعد المحدّد كانت الساحةُ مليئةً بآلاف الناس. الجميع يرتدي الأبيض. رائحةُ زهور الربيع تملأ الجوّ. الكلّ في انتظار ظهور الشيخ عبد السلام آل الشيخ. ركب سلام على فرسه العربيَّة الأصيلة، التي تبدو عيناها الفاحمتان في منتهى الجمال وسط بياض رأسها ورقبتها وجسدها كلّه. قبل أن يركب داعب رقبةَ الفرس قليلًا وقبّل جبينَها. كتلةٌ من بياضٍ ظَهَرَ، هو وفرسُه، للحشود المتجمِّعة في الساحة. وفُتح له الطريق. بعضُ الأتباع كانوا يتمدَّدون أمامه على الطريق لتسير الفرسُ فوقهم، وهم يتباركون بهذا. وعندما أصبح وسط الساحة فُتحتْ أبوابُ جهنّم.

مئة وعشرون جنديًّا، من أمهر الرُّماة، أُلبسوا الملابسَ البيضاءَ الواسعة فوق ثيابهم العسكريّة واندسُّوا بين الناس. وعندما أصبح سلام في وسط الساحة خَلَعُوا تلك الملابس البيضاء وصوَّبوا بنادقَهم صوب

سلام. المهمَّة هي تفريغُ مخزن كامل من كلّ بندقيّة في جسد سلام. وخلال ثوانٍ قليلة توجَّهتْ ثلاثةُ آلاف وستمئة رصاصة نحو جسده.

وهنا تختلف الروايات:

ـ لحظةَ البدء بإطلاق الرصاص جفلت الفرسُ وأخذتْ تعدو بين الناس بجنون، فدهست العديدَ من الأشخاص حتى غابت عن النظر.

ـ لحظةَ البدء بإطلاق الرصاص جفلت الفرسُ، وانطلقتْ صوب الغرب. من فرط سرعتها كادت قوائمها ألَّا تلامس الأرض.

ـ ما إنْ خلع الجنودُ أرديتهم البيضاء، حتى عَرف سلام أنَّهم يريدون قتله. أراد أن تطير به الفرسُ لينجو. وطارت الفرس... لكنْ متأخِّرةً ثانيةً أو ثانيتين. كانت مدّةً كافيةً لأن تستقرّ في جسده مئاتُ الطلقات. بعد يومين من المجزرة ذهب الناسُ إلى مقبرة آل الشيخ، فوجدوا الفرسَ ميتةً، ووجدوا سلام وقد تمزَّق جسدُه كلّه منكبًّا فوقها ويداه تحتضنان رقبتها، أمام قبرٍ حديثِ الحفر. فكيف وصلت الفرس إلى هناك؟ ومَن الذي حفر القبر؟

بعد انسحاب الجنود أحاط بالساحة آلافُ الجنود، الذين نزلوا من باصات ذات لون زيتونيّ داكن. وبرزتْ بعضُ الآليّات العسكريّة المحمَّلة برشّاشات متوسِّطة وثقيلة، وبدأتْ بإطلاق النار على كلّ من في الساحة. طوال أكثر من ساعتين، حتى ملأتْ رائحةُ البارود هواءَ الخالديّة. بعد انتهاء المجزرة بدت الساحة وكأنّها مغطّاة ببساطٍ أبيض موشّى باللون الأحمر.

قال المارشال للجنرال الذي كلّفه بقيادة العمليّة:

ـ هؤلاء الكلاب، منذ ألف وأربعمائة عام وهم ينهبوننا ويكدِّسون الأموالَ والذهب. سرّ قوَّتهم في الأموال التي يملكونها، وهي موضوعة في سراديب تحت قصورهم. اقتلْ منهم قدر ما تريد، ولكنّني

أريد منك ألّا تترك قرشًا واحدًا في بيوتهم أو سراديبهم. حتى من يبقى حيًّا منهم يجب أن يكون فقيرًا لكي يُضطرّ مستقبلًا للعمل لدينا.. سنذلُّهم كما أذلُّوا آباءنا وأمّهاتنا. لقد جعلوا من أمّهاتنا وجدّاتنا خادماتٍ وعاهراتٍ، وسنجعل من نسائهم وبناتهم خادماتٍ وعاهراتٍ لنا.

بعد أن قَتَلَ الجنرالُ مَن قتل، انتقل وجنودَه إلى القصور التي لم يكن فيها غيرُ الخدم والعبيد. ضَربوا، شَتموا، اغتصبوا الخادمات، ونبشوا الطوابقَ السفليّةَ من القصور كلّها. حتى المجلس الكبير والمكتبة والمجلس الصغير وعشراتُ بيوت الضيافة حَفَروا تحتها، ولم يجدوا أيّ شيء. وصلوا إلى السرداب الذي يصل إلى المعبد الإغريقيّ، فوجدوا بقايا الصناديق الخشبيّة المهترئة تلعب بينها العقاربُ والأفاعي. أطلقوا الرصاصَ على الجداران والسقوف والأرضيّات. صَرَّ الجنرال على أسنانه وهو يستنزل اللعناتِ على آل الشيخ وعلى جدّهم خالد بن الوليد، وغادر بعد يومين عندما سطعتْ رائحةُ الجثث التي تملأ الساحة.

بعد ذهاب الجنود هبّ أهالي الخالديّة: حارة الأرمن، وحارة المسيحيين، وحارة الأكراد، وحارة الشركس، وحارة التركمان. وخلال يومين أُنشئتْ مقبرةٌ جديدة إلى جانب مقبرة عبد الله، وسمّاها الناس مقبرةَ سركيس، وهو الشخص الأرمنيّ الذي تبرّع بالأرض لإقامة هذه المقبرة. وقبل كلّ ذلك ذهب نفرٌ من الناس الذين نجوْا من المجزرة، متظاهرين بالموت بين الجثث، إلى مقبرة آل الشيخ، ودَفنوا عبد السلام في القبر المحفور حديثًا الذي لا يعرف أحدٌ مَنْ حفره.

وكانت حصيلة المجزرة أربعة آلاف وأربعمئة وأربعين قتيلًا.

سمعتُ بالمجزرة في اليوم الرابع، وفورًا ذهبت إلى الخالديّة.

ذهبتُ إلى بيتي الذي ورثتُه عن أصلان. ما زالت الخادمة التي ربَّت أصلان موجودةً وهي في كامل وعيها. شرحتْ لي الموضوع بحسب ما سمعته وبطريقةٍ مشوّشة. كانت زيارة القصور بلا جدوى، فلا أحد فيها غير الخدم. ذهبتُ إلى مقبرة آل الشيخ، ومن بعيد رأيتُ قبرًا جديدًا يجلس إلى جانبه شخصٌ قد أولاني ظهره. اقتربتُ وقد عرفتُ أنّ هذا قبر سلام. معيوف يجلس إلى جوار القبر شاخصَ العينين، ما إن رآني حتى بدأ بكاءً هستيريًّا وهو يضمّني ويقبّل يديّ. ومن بين شهقات بكائه فهمتُ أنَّه يسألني إذا كان قد بقي لحياته أيُّ معنًى بعد موت سلام. كان يخاطبني بـ «يا عمِّي» وهو ما كان يخاطب به سلام. سألتُه بعد أن هدأ كيف نجا من المجزرة؟ فقال: «ربَّما لوني الأسود هو الذي أنقذني». طلبتُ منه أن يسبقني إلى بيت أصلان وسألحق به بعد قليل. كنت أريد أن أبقى وحدي مع سلام، أريد أن أحدِّثه ويحدِّثني. وطال حديثنا. إذ عند المساء جفلتُ عندما وضع أحدُهم يده على كتفي. كان معيوف يقول بعربيّة مكسّرة:

ـ لقد انتظرتُكَ طويلًا، وعندما تأخّرتَ خفتُ أن يكون قد حصل لك مكروهٌ لا سمح الله؛ فهذه الأيّام لا أمان لها!

نهضتُ بتثاقل وقد تيبّستْ مفاصلي من رطوبة تراب المساء. ودَّعتُ سلام وعدتُ مع معيوف.

بعد سنة ونصف من مقتل سلام ماتت أمُّه وهي لا تعرف بمقتله؛ فقد حرص الجميعُ على عدم إيصال هذا النبأ إليها. وكانت قد أوصت حفيدَها الكبير، وهو ذو شخصيّة جدِّيّة كثيرًا ولا يعرف الابتسامَ حتى سمّاه كلُّ من في القصر «رحيم العابس»، بأنْ يدفنَها إلى جانب الشيخ عبد الهادي؛ كما أوصت بأن يُصلِّي ابنُها سلام عليها صلاةَ الجنازة رغم أنَّها لم تره طوال حياتها يصلّي. وفور وفاتها وضعوها في تابوتٍ

محاطٍ بألواح الثلج، ونُظِّم موكبٌ من بضع سيّارات، وفي المقدِّمة حفيداها التوأم: رحيم وعظيم.

بعد الدفن عاد الأخوان التوأم إلى قصر جدّهما في الخالديّة. فاستقبلهما الخدمُ الذين كانوا يتسلّمون كلّ شهر مبلغًا من المال يرسله رحيم. أقاما في القصر عدَّة أيّام وأقبل الناسُ للسلام عليهما. في اليوم العشرين نظر الأخوان واحدُهما إلى الآخر: «هل تفكِّر كما أفكِّر؟» وقرّرا العودةَ وإعادةَ سيرة آل الشيخ في الخالديّة.

واظبتُ على زيارة الخالديّة على الأقلّ مرَّةً كلّ سنة في ذكرى مقتل سلام، أحملُ إكليلًا من الورود إلى قبره، وأجلسُ إلى جانبه ساعتين أو ثلاثًا نتحدّث معًا. عند العصر أحمل شمعةً كبيرةً موضوعةً في إناء زجاجيّ، وأتسلّل صوب النهر الجافّ، وأدخل كهفَ سلام ومريم خلسةً، فأضع الشمعةَ إلى جانب مُزَقِ الأقمشة التي خلّفاها، وأخرج بعد أن أُشعل الشمعة. وفي كلّ عام عند العودة أجد مَن ينتظرني ليبلغني:

– عمِّي الشيخ رحيم وعمِّي الشيخ عظيم بانتظارك على العشاء.

يمتدّ العشاء حتى منتصف الليل، ويعاملاني بإجلال، وأحسُّ بعاطفتهما الدافقة نحوي. يتحوّلان إلى كتلة من الآذان الصاغية حين أحدّثُهما عن سلام؛ فهما يحسّان أنّهما يتعرّفان من خلالي إلى الأب الذي لم يعيشا معه ولم يتسنَّ لهما معرفتُه عن قرب. لا يقطع سيلَ حديثي سوى مواعيدِ صلاتهما، وكانا يصلّيان في مواعيدَ لم أسمعْ بها في حياتي.

عندما وضعتُ الشمعةَ العاشرةَ في الكهف وعدتُ إلى العشاء أعطاني رحيم رسالةً عليها اسمي: كانت من الشيخ الذي زرناه أنا وسلام أوّلَ خروجنا من السجن، وفيها يخبرني أنّ لي أمانةً عنده، وهو

قد طَعن في السنّ ويمكن أن يتوفّى في أيّ لحظة، ويريد أن يصفّي ذمَّته ـ فالأمانة ثقيلة. وحدَّد لي موعدًا سيأتي فيه ابنُه موصِلًا الأمانةَ إليّ.

كانت الأمانةُ واحدةً من تلك الصفائح التي لا تصدأ، وكان الشابّ الضخم يحملها بمشقّة. أشرتُ إليه بأنْ يضعها إلى جانب المكتب. وخلال عدَّة أيَّام ظللنا أنا ولميس نتناقش في ما يمكن أن نفعله بهذه الصفيحة المليئة بالذهب، وما إذا كان من المأمون بقاؤها هنا، وأخيرًا غطّتْها لميس بقطعةٍ قماشيّةٍ ونسيناها.

في اليوم الثاني بعد عودتي من وضع الشمعة السابعة عشرة في كهف سلام السرِّيّ، وفيما أنا ولميس نهمّ بالخروج من البيت قاصديْن الطبيبَ الذي يعالجني من السكّريّ والضغط، سمعنا طرقًا خفيفًا على الباب. فتحنا، وإذ بامرأةٍ ذاتِ شعر أبيض ومربوط إلى الخلف تقف في مواجهتنا، وهي تحمل حقيبةَ سفرٍ صغيرةً. ثوانيَ طويلةً تحدِّق فيها وتحدِّق فينا، ثم عرفناها وصرخنا معًا: مارال!

وارتمت علينا بقوّة. وجرى عناقٌ ثلاثيٌّ حارّ، وغرقنا في بكاءٍ استمرّ دقائقَ طويلة:

ـ خشيتُ أن لا أجدكما، أو أن أجدَ أنّ أحدكما قد غاب!

ثلاثةَ أيَّام لم نفعل شيئًا سوى الكلام. حدّثناها عن كلّ ما فاتها من أحداث. وقلنا لها إنّ ولديْها، رحيم وعظيم، في الخالديّة يرفضان الافتراقَ واحدهما عن الآخر، وكسرا قاعدةَ آل الشيخ بأن لا يبقى سوى الكبير. دائمًا متلازمان، حتى إنَّهما تزوّجا مبكِّرًا من أختين، ويعيشان معًا في القصر الكبير. أمّا الابن الأصغر فاختار أن يذهب إلى جنوب افريقيا، وأنشأ هناك مركزًا لآل الشيخ. حكينا لها عن المجزرة وكيف قُتل سلام. «يجب أن أزور قبرَه»، قالت لنا، «ولكنْ قبل ذلك

أريد أن أزورَ قبرَ أبي وبيتنا».

ذهبنا جميعًا إلى بيت أهل مارال بعد زيارة قبر مهران. البيت تحوَّل إلى خرابة، لا أبواب ولا نوافذ، وقد تداعى جزءٌ من السقف، والحيطان شبه مهدَّمة. دخلنا ونحن نتحاشى أن نتعثَّر بالأنقاض وقِطَع الخشب المهترئة. زكمتْ أنوفَنا روائحُ البول والبراز؛ فهذه الخرابة مثل كلّ الخرائب يستغلّها كلُّ عابر سبيل لا يجد مرحاضًا لقضاء حاجته. أشارت بيدها إلى الغرفة التي كانت مقرًّا لاجتماعات الفرقة الحزبيّة، ويتوسَّطها الآن كومٌ من التراب مغطّى بالبراز. قالت: «هنا وُلدتْ قصّةُ حبِّي لسلام». ثم وضعتْ يدها على صدرها وأضافت: «رجاءً أخرجوني من هنا لم أعد أستطيع التنفُّس».

عندما عدنا إلى البيت ظلّت تبكي طوال الطريق ولميس تحضنها. وفي اليوم الثالث مساءً، وقد هدأتْ مشاعرُنا قليلًا، قالت لميس:

ـ ولكنْ أنتِ يا مارال، هاتِ حدِّثينا عمّا جرى لك طوال هذه السنوات. وسنوات السجن الصعبة كيف استطعتِ تحمّلها؟

لم تجب فورًا. أحضرتْ حقيبتَها الصغيرةَ وأخرجتْ ثلاثة دفاتر. وبما يشبه الوقارَ أعطتني إيّاها، وقالت:

ـ هذه مذكّراتي، منذ ولادتي وحتى لحظة خروجي من السجن، بكلّ صدق وأمانة. ينقصها الفصلُ الأخير الذي قد تُضطرّ أنتَ إلى كتابته. ولكنْ عندما تقرأان هذه المذكّرات أرجو أن لا يكون حكمكُما عليّ كحكم أيّ إنسان عاديّ سيقول فورًا: «هذه امرأة فاسقة!». تقولين يا لميس «سنوات السجن الصعبة!». كلّا لم تكن صعبة، لقد عشتُ في السجن أجملَ أيّام حياتي. يكفي أنّني اكتشفتُ نفسي.

فور صدور الحكم على مارال أحسَّتْ بصدمة هائلة، إذ كيف ستقضي عشرين عامًا في زنزانة السجن؟ وأوَّل ما خطر في بالها هو

الانتحار «لن أسمح لهذا المارشال الكاذب والقذر بأن يجعلني أتعفّن في السجن... سأنُهي حياتي بخياري أنا!». وزاد الأمرَ سوءًا عندما وضعوها مع السجينات الجنائيّات: القتل، السرقة، النصب والاحتيال، الدعارة... كيف ستعيش مع نساء هذه جرائمُهنّ؟! نظرن إليها باحتقار عندما أخبرتهنَّ أنَّها طبيبة وأنّ تهمتَها سياسيّة!

ومرّت الأيَّام ببطء وتثاقل، حتى حصلتْ أوّلُ حالة مرضيّة خطيرة في مهجعها عند منتصف الليل، ولم يكن ثمّة طبيب. عرضتْ خدماتها على الضابط المناوب، وأنقذت المريضةَ من موتٍ محقّق. عندها تغيَّر وضعُها وأصبحتْ مقصدًا لكلِّ السجينات، وموضعَ ثقةِ إدارة السجن التي بدأت تطلب منها الانتقال إلى أيّ مهجع تحصل فيه حالةٌ مرضيّة. كما باتت كاتمةَ سرّ السجينات، وبدأت تكتشف عوالمَ السجن الداخليّة والسرِّيَّة، وفي الوقت نفسه اكتشفتْ أنّ في مكتبة السجن مجموعةً كبيرةً من كتب علم النفس والتحليل النفسيّ، فأكبَّت عليها بشغف، تساعدها في ذلك ثقافتُها الطبِّيَّةُ والسياسيّةُ وتجربتُها الشخصيّة، وبدأت تغوص في عالم الإنسان الداخليّ، ومعه تكتشف ذاتَها أيضًا.

إحدى السجينات، وعمرُها لا يتجاوز الخامسة والعشرين، كانت دائمةَ الالتصاق بها، وجاهزةً لتلبية أيّ شيء تريده. قالت لها بعد فترة من الزمن:

ـ هل تريدين أن أكون صاحبتَكِ يا دكتورة؟

كانت مارال تعرف أنّ هناك انتشارًا واسعًا للجنس المثليّ بين السجينات، ولكنْ لم تفكِّر يومًا أن تكون طرفًا في علاقة من هذا النوع. وبحديث هامس مع السجينة اعترفتْ لها بأنَّها لا تحبّ النومَ مع الرجال وأنّها تستمتع كثيرًا عندما تكون مع امرأة أخرى، وخصوصًا إذا كانت أكبرَ منها سنًّا لأنَّها تفضِّل أن تلعب الدورَ السلبيّ.

أيقظ هذا الحديثُ الهامسُ جسدَ مارال من جديد، وبدأتْ رحلةً في هذا البحر استمرَّت عشرين عامًا، وامتلكت الجرأةَ لأن تقول لنفسها: إنّني مثليّةُ الجنس منذ أن خُلقتُ، وعليّ ألّا أكتفي بالاعتراف بذلك بل عليّ أن أعيش الحياةَ كما خُلقتُ لها.

رغم القوّة الظاهريّة لقرارها هذا فإنّ شيئًا في أعماقها كان يقول عكسَ ذلك. وهو ما تُمْكن رؤيتُه بوضوح في ثنايا مذكَّراتها الشخصيّة:

ـ «امرأة فاسقة... عاهرة... شاذّة!! ليقل الجميعُ ما يريدون، وليُطْلقوا عليّ ما شاؤوا من أحكامٍ أخلاقيّة! كلّ هذا ليس مهمًّا لأنَّ قناعتي الأكيدة التي لا تتزعزع هي أنّني حرّةٌ في حياتي الشخصيّة، أمارسها كيف أشاء. وأصلًا الجنس، في قناعتي، يقع خارج دائرة الأخلاق. السارق والكاذب والمرتشي لاأخلاقيُّون وسفلة، ولكنّ المثليّ لم يختر هذه الميول؛ فإذا عاش حياتَه وفقًا لهذه الميول يكون لاأخلاقيًّا؟! لا أعتقد ذلك. ولكنْ أكثر مَنْ يزعجني هم رفاقي عندما ينعتوني بهذه الصفات لأنّني إنسانة حرّة!».

وفي مكانٍ آخر كتبتْ:

ـ اليوم، بعد حوالى السنتين على سجني، طلبتْ منّي إدارةُ السجن أن أعالج مريضةً في مهجع السياسيّات! وهذا المهجع كانت إدارةُ السجن تمنعني من الاقتراب منه، رغم أنّني أعرف جميع السجينات فيه: فهو المهجع الذي يضمّ رفيقاتي اللواتي كنّ معي في الجبل وشاركن في الكفاح المسلّح. خفق قلبي عندما عرفتُ أنّني سأرى رفيقاتي أخيرًا.

فَتَحَ الشرطيُّ البابَ وطلب منّي أن أناديه عندما أنتهي من عملي، ثم أغلق الباب. دخلتُ المهجع، وبنظرة سريعة لاحظتُ أنّ أكثر من

نصف الرفيقات ما زلن نائماتٍ ويغطّين رؤوسهنّ رغم أنّنا نقترب من منتصف النهار! أمّا الرفيقات الأخريات فكنّ يجلسن على فراشهنّ، وأغلبُهنّ يقرأن في الكتب. وحدها الرفيقة هالة تقف في وسط المهجع. اقتربتُ خطوتين نحو هالة وألقيتُ التحيّة بصوت عالٍ وأنا أبتسم.

النائمات بقين نائمات! القارئات دفنّ رؤوسهنّ بين دفّتي الكتاب. هالة وحدها ردّت على تحيَّتي بصوت خافت. ثم أفهمتني أنَّها رئيسة المهجع، وكأنّها تقول لي إنَّها مضطرّة لردّ تحيّتي والتعامل معي.

خرجتُ من مهجع رفيقاتي السابقات وقد امتلأ صدري حزنًا وكآبة. وآخرُ ما سمعتُه من كلام كان يدور بين اثنتين في زاوية المهجع: «إنّها ساقطة... إنّها عارٌ علينا».

* * *

في اليوم التالي طلبتْ منّا مارال، بلهجةٍ متوسِّلة، أن نرافقها إلى الخالديّة. كانت تتهيّب لقاءَ أبنائها وحدها. في الطريق لم تفوّتْ لميس الفرصة كعادتها في المزاح، وعادت إلى حديث البارحة. وبمنتهى الجدِّيّة قالت لمارال:

ـ أنا حزينة يا مارال.

ـ حزينة؟ ولماذا أنت حزينة؟

ـ حزينة لأنّك لم تكتشفي هذه الميول لديك عندما كنّا نعيش معًا وكنّا ما نزال في عزِّ الشباب. لو حدث هذا يومها كنّا ألقينا برجلينا إلى الشارع وعشنا أروعَ اللحظات.

ضحكنا كلّنا وقالت مارال وهي تضحك:

ـ لم يفت الأوان بعدُ يا لميس.

ـ ماذا؟! وهل تريدين منّي أن أفعل هذا وأنا في الخامسة والستِّين؟!

ـ على الإنسان أن يعيش الحياة حتى آخر نَفَسٍ في صدره!

كنّا قد أخبرنا رحيم وعظيم هاتفيًّا بقدومنا. بلغنا الخالديّة. قادتْنا خادمةٌ إلى غرفة في القصر الكبير، فوجدنا الأخوين ينتظراننا وقوفًا. تقدّمتُ منهما فعانقاني. لم ينظرا ناحية المرأتين أبدًا. ألقت لميس عليهما التحيّة وهي تتقدّم نحوهما. أطرقا الرأسَ أرضًا، وأشار رحيم إليها بيده إشارةً تعني: أن توقّفي عندك ولا تتقدّمي!

وقفتْ لميس مذهولةً. حاولتْ مارال أن تتقدّم صوب ولديها أيضًا فأشار إليها رحيم الإشارةَ ذاتها، وفعل ذلك دون أن ينظر إلى أيّ منهما. خيّم الصمتُ على المكان. سرحتُ بأفكاري لبرهة وجيزة، فاستعرضتُ الأجيالَ الثلاثةَ من آل الشيخ التي عرفتُها في هذا المكان: الشيخ عبد الهادي بهدوئه وتسامحه وسعةِ أفقه، وعبد السلام الذي أراد أن يكون جزءًا من العصر، والآن رحيم وعظيم باللحية الهائلة والشواربِ الحليقة والبقعةِ السوداء على الجبين والثوبِ القصير وملامحِ الوجهِ المتجهّمِ والعابس. إنَّ جدّهما الشيخ عبد الهادي شهد، عندما كان صغيرًا، كيف أنّ والده استقبل كلّ اللاجئين الهاربين من القتل في بلادهم، وبخاصّةٍ الأرمن، حتى وهم على غير دينه، وأعطاهم الأراضي ليبنوا بيوتهم بل ودُورَ عبادتهم أيضًا. لم يقل عنهم إنّهم كفرة! أمّا رحيم وعظيم فيكفّران أغلبَ المسلمين، وكلَّ من لا يكون على شاكلتهما!

كان كلامُهما واضحًا وحاسمًا:

ـ ليس لها مكانٌ هنا! نعم هي أمُّنا التي وَلَدتنا ولكنّنا لا نعرفها! حين كنّا صغارًا كنّا بحاجة إليها ولم تأتِ إلينا. كيف تتجرّأ وتأتي

لعندنا الآن؟ وتأتي مكشوفةَ الشعر وسافرة!

باءت كلُّ محاولاتي بالفشل. في النهاية قالا لي:

ـ دعها تذهب لعند أخينا في جنوب أفريقيا؛ فقد وافق على أن تعيش معه!

عندما عدتُ إلى المرأتين وقد أُجلستا وعُزلتا في غرفةٍ وحدهما، هبّت مارال وقالت:

ـ لا تقل أيّة كلمة. لي طلبٌ أخيرٌ عندكما، أرجوكما. أخرجاني من هذا البلد الملعون، ولو أرسلتماني إلى الجحيم.

وطلبتْ أن نذهب إلى قبر سلام. وهناك تركناها وحدها إلى جانب القبر. ظلّت جالسةً وهي تحتضن شاهدةَ القبر أكثرَ من ساعة، ثم أقبلتْ نحونا وهي تجرّ نفسَها جرًّا.

ظلّت مارال عندنا عشرةَ أيّامٍ أخرى، إلى أن استخرجتْ جوازَ سفر وأتمّت استعداداتها. وقد وافقتْ على السفر إلى جنوب أفريقيا قائلةً: «علّ ذلك الابنَ يعرف كيف يسلِّم على أمّه ويحيِّيها».

أوصلناها إلى المطار. عانقتنا دامعةَ العينين ومليئةً بالانكسار. عندما همّت بدخول الطائرة التفتت نحونا. لوّحتْ لنا بيدها وغابت.

قالت لميس، وهي جامدةُ الجسد والملامح وكأنّها تسأل نفسَها:

ـ هل تعتقد أنّنا سنرى مارال مرّةً أخرى؟

ـ لا... لا أعتقد.

# إهداء وشكر

إلى:

سحر البنّي، أمّ رهام ورزام، المرأة الجميلة التي التقيتُها ذاتَ صباح شتويّ بارد، فأدخلت الدفءَ إلى حياتي. ورغم مرور الكثير من السنوات ـ أو بسبب ذلك ـ ما زلتُ أحنّ إلى ذلك الرصيف الحلبيّ الذي احتوانا بحبّ وحنان.

إلى سحر... رفيقةِ الدرب والحياة.

وبغصّة حزن... إلى:

روح الصديقة الكبيرة... هيام مردم بك.

ومع الشكر الجزيل للصديقة سمر يزبك... الإنسانة السوريّة الشجاعة، التي كان لمساعدتها وملاحظاتها القيّمة أفضلُ الأثر.

وكذلك الشكر موصول إلى الصديقة التي قدَّمت لي الكثير: فاديا لاذقاني.

والصديق الكبير فاروق مردم بك، أستاذًا وصديقًا.

وسها وكمال البنّي، شاكرًا صبرَهما اللامحدود.

وإلى أصدقاء كثرٍ أعجز عن إيراد أسمائهم كلّهم، ولكنْ أخصّ بالذكر:

سعيد كيوان، هالة وبسمة قضماني، ليال وأيهم صبرا. وأخصّ بالذكر الصبيّتين الجميلتين لميس الجاسم، ونوال شاهين التي أعطتني مشكورةً الكثيرَ من جهدها ووقتها.

والقديرة... إيناس حرفوش.

وأخيرًا... الصديقة الرائعة رانية سمارة.

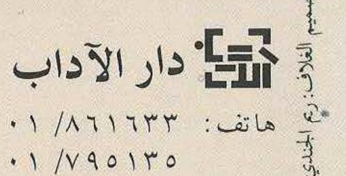
في قبوٍ دافئ لمقرّ جريدة حزبٍ معارض، يلتقي الراوي بشخصيْن سيَقلبان حياتَه رأسًا على عقب: لميس، الفاتنة المتمرِّدة؛ وعبد السلام، الذي سيسرد على الراوي حياتَه الغنيّة بالحبّ والصراع.

تنتقل بنا هذه الرواية من زنزانة، إلى "خلوة"، فإلى سراديبَ مليئةٍ بالذهب والنقود. وتعرّج على أزمنةٍ تاريخيّةٍ موسومةٍ بالخلافات والمذابح. لكنّها ليست روايةً تاريخيّةً بالمعنى المألوف، بل أدّى فيها الخيالُ دورًا أساسيًّا، وسمح لنفسه بأن يَستخدم سؤال: "ماذا لو؟".

مصطفى خليفة: كاتب سوريّ. صدرتْ له عن دار الآداب رواية القوقعة، إحدى أهمّ الروايات العربيّة وأكثرها مبيعًا في السنوات الأخيرة.



تصميم الغلاف: ريم الجندي


دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥


ISBN: 978-9953-89-517-8